الْقِسْمُ الرَّابِعُ

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(جَوَامِعُ الْأَدْعِيَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الْمُقَدِّمَةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، الرحمٰنِ الرحيم، مالكِ يَوْمِ الدِّين، وأشهدُ أنْ لا إلـٰه إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له الإلـٰهُ الحقُّ المُبين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ المبعوثُ رحمةً للعالمين، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

أما بعد:

فهذا القسمُ الرابعُ والأخيرُ من كتاب «فِقْه الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ»، وقد خَصَّصْتُهُ لفقهِ الدَّعواتِ الجوامعِ في الكتابِ والسُّنَّة، وقد حوى ـ بفضلِ اللهِ ومَنِّهِ ـ على نُخْبةٍ مباركةٍ مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ والصالحينَ المذكورةِ في القرآنِ الكريم، ومجموعةٍ طيِّبةٍ مِنَ الدعواتِ النبويَّةِ الثابتةِ في سُنَّةِ النبيِّ الكريم ﷺ، مع بيان معانيها، وتوضيحِ دَلَالاتها، والتنبيهِ على ما تَيسَّرَ مِنْ حِكَمِها وغايتها، مستفيدًا ذلك كلَّه مِنْ كلامِ أهلِ العلمِ ـ رحمهم الله ـ في كتبِ التفسيرِ، وشروحاتِ الحديثِ، وكتبِ الغريبِ، وغيرها، مع اعترافي بالقصورِ والتقصيرِ، عفا الله عنِّي وغفرَ لي.

وأرجوه سبحانه ـ وهو أهلُ الرَّجَاءِ ـ أن يَجْعَلَ عملي هذا خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، وأنْ يَجعلَ فيه البَرَكَةَ والقَبُول، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبينا محمَّد وعلى آلِهِ وصحبه.

١٧٦

مَكَانَةُ الْأَدْعِيَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

إنَّ كتابَ الله ﷻ كتابُ هدايةٍ وصلاحٍ وفلاحٍ للناس، ينهلُ مِنْ مَعِينِهِ السُّعَداء، ويهتدي بهديِهِ الموفَّقونَ مِنْ عبادِ الله، فيُرْشِدُهم إلى أقومِ السُّبُلِ وأرشدها وأنفعها في كلِّ مجال؛ في العقائدِ والعباداتِ والأخلاق، ويهديهم إلى كلِّ صلاحٍ وفلاحٍ دينيٍّ ودنيوي؛ بحيثُ تقومُ به أمورهم، وتزكو نفوسهم، وتعتدلُ أحوالُهم، ويستقيمُ طريقهم، ويحصُلُ لهم الكمالُ المتنوِّعُ من كل وجه؛ فهو كتابُ علمٍ وتعليمٍ تزولُ به الضلالاتُ المتفرِّقة، والجهالاتُ المتنوِّعة، وكتابُ تربيةٍ وتأديبٍ تتحقَّقُ به الأخلاقُ الفاضلة، والأعمالُ الكريمة، أنزله اللهُ تبارَكَ وتعالى هُدًى للعالمين، وتبصرةً للمتقين، ومَحَجَّةً للسالكين، وجمَعَ فيه سبحانه العلوم النافعة، والمعانيَ الجليلةَ الكاملة.

فمَنْ تَمسَّكَ به، فقد هُدِيَ، ومَنْ سار على نهجه، غَنِمَ؛ إذْ هو أعظمُ أبوابِ الهدايةِ، وأجَلُّ سبل الفلاح؛ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وكذلك الشأنُ في سُنَّةِ النبيِّ الكريم عليه الصلاة والسلام؛ فإنها تُوضِّحُ القرآنَ وتبيِّنُهُ وتفسِّرُهُ وتَدُلُّ عليه، وهي وحيٌ أُنْزِلَ عليه كما أُنْزِلَ القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وفي سنن أبي داود، والترمذي، وغيرهما، عن النبي ﷺ، أنه قال: **(أَلَا إِنِّي أُوْتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)**(١)، وقال ﷺ: **(تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا**

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٣٠ ـ ١٣١)، و«سنن أبي داود» (٤٦٠٤)، و«جامع الترمذي» (٢٦٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣/ ١١٨).

مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتابَ اللهِ وَسُنَّتِي)(١).

وقد أُوتِيَ ﷺ جوامعَ الكَلِم، وخُصَّ ببدائعِ الحِكَم؛ كما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ)**(٢)، وفي «المسند»، **عن عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، قال: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عُلِّمَ فوَاتِحَ الخَيْرِ وجَوَامِعَهُ، أو جَوَامِعَ الخَيْرِ وفَوَاتِحَهُ، وخَوَاتِمَهُ»(٣).

۞ **وإذا تقرَّر هذا**، فإنَّ الواجبَ على المسلمِ أن يَعْلَمَ عِظَمَ شأنِ الأدعيةِ الواردةِ في كتابِ الله، والمأثورةِ في سنة رسولِهِ الكريم ﷺ، وأنَّ فيها - بلا ريب - فواتحَ الخيرِ وخواتمَهُ وجوامعَهُ، وأولَهُ وآخرَهُ، وظاهرَهُ وباطنَهُ، مع ما فيها من جمالٍ وكمال، وحُسْنٍ وبهاء، وتحقيقٍ للمطالبِ العالية، والمقاصدِ الجليلة، والخيرِ الكاملِ في الدنيا والآخرة، وسلامةٍ مِنَ الخطأِ والزللِ والانحراف؛ فهي معصومةٌ مِنْ ذلك؛ لأنها وحيُ اللهِ وتنزيلُه. واللهُ جل وعلا قد اختارَ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ جوامعَ الأدعية، وفواتحَ الخيرِ، وتمامَ الأمرِ وكمالَهُ في الدنيا والآخرة.

ولذا عُنِيَ أئمةُ السَّلَفِ وعلماءُ المسلمين بربطِ الناسِ بأدعيةِ القرآنِ وأدعيةِ السنة؛ لِمَا فيهما مِنْ كمالٍ وعِصْمةٍ وسَلَامة.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «يُعْجِبُنِي في الفريضةِ أن يَدْعُوَ بِمَا في القرآن»(٤).

وقال القاضي عِيَاضٌ رحمه الله: «أَذِنَ اللهُ في دعائه، وعَلَّمَ الدعاءَ في كتابِهِ لخليقتِهِ، وعَلَّمَ النبيُّ ﷺ الدعاءَ لأمته، واجتمَعَتْ فيه ثلاثةُ أشياء: العلمُ بالتوحيد، والعلمُ باللغة، والنصيحةُ للأمة؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يَعْدِلَ عن دعائه ﷺ، وقد احتالَ الشيطانُ للناسِ مِنْ هذا المقام، فقَيَّضَ لهم قومَ سُوءٍ

---

(١) رواه مالك في «الموطَّأ» (١٦١٩)، وحسَّنه الألباني في التعليق على «هداية الرواة» (١/ ١٤١).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٢٩٧٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٣).
(٣) «مسند أحمد» (١/ ٤٠٨)، ورواه ابن ماجه رقم (١٨٩٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٥٤٧).
(٤) «سنن أبي داود»، بعد الحديث رقم (٨٨٤).

يخترعون لهم أدعيةً يشتغلون بها عن الاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ»[١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: «فعلى الإنسانِ أنْ يستعملَ ما في كتابِ اللهِ وصحيحِ السنة مِنَ الدعاء، ويَدَعَ ما سواه، ولا يقولَ: أختارُ كذا؛ فإنَّ اللهَ قد اختارَ لنبيِّهِ وأوليائِهِ، وعلَّمهم كيف يدعون»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي للخلقِ أن يَدْعُوا بالأدعيةِ الشرعيَّةِ التي جاء بها الكتابُ والسنة؛ فإنَّ ذلك لا رَيْبَ في فضلِهِ وحُسْنه، وأنه الصراطُ المستقيم، صراطُ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم من النبيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا»[٣].

والنقولُ عن أهل العلم في هذا المعنى كثيرة[٤].

ولـمَّا سُئِلَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عمَّن يقولُ في الدعاء: يا سيِّدي، قال: «يقول: يا رَبِّ، كما قالتِ الأنبياءُ في دُعَائِهِم».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كَرِهَ مالكٌ وابنُ أبي عِمْرانَ من أصحابِ أبي حنيفةَ، وغيرُهما: أن يقولَ الداعي: يا سَيِّدِي يا سَيِّدِي، وقالوا: قل كما قالتِ الأنبياءُ: رَبِّ رَبِّ»[٥].

❁ **فانظر ـ رعاكَ اللهُ ـ حُسْنَ ربطِ هؤلاءِ الأئمةِ الناسَ بدعواتِ الأنبياء، وأدعيةِ القرآن، والأدعيةِ المأثورةِ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام**، وأنه أَوْلَى ما يُدعى به، وأفضلُ ما يُسْتَعْمَل، وأنَّ مَنْ دعا بها، فهو على صراطٍ مستقيم، وسبيلٍ آمنة، وجادَّةٍ سَوِيَّة، يُؤْمَنُ معها العِثَارُ، ويُظْفَرُ بكلِّ خيرٍ وفضيلةٍ في الدنيا والآخرة.

وإذا اجتمَعَ للعبدِ الدعاءُ بالأدعيَةِ المأثورةِ، مَعَ فَهْمِ معانيها ودَلَالاتها، والصدقِ مَعَ اللهِ في السؤالِ والطلب، حاز الخَيْرَ كلَّه، وفُتِحَتْ له أبوابُهُ وسبُلُهُ، والتوفيقُ بيدِ اللهِ وَحْدَهُ.

---

(١) **انظر**: «الفتوحات الربانية» لابن علَّان (١/ ١٧).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ١٧٩). (٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٤٦).
(٤) **انظر**: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص١٠١).
(٥) «التوسل والوسيلة» (ص٩٣).

١٧٧

مَكَانَةُ الدُّعَاءِ الْوَارِدِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

إنَّ من أعظمِ الأدعيةِ الواردةِ وأجمعِهَا للخيرِ: ذلكُمُ الدُّعَاءَ المبارَكَ الذي اشتمَلَتْ عليه «**سورة الفاتحة**»، أفضلُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فهذا دعاءٌ عظيمٌ مباركٌ، بل هو أنفعُ الدعاءِ وأعظمُهُ، وحاجةُ الناسِ إليه أعظمُ مِنْ حاجتهم إلى سائر الأدعية؛ ولهذا أُمِرُوا بالدعاءِ به في كلِّ ركعةٍ من صلاة؛ فالمسلمُ يقولُهُ في كلِّ يومٍ سَبْعَ عَشْرةَ مَرَّةً فرضًا واجبًا، ولم يكنْ مثلُ هذا لأيِّ دعاءٍ آخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان أنفعُ الدعاء وأعظمُهُ وأحكمُهُ دعاءَ الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فإنه إذا هداه هذا الصراطَ، أعانَهُ على طاعتِهِ وتَرْكِ معصيته، فلم يُصِبْهُ شرٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لكنَّ الذنوبَ هي مِنْ لوازمِ نفسِ الإنسان، وهو محتاجٌ إلى الهُدَى في كلِّ لحظة، وهو إلى الهدى أحوجُ منه إلى الأكلِ والشرب؛ ليس كما يقولُهُ طائفةٌ مِنَ المفسِّرين: إنه قد هداه، فلماذا يَسْأَلُ الهُدَى، وإنَّ المرادَ بسؤالِ الهدى: الثباتُ أو مزيدُ الهداية!

بل العبدُ محتاجٌ إلى أن يُعَلِّمَهُ ربُّهُ ما يفعلُهُ مِنْ تفاصيلِ أحوالِهِ، وإلى ما يَتَوَلَّدُ مِنْ تفاصيلِ الأمورِ في كلِّ يوم، وإلى أنْ يُلْهَمَ أن يعملَ ذلك؛ فإنه لا يكفي مُجرَّدُ علمِهِ إنْ لم يجعلْهُ اللهُ مُرِيدًا للعملِ بعلمه، وإلَّا كان العلمُ حجةً عليه، ولم يكنْ مهتديًا، والعبدُ محتاجٌ إلى أن يجعلَهُ اللهُ قادرًا على العملِ بتلك

الإرادةِ الصالحةِ؛ فإنه لا يكونُ مهتديًا إلى الصراط المستقيم، صراطِ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين، إلا بهذه العلومِ، والإراداتِ، والقُدْرةِ على ذلك. ويدخُلُ في ذلك مِنْ أنواعِ الحاجات ما لا يمكنُ إحصاؤه؛ ولهذا كان الناسُ مأمورينَ بهذا الدعاءِ في كلِّ صلاةٍ لِفَرْطِ حاجتِهِمْ إليه، فليسوا إلى شيءٍ أحوجَ منهم إلى هذا الدعاء. وإنَّما يَعْرِفُ بعضَ قَدْرِ هذا الدعاءِ مَنِ اعتَبَرَ أحوالَ نَفْسِهِ ونفوسِ الإنسِ والجنِّ والمأمورين بهذا الدعاء، ورأى ما في النفوسِ مِنَ الجهلِ والظلمِ الذي يقتضي شَقَاءَهَا في الدنيا والآخرة، فيعلمُ أنَّ اللهَ ـ بفضلِهِ ورحمته ـ جعَلَ هذا الدعاءَ من أعظمِ الأسبابِ المقتضيةِ للخير، المانعةِ مِنَ الشر»[1]. اهـ.

ومع ما لهذا الدعاءِ العظيمِ مِنْ مكانةٍ وقَدْر، إلا أنَّ كثيرًا مِنَ الناسِ قد يقرأُ هذا الدعاءَ في «**سورة الفاتحة**» دُونَ أن يستشعرَ أنه دعاء، فما أحوَجَ عوامَّ المسلمينَ إلى التنبيهِ إلى أنَّ هذا دعاءٌ عظيمٌ أَمَرَ الربُّ ﷻ عبادَهُ أن يدعوه به.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوَهَّاب رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا تَأَمَّلَ العبدُ هذا، وعَلِمَ أنها نصفان: نصفٌ لله، وهو أوَّلها إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفٌ للعبدِ دعاءٌ يدعو به لنفسه، وتَأَمَّلَ أن الذي عَلَّمَهُ هذا هو اللهُ تعالى، وأمرَهُ أن يَدْعُوَ به ويُكَرِّرَهُ في كلِّ ركعة، وأنه سبحانه ـ مِنْ فضلِهِ وكرمه ـ ضَمِنَ إجابةَ هذا الدعاءِ إذا دعاه بإخلاصٍ وحضورِ قلب، تَبيَّنَ له ما أضاع أكثَرُ الناس»[2]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ **في رسالةٍ لطيفةٍ عظيمةِ النفعِ فيما ينبغي للمعلِّم أن يَعْلَمَهُ:** «ومِنْ أعظمِ ما تنبِّهه عليه: التضرُّعُ عندَ اللهِ، والنصيحةُ، وإحضارُ القلبِ في دعاءِ الفاتحةِ إذا صَلَّى»[3].

وما أحوَجَهُمْ كذلك إلى تَعقُّلِ معناه، وفَهْمِ دَلَالته، ومعرفةِ كمالِ هذا الدعاءِ المبارك، وجمعِهِ لخيري الدنيا والآخرة، وأنه مِنْ أجمعِ الأدعيةِ وأنفعها

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٢٠ ـ ٣٢١). (٢) «الدرر السنية» (١٠/ ٢٨).
(٣) «الدرر السنية» (١/ ١١٥).

للعبد؛ ولهذا وجَبَ على المسلمِ أن يَدْعُوَ اللهَ به في كلِّ ركعةٍ مِنْ صلاتِهِ؛ لضرورتِهِ إلى هذه الدعوةِ الجامعةِ المباركة.

وقد بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ وجهَ كونِ هذا الدعاءِ جامعًا لخيري الدنيا والآخرة؛ **فقال**: «أما جمعُهُ لخيرِ الآخرة: فواضحٌ، وأما جمعُهُ لخيرِ الدنيا: فلأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، والإيمانُ والتقوى هو الصراطُ المستقيم، فقد أخبَرَ أنَّ ذلك سببٌ لفتحِ بَرَكَاتِ السماءِ والأرض؛ هذا في الرِّزْق، وأمَّا في النصرِ، فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فأخبَرَ اللهُ أن العزةَ تحصُلُ بالإيمان، وهو الصراطُ المستقيم. فإذا حصَلَ العزُّ والنصر، وحصل فتحُ بركاتِ السماءِ والأرض، فهذا خيرُ الدنيا»[(١)].

وإنَّ خيرَ ما يَفْتَحُ للمسلمِ بابَ فهمِ هذه السورة وما اشتَمَلَتْ عليه من دعاءٍ عظيمٍ جامعٍ: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: (**قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بِيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذا قَالَ العَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **قَال اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَال: مَجَّدَنِي عَبْدِي، (وقَال مَرةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي)، فإذا قَال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **قَال: هَذَا بَيْنِي وبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**)[(٢)].

فإذا تأمَّلَ ذلك العبدُ، وعَلِمَ ما اشْتَمَلَتْ عليه هذه السورةُ مِنَ الثناءِ على اللهِ وتعظيمِهِ، وما تضمَّنَتْهُ مِنْ دعاءٍ وسؤالٍ وطلبٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأيقَنَ بإجابةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ له، تَبيَّنَ له عَظِيمُ نفعِهَا وأثرِها، وكثرةُ فوائدِهَا وعوائدِها؛ فإذا

(١) «الدرر السنية» (١٠/ ٣٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص٧٥).

قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقَفَ هُنَيْهَةً ينتظرُ جوابَ ربِّه له بقوله: (**حَمِدَنِي عَبْدِي**)، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، انتظَرَ الجواب بقوله: (**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**)، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، انتظَرَ جوابَهُ بقوله: (**مَجَّدَنِي عَبْدِي**)؛ فيا لذةَ قلبه، وقُرَّةَ عينه، وسرورَ نفسه بهذا الفضلِ العظيم، والنوالِ الكريم!

* * *

١٧٨

مَضَامِينُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

تَقدَّمَ بيانُ مكانةِ الدعاءِ العظيمِ الذي اشتَمَلَتْ عليه «**سورة الفاتحة**»، وجمعِهِ لخيري الدنيا والآخرة، مع غفلةِ كثيرٍ من الناس عن معانيه العظيمة، ودَلَالتِهِ النافعة، وفوائِدِهِ الجليلة، وفيما يلي وقفةٌ مع شيءٍ من مضامينِ هذه السورةِ المباركة.

«وقد اشتَمَلَتْ هذه السورةُ الكريمة، وهي سبعُ آيات، على حَمْدِ اللهِ وتمجيده، والثناءِ عليه: بذكرِ أسمائِهِ الحسنى المستلزمةِ لصفاتِهِ العُلَا، وعلى ذكرِ المعاد ـ وهو يومُ الدين ـ وعلى إرشادِ عبادِهِ إلى سؤالِهِ والتضرُّعِ إليه، والتبرِّي مِنْ حولهم وقوتهم، وإلى إخلاصِ العبادةِ له وتوحيدِهِ بالإلٰهية، وتنزيهِهِ أنْ يكونَ له شريكٌ أو نظيرٌ أو مُمَاثِلٌ، وإلى سؤالهم إيَّاه الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيم ـ وهو الدينُ القويم ـ وتثبيتِهِمْ عليه حتى يُفْضِيَ بهم ذلك إلى جوازِ الصراطِ الحِسِّيِّ يومَ القيامةِ المُفْضِي بهم إلى جَنَّاتِ النعيم، في جِوَارِ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واشتَمَلَتْ على الترغيبِ في الأعمالِ الصالحة؛ ليكونوا مَعَ أَهْلِها يومَ القيامة، والتحذيرِ مِنْ مسالكِ الباطل؛ لئلا يُحْشَرَ مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوبُ عليهم والضالُّون»[١].

واللهُ ﷻ قد عَلَّمَ عبادَهُ في هذه السورةِ المباركةِ كيف يدعونَهُ ويسألونَهُ ويطلبونَ منه، وقولُكُ بين يدي السورة: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ **أي**: أبتدِئ باسم الله، والباءُ للاستعانةِ، و﴿ٱللَّهُ﴾: هو المألوهُ المعبودُ المستحقُّ لأنْ يُفْرَدَ وحدَهُ بالعبادة، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمانِ دالّانِ على أنه سبحانه ذو

(١) «الدرر السنية» (١٠/ ٣٩)؛ وهو من كلام الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن في تفسيره للفاتحة.

الرحمةِ الواسعةِ العظيمةِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيء، وعَمَّتْ كلَّ حيٍّ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **الحَمْدُ**: هو الثناءُ على اللهِ بصفاتِ الكمال، ونعوتِ الجلال، وأفعالِهِ الدائرةِ بين الفضلِ والعدل؛ فله الحمدُ الكاملُ بجميعِ الوجوه.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **الرَّبُّ**: المُرَبِّي جميعَ العالمين، وهم مَنْ سوى اللهِ، بِخَلْقِهِ لهم وإعدادِهِ لهم الآلاتِ، وإنعامِهِ عليهم بالنعمِ العظيمة.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **المَالِكُ**: هو مَنِ اتَّصَفَ بصفةِ المُلْكِ التي مِنْ آثارِهَا أنه يأمُرُ وينهى، ويُثِيبُ ويعاقب، ويَتصرَّفُ بمماليكِهِ بجميعِ أنواعِ التصرُّفات. وأضاف المُلْكَ ليوم الدين، وهو يومُ القيامةِ، يَوْمَ يُدانُ الناسُ فيه بأعمالِهِمْ خَيْرِها وشرِّها؛ لأنَّ في ذلك اليومِ يظهرُ للخلقِ تمامَ الظهورِ كمالُ مُلْكِهِ وعَدْلِهِ وحكمته، وانقطاعُ أملاكِ الخلائق؛ وإلا فهو المالكُ ليومِ الدين وغيرِهِ مِنَ الأيام.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ **أي**: نَخُصُّكَ وَحْدَكَ بالعبادةِ والاستعانة؛ لأنَّ تقديمَ المعمولِ يفيدُ الحصر؛ **فكأنه يقول**: نعبدُكَ ولا نعبُدُ غيرك، ونستعينُ بك ولا نستعينُ بغيرك. **والعِبَادَةُ**: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاه من الأعمالِ والأقوالِ، الظاهرةِ والباطنة، **والاستعانةُ هي**: الاعتمادُ على اللهِ تعالى في جلبِ المنافع، ودفعِ المَضَارِّ، مع الثقةِ به في تحصيلِ ذلك.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ **أي**: دُلَّنا وأَرْشِدْنا ووَفِّقْنا إلى سلوكِ **الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم، وهو**: الطريقُ الواضحُ الموصِلُ إلى اللهِ وإلى جَنَّته، وهو معرفةُ الحَقِّ، والعملُ به.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ **أي**: مَنَنْتَ عليهم بالعلمِ النافع، والعملِ الصالح؛ مِنَ النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: غيرِ طريقِ المغضوبِ عليهم، **وهم** الذين عَرَفُوا الحَقَّ وتركوه ولم يعملوا به؛ كاليهودِ ونحوِهم، وغيرِ طريقِ الضالِّين، **وهم** الذين تركوا الحَقَّ على جهلٍ وضلال؛ كالنصارى ونحوهم.

وقوله في هذه السورة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا هو الدعاءُ الصريحُ الذي هو حَظُّ العبدِ مِنَ الله، وهو التضرُّعُ إليه والإلحاحُ عليه بعدَ الثناءِ عليه وحَمْدِهِ وتمجيده: أن يرزُقَهُ هذا المطلبَ العظيمَ الذي لم يُعْطَ أحدٌ في الدنيا والآخرةِ أفضلَ منه؛ ولَمَّا كان سؤالُ اللهِ الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُهُ أشرفَ المواهب، علَّم عبادَهُ كيفيَّةَ سؤاله، وأَمَرَهُمْ أن يقدِّموا بين يديه حمدَهُ والثناءَ عليه وتمجيدَه، ثم ذكَرَ عبوديَّتَهُمْ وتوحيدهم.

أما عن حاجة العبد إلى هذه الدعوةِ العظيمةِ والمواظبة عليها:

* **فيقول ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ: «فليس العبدُ أحوجَ منه إلى هذه الدعوة، وليس شيءٌ أنفعَ له منها؛ فإنَّ الصراطَ المستقيمَ يتضمَّنُ علومًا وإراداتٍ وأعمالًا وتروكًا ظاهرةً وباطنةً، تجري عليه كلَّ وقت، فتفاصيلُ الصراطِ المستقيمِ قد يعلمها العبدُ وقد لا يعلمها، وقد يكونُ ما لا يعلمُهُ أكثرَ مما يعلمُهُ، وما يعلمه قد يَقْدِرُ عليه وقد لا يَقْدِرُ عليه، وهو من الصراطِ المستقيم وإنْ عَجَزَ عنه، وما يَقْدِرُ عليه قد تريدُهُ نفسُهُ وقد لا تريده؛ كسلًا وتهاوُنًا، أو لقيامِ مانعٍ وغيرِ ذلك، وما تريدُهُ قد يفعلُهُ وقد لا يفعله، وما يفعلُهُ قد يقومُ فيه بشروطِ الإخلاصِ وقد لا يقومُ فيه، وما يقومُ فيه بشروطِ الإخلاصِ قد يقومُ فيه بكمالِ المتابعةِ وقد لا يقوم، وما يقومُ فيه بالمتابعة قد يَثْبُتُ عليه وقد يُصْرَفُ قلبُهُ عنه؛ وهذا كلُّه واقعٌ سارٍ في الخلق، فمستقِلٌّ ومستكثِرٌ»[(١)]. اهـ.

وذكَرَ نحوًا من هذا في موضعٍ آخر، **ثم قال**: «وبهذا يُعْرَفُ قدرُ هذا الدعاءِ

---

(١) «الجواب الكافي» (ص١٤٣ ـ ١٤٤)، **وانظر**: «الدرر السنية» (١٠/ ٣٧ ـ ٣٨).

العظيم، وشِدَّةُ الحاجةِ إليه، وتَوَقُّفُ سعادةِ الدنيا والآخرةِ عليه»(١).

ومَنْ تأمَّل كلامَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ أدرَكَ شدةَ حاجةِ العبادِ وعِظَمَ ضرورتهم إلى العنايةِ بهذه الدعوةِ العظيمة.

ونسألُ اللهَ الكريمَ أن يَهْدِيَنا إليه صراطًا مستقيمًا، وأَنْ يُجَنِّبَنا الزَّلَل؛ إنَّه سبحانَهُ سميعُ الدعاء، وهو أهلُ الرَّجَاء، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

* * *

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٨).

١٧٩

مَكَانَةُ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ

في القرآنِ الكريمِ آياتٌ كثيرةٌ ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها أمثلةً مِنْ دعواتِ الأنبياءِ والمرسلين، ومناجاتِهم لربِّهم، وتوسُّلِهم إليه، وفزَعِهم إليه، وانكسارِهِمْ بين يديه، وذُلِّهم وخُضُوعِهِم، ورَغَبِهم ورَهَبِهِمْ، وكمالِ أَدَبِهِمْ في مناجاتهم لربِّهِمْ، وتضرُّعِهم ودعائهم؛ وذلك لِيتعلَّمَ عبادُ اللهِ المؤمنون النهجَ السديد، والطريقَ الرشيد، والمسلكَ القويمَ والأدبَ الرَّفيعَ في دُعَاءِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ ومناجاته.

ولهذا لَمَّا ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في «**سورة الأنعام**» طرفًا مِنْ أخبارِهِمُ المباركة، وأعمالِهِمُ الجليلة، وأوصافِهِمُ الفاضلة، قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهذا فيه أمرٌ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباعِ سَنَنِهم، ولزومِ نَهْجِهم، وتوجيهٌ لأمتِهِ عليه الصلاةُ والسلام بأن يكونوا كذلك. وقد فعَلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أُمِرَ به، وامتثَلَ ذلك حقَّ الامتثال؛ فاهتَدَى بِهَدْيِ المرسلين قَبْلَه، وجمَعَ كلَّ كمالٍ فيهم؛ فاجتمَعَتْ لديه فضائلُ مباركةٌ، وخِصَالٌ عظيمةٌ، فاقَ بها جميعَ العالمين، وكان سَيِّدَ المرسلين، وإمامَ المتقين، وقُدْوةَ الصالحين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلى جميعِ الأنبياءِ والمرسلين.

والأنبياءُ هم صفوةُ الناسِ وخُلَاصَتُهم، وفي قَصَصِهِمْ وأخبارِهِمْ عِبَرٌ وعِظَاتٌ بالغاتٌ للمؤمنينَ ليقتدوا بِهِمْ في جميعِ مَقَاماتِ الدِّينِ؛ في مقامِ التوحيدِ والقيامِ بالعبودية، وفي مقاماتِ الدَّعْوةِ والصبرِ والثبات عند جميعِ النوائب والشدائد، وتَلَقِّي ذلك بالسكونِ والثباتِ والطمأنينة، وفي مقامِ الصِّدْقِ والإخلاصِ لله في جميعِ الحَرَكاتِ والسَّكَنات، وفيها مِنَ الوعظِ والتذكيرِ والترغيب، والفَرَجِ بعد الشدَّة، وتيسيرِ الأمورِ بعدَ تَعَسُّرها، وحُسْنِ العواقبِ المشاهَدَةِ في هذه الدارِ ما فيه سَلْوَةٌ للمحزونين، وزادٌ للمتقين، وسرورٌ

للعابدين، وأُنْسٌ للمؤمنين؛ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

إنَّ اللهَ عز وجل قد اختارَ أنبياءَهُ واصطفاهم وفَضَّلَهُمْ واجتباهم، وجعَلَهُمْ للخَلْقِ قادةً، وفي الخيرِ قُدْوةً؛ فبهم عُرِفَ الله، وبهم وُحِّدَ، وبهم عُرِفَ الصراطُ المستقيم، وعلى آثارِهِمْ وصَلَ أهلُ الجَنَّةِ إلى كلِّ نعيم، وفازوا بكلِّ خيرٍ وسعادةٍ في الدنيا والآخرة، بل حَظُّ العبدِ مِنَ السعادةِ يكونُ بِحَسَبِ حَظِّهِ مِنَ الاقتفاءِ لآثارهم، والسيرِ على نهجهم، وتَرَسُّم خطاهم.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]؛ فكمَّلَهُمُ اللهُ عز وجل بفعلِ الخيرات، وإقامِ الصلوات، وإيتاءِ الزكاة، والمداومةِ على عبادةِ الله؛ فكانوا بذلك قُدْوةً لِمَنْ عداهم، فمَنِ اقتدى بهم فاز، ومَنِ ائْتَسَى بهم غَنِمَ.

ومِنْ كمالِ الأنبياء: ما ذكَرَهُ اللهُ عنهم مِنْ عظيمِ صِلَتِهِمْ بالله، وكمالِ إقبالهم عليه، وقوةِ التجائهم إليه في أحوالِهِمْ جميعِهَا، وشؤونِهِمْ كلِّها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ أي: يبادرونَ إلى الخَيْرات، ويَفْعَلُونَهَا في أوقاتها الفاضلة، ويُكَمِّلُونَهَا على الوجهِ اللائقِ الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلةً يَقْدِرُونَ عليها إلا انتهزوا الفرصةَ فيها، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ أي: يسألوننا الأمورَ المرغوبَ فيها مِنْ مصالحِ الدنيا والآخرة، ويَتَعوَّذونَ بنا مِنَ الأمورِ المرهوبِ منها مِنْ مَضَارِّ الدارَيْن، وهم راغبون راهبون، لا غافلون لاهون، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾؛ أي: خاضعين متذلِّلين متضرِّعين؛ فما أَكْمَلَها من حال! وما أَحْسَنَها من صلةٍ ومعرفةٍ بالربِّ العظيم، والخالق الجليل!

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «فإنَّ الأنبياءَ كلَّهم سألوا اللهَ ودَعَوْهُ، كما ذكَرَ اللهُ ذلك في قِصَّةِ آدَمَ وإبراهيمَ ومُوسَى وغيرِهم»(١).

(١) «التوسل والوسيلة» (ص٥٥).

كم هو جميلٌ بالمسلمِ أن يَعْرِفَ سِيَرَ الأنبياءِ وأَخْبَارَهم، وكمالَ تعبُّدهم وتذلُّلهم، وخضوعِهِمْ وخشوعهم، وما وصَفَهُمُ اللهُ به مِنَ الصدقِ الكاملِ والأوصافِ الكاملة، وما لهم مِنَ الفضلِ والفواضلِ والإحسان؛ لِيَعْظُمَ حظُّهُ مِنَ الاقتداءِ بهم!! وقد ذكَرَ اللهُ ﷻ في مواضعَ عديدةٍ مِنَ القرآنِ الكريم أمثلةً عديدةً مِنْ دَعَواتِ النبيِّين، وسؤالاتِ المرسلين، لربِّ العالمين، وعظيمِ رجائهم لرحمته، وطَمَعِهم في فضله، وفَزَعِهم إليه في جميعِ أحوالهم؛ فذكَرَ دعاءَ آدمَ ونُوحٍ وإبراهيمَ وإسماعيلَ، ومُوسَى ويُونُسَ وأيُّوبَ وعيسى، وغَيْرِهم مِنْ أنبيائِهِ ورسلِه ـ عليهم صلواتُ اللهِ وسلامه ـ لِيتعلَّمَ الناسُ صفةَ الدعاءِ وأَدَبَهُ، وكمالَ الالتجاءِ والتذلُّلِ لربِّ العالمين، وذكَرَ تعالى إجابتَهُ لِدَعَوَاتهم، وتحقيقَهُ لِرَغَبَاتهم، وتيسيرَهُ لأمورهم مهما عَظُمَ الخَطْب، واشتدَّ الكَرْب، وكم لَقُوا مِنَ الابتلاءِ والمكابدةِ وعُتُوِّ الأقوام، فصَبَرُوا والْتَجَؤُوا إلى ربِّهم مؤمِّلين منه الفرجَ، راجين منه التيسيرَ؛ فجاءهم فَرَجُ اللهِ ونَصْرُهُ وتأييدُه؛ لكمالِ التجائِهِمْ، وحُسْنِ رجائهم.

ومَنِ اقتدى بهم في ذلك، أعانَهُ كما أعانهم، وأنجاهُ كما أنجاهم؛ وتَأَمَّلْ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء]، وهذا وَعْدٌ وبِشَارَةٌ لكلِّ مؤمنٍ اقتَدَى في شِدَّتِهِ وكَرْبِهِ بيونسَ ﵇ في هذه الدعوة؛ روى الترمذي، عن سَعْد بن أبي وَقَّاص ﵁، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ)**(١).

هذا وسيَمُرُّ معنا ـ إن شاء الله ـ عرضٌ لدعواتِ الأنبياءِ الواردةِ في القرآنِ الكريم، وبيانٌ لِمَا فيها مِنْ حِكَم وعظاتٍ، سائلينَ اللهَ العونَ والتسديدَ، وأن يُوفِّقَنَا لاتِّباعهم، والسيرِ على مِنْهَاجِهِمْ؛ إنه سميعٌ مجيب.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٤٣).

١٨٠

اسْتِغْفَارُ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام

لقد ذكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ القرآنِ الكريمِ عن أنبيائِهِ ورسله - عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ - مِنْ كمالِ تعبُّدهم، وتمامِ تذلُّلهم وخضوعِهِمْ واستكانَتِهِمْ لله ربِّ العالمين، فكانوا في الخيرِ قادةً، وللمهتدين مِنْ عبادِ اللهِ قُدْوةً وسادة. ومع هذا التمامِ والكمال، فقد كانوا مُلازِمِينَ للتوبةِ والاستغفار، والإنابةِ إلى العزيزِ الغفار، وقد ذكَرَ اللهُ ﷻ في غيرِ موضعٍ مِنَ القرآنِ عن غيرِ واحدٍ من الأنبياءِ: استغفارَهُمْ وتَوْبَتَهم إلى اللهِ ﷻ؛ ومن ذلكم: ما ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ عن نبيِّه آدمَ عليه السلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة]، وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه].

وذكَرَ عن نُوحٍ عليه السلام أنه لَمَّا سأَلَ ربَّه وناداه: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ

﴿ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]؛ حيثُ أدركَتْهُ الشفقةُ على وَلَدِهِ، وقد وعده الله بنجاةِ أهلِه، فظَنَّ أنَّ الوعدَ لعمومِ مَنْ آمَنَ ومَنْ لم يؤمنْ؛ لذلك دعا بهذه الدعوة، فقال اللهُ له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فندمَ عليه السلام مما صدرَ منه، وطلَبَ من ربِّه العفوَ والغُفْران: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]؛ فهذا استغفارٌ وتوبةٌ منه عليه السلام.

وذكَرَ عز وجل استغفارَ نَبيِّهِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام، فذكَرَ أنه قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وذكَرَ سبحانه استغفارَ نبيِّهِ موسى عليه السلام، ومِنْ ذلك قولُهُ تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وقال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وقال موسى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف].

وذكَرَ سبحانه استغفارَ سُلَيْمانَ عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص].

وذكَرَ سبحانه استغفارَ داوُدَ عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟

ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص].

وقال عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء].

فهذه الآياتُ مشتملةٌ على توبةِ الأنبياء، واستغفارِهِمْ، وعظيمِ إنابتهم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ قد ذَكَرَهَا اللهُ عنهم في كتابِهِ في مَعْرِضِ الثناءِ عليهم، وبيانِ فَضْلِهِمْ وكمالهم، ليتأسَّى بهم الناس، ويقتدي بهم الخَلْق. **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللهُ تعالى قَصَّ علينا قَصَصَ توبةِ الأنبياءِ لنقتدِيَ بهم في المَتَاب»[1]. اهـ.

وكم هو جميلٌ بالمسلمِ أن يَتأمَّلَ هذا القَصَصَ الكريم، والحالَ العظيم الذي عليه هؤلاءِ الصَّفْوةُ المختارة، أنبياءُ اللهِ ورُسُلُهُ ـ عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ ـ فيَجْعَلَهُمْ قُدْوةً في لزومِ التوبةِ إلى الله، والإنابةِ إليه، والإكثارِ من الاستغفار؛ فإنَّ في ذلك رِفْعةَ الدرجات، وتواليَ الخَيْرات، وكثرةَ العطايا والهِبَات؛ فإنَّ الله يُحِبُّ التوَّابين ويحبُّ المتطهِّرين.

❀ ❀ ❀

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٨٠).

١٨١

دُعاءُ آدمَ عليه السلام

إنَّ من الدعواتِ العظيمةِ الواردةِ في القرآن: دعاءَ آدمَ عليه السلام أبي البَشَر، المُشْتَمِلَ على توبتِهِ إلى الله، وطَلَبِ مغفرتِهِ ورحمتِهِ وإقالةِ عثرته؛ حيثُ كان قد ارتكَبَ ما نهاه اللهُ عنه، ووقَعَ فيما منعه منه؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف].

فهذه خطيئةُ آدَمَ وذنبُهُ الذي اقتَرَفَهُ، ولكنَّه سُرْعانَ ما أناب، واعتَرَفَ بذنبه، وأَقَرَّ بخطيئته، وطلَبَ مِنْ ربِّه العفوَ والغُفْران؛ وقد ألهَمَهُ ربُّه كلماتٍ يقولها، ودعوات يدعو بها، فقَبِلَ تَوْبَتَه، وأقالَ عَثْرَتَه، ورفَعَ دَرَجَتَه، وهداه واجتباه؛ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وهذه الكلماتُ التي تَلَقَّى آدمُ عليه السلام من ربِّه ـ **على الصحيح مِنْ أقوالِ أهلِ العلم** ـ هي المبيَّنةُ في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، **قال ابن جرير الطبريُّ** رحمه الله: «والذي يَدُلُّ عليه كتابُ اللهِ جلَّ ثناؤه: أنَّ الكلماتِ التي تلقاهُنَّ آدمُ مِنْ ربِّه: هُنَّ الكلماتُ التي أخبَرَ جلَّ ذكرُهُ عنه أنه قالها متنصِّلًا بِقِيلِهَا إلى ربِّه، معترفًا بذنبه؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»(١).

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٥٨٦).

ومعنى هذه الدعوةِ: أي: قد فَعَلْنَا الذنبَ الذي نُهِينَا عنه، وضَرَرْنا أَنْفُسَنا باقترافه، ووَقَعْنا في سَبَبِ الخُسْرانِ إنْ لم تغفرْ لنا بِمَحْوِ أثرِ الذنبِ وعقوبتِهِ، وتَرْحَمْنا بِقَبُولِ التوبةِ والمعافاة مِنْ أمثالِ هذه الخطايا؛ فغفَرَ اللهُ لهما ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه]، وذِكْرُ هذا الأمرِ عنه وبيانُ هذه التوبةِ منه فيه تعليمٌ لذُرِّيَّتِهِ إذا وقعوا في الذنبِ والخطيئةِ سبيلَ الرجوعِ والأَوْبة، وطريقَ الإنابةِ والتوبة.

قال ابن جرير رحمه الله: «وهذا الخبَرُ الذي أخبَرَ اللهُ عن آدمَ مِنْ قِيلِه الذي لقَّاهُ اللهُ إياه، فقاله تائبًا إليه مِنْ خطيئته، تعريفٌ منه جلَّ ذكره جميعَ المخاطبينَ بكتابِهِ كيفيَّة التوبةِ إليه مِنَ الذنوب... وأنَّ خَلَاصَهم مما هم عليه مقيمون مِنَ الضلالةِ نظيرُ خلاصِ أبيهم آدمَ مِنْ خطيئته»(١).

وقال ابن كثير رحمه الله: «وهذا اعترافٌ ورجوعٌ إلى الإنابة، وتذلُّلٌ وخضوعٌ واستكانة، وافتقارٌ إليه تعالى في الساعةِ الراهنة، وهذا السرُّ ما سَرَىٰ في أحدٍ من ذريته إلا كانتْ عاقبتُهُ إلى خيرٍ في دنياه وأخراه»(٢).

هذا، وإنَّ الخطأ واقعٌ مِنْ بني آدمَ لا محالةَ، وكلُّ بني آدم خَطَّاء، ولكنْ كم هو عظيمٌ مِنَ الإنسانِ أن يبادرَ إلى الخلاصِ مِنْ مَغَبَّةِ الإثم، وأن يسارعَ إلى الفَكَاكِ مِنْ عاقبةِ الخطأ، متشبِّهًا بأبيه آدمَ، ومؤتسيًا به!!

روى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو الشيخ **عن قتادة، قال**: «إنَّ المؤمنَ ليستحي ربَّهُ مِنَ الذنبِ إذا وقَعَ به، ثم يَعْلَمُ ـ بحمدِ الله ـ أين المخرَجُ، يعلمُ أنَّ المخرجَ في الاستغفارِ والتوبةِ إلى الله عز وجل، فلا يَحْتَشِمَنَّ رجلٌ من التوبة؛ فإنَّه لولا التوبةُ لم يَخْلُصْ أحدٌ مِنْ عبادِ الله، وبالتوبةِ أدرَكَ اللهُ أباكم الرئيسَ في الخير مِنَ الذنبِ حين وقَعَ به»(٣).

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٥٨٧). (٢) «البداية والنهاية» (١/ ١٨٤).

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٣٣).

ثم إن أعظم الخسران وأشدَّ الحِرمان أن يَتْرُكَ العبدُ التأسِّيَ بأبيه، ثم يتأسَّى بعَدُوِّ أبيه وعَدُوِّ بنيه إبليسَ الطريدِ؛ فإنَّ آدم لَمَّا وقَعَ في الذنبِ، اعترَفَ به وأقَرَّ وسألَ اللهَ المغفرةَ، وأمَّا إبليسُ فإنه عَصَى وأصرَّ، ولم يُقِرَّ بالخطأ، ومن تَشبَّهَ بآدمَ سَعِدَ مثلَه، ومَنْ تشبَّهَ بإبليسَ شَقِيَ مثله.

وقد نقل القاسميُّ رَحِمَهُ اللهُ **في «تفسيره» عن بعضِ أهلِ العلم أنه قال:** «إنَّ آدم عليه السلام سَعِدَ بخمسة أشياء: اعترَفَ بالذنب، ونَدِمَ عليه، ولامَ نَفْسَه، وسارَعَ إلى التوبة، ولم يَقْنَطْ مِنَ الرحمة.

وشقِيَ إبليسُ بخمسة أشياء: لم يُقِرَّ بالذنب، ولم يَنْدَمْ، ولم يَلُمْ نَفْسَه، بل أضافَ إلى ربِّه، فلم يَتُبْ، وقَنِطَ مِنَ الرحمة»[1]. اهـ.

فمَنْ أشبَهَ آدمَ بالاعترافِ وسؤالِ المغفرةِ والندم والإقلاع إذا صدَرَتْ منه الذنوب، اجتباهُ ربُّهُ وهداه، ومَنْ أشبَهَ إبليسَ إذا صدَرَ منه الذنبُ، لا يزالُ يزدادُ مِنَ المعاصي؛ فإنه لا يزدادُ مِنَ اللهِ إلا بعدًا؛ وقد قال الله تعالى في السياقِ نفسِهِ محذِّرًا الذرية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أعاذنا اللهُ منه، وحمانا مِنْ شَرِّه، ووفَّقنا للتوبةِ النصوحِ وحُسْنِ الإنابة، وألحَقَنا بأبينا آدَمَ وبالصالحين مِنْ عباده؛ إنه سميعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

---

(١) «تفسير القاسمي» (٧/ ٢٦٤٣).

١٨٢

دُعَاءُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١)

لقد ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دَعَواتِ نبيِّه نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكَرَ قصتَهُ وما كان مِنْ قومه، وما أنزَلَ بمَنْ كفَرَ به مِنَ العذابِ والطُّوفان، وكيف أنجاه وأصحابَ السفينة، في غيرِ موضعٍ مِنْ كتابِهِ العزيز، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أرسَلَهُ اللهُ تعالى لَمَّا عُبِدَتِ الأصنامُ والطواغيتُ، وشرَعَ الناسُ في الضلالةِ والكُفْر؛ فبعَثَهُ اللهُ رحمةً للعباد، يدعو إلى عبادةِ اللهِ وحده لا شريكَ له، وينهى عن عبادةِ ما سواه.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف]، لقد تلقَّى قومُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوةَ نبيِّهم بالصدودِ والإعراض، والكِبْرِ والأَنَفَة، والمَكْرِ والكيد، والعُتُوِّ والتكبُّر، والتهديدِ لنبيِّهم بالرَّجْمِ والقتل، ولَمَّا طال مُقامُ نبيِّ اللهِ بين أَظْهُرِهم يدعوهم إلى اللهِ ليلًا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا، حيثُ مكَثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا، وكلَّما كرَّر عليهم الدعوة طَوَالَ هذه المُدَّة، صمَّموا على الكفرِ الغليظ، والامتناعِ الشديد؛ وحينئذٍ دعا عليهم عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوةً استجابها اللهُ منه؛ فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]؛ **أي**: فاحكمْ بيني وبينهم حكمًا مِنْ عندك تُهْلِكُ به المُبطِلَ، وتَنْتَقِمُ

ممَّن كفَرَ بك، وجحَدَ توحيدَكَ، وكذَّبَ رَسُولَك، وسأَلَ اللهَ أن يُنْجِيَهُ ومَنْ معه مِنْ أهلِ الإيمان.

وقد بيَّن اللهُ تعالى أنه استجابَ دعاءَ عَبْدِهِ ونبيِّه نُوح عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء]، وقال الله تعالى في موضعٍ آخرَ في بيانِ دَعْوةِ نُوحٍ عليه السلام على قومِه لَمَّا كذَّبوا رسالته، وبيانِ استجابةِ اللهِ تعالى لدعائِهِ بإهلاكِ قومه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر].

ونُوحٌ عليه السلام إنَّما دعا بهذه الدعوةِ لمَّا يَئِسَ مِنْ صلاحِ قومِهِ وفلاحهم، ورأى أنَّهم لا خيرَ فيهم، وأنَّهم توصَّلوا إلى أذِيَّتِهِ وتكذيبِهِ بكلِّ طريقٍ مِنْ فِعَالٍ ومَقَالٍ. ودعوتُهُ عليهم إنما كانتْ غَضَبًا لله، فلبَّى سبحانه دعوتَهُ، وأجابَ طَلِبَتَهُ، ولَنِعْمَ المجيبُ هو سبحانه والمانُّ، ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات].

ولمَّا أراد سبحانه إنجاءَ نُوحٍ والمؤمنينَ وإهلاكَ قومِهِ، أمرَهُ تعالى أن يَصْنَعَ الفُلْك، وهي السفينةُ العظيمةُ؛ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون]، وعَمِلَ عليه السلام على صُنْعِ السفينةِ، وكان قومُه يَمُرُّونَ به وهو يصنعُها، فيَسْخَرُونَ منه، ويهزؤون مِنْ صنيعه؛ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]؛ أي: نحنُ الذين نَسْخَرُ منكم، ونَتعجَّبُ منكم في استمرارِكُمْ على كُفْرِكُمْ وعنادِكُمُ الذي يقتضي وقوعَ العذابِ بكم،

وحلولَهُ عليكم؛ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، وقد كانتْ سَجِيَّتُهُمُ الكفرَ الغليظ، والعنادَ البالغ، والعُتُوَّ والطغيان، وحَلَّتِ العقوبةُ؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فنَبَعَتِ الأرضُ بالماءِ مِنْ سائرِ أرجائها، وارتَفَعَ الماءُ على أعالي الجبال، وعَمَّ جميعَ الأرضِ طُولَها وعَرْضَها، سَهْلَها وحَزْنها، قِفَارَها ورِمَالَها، ولم يَبْقَ على وجهِ الأرضِ مِمَّنْ كان بها مِنَ الأحياءِ أحدٌ لا صغيرٌ، ولا كبيرٌ، ولمَّا هَلَكُوا أجمعين، أَذِنَ اللهُ عز وجل للأرضِ بابتلاعِ الماء، وللسماءِ بالتوقُّفِ عن المطرِ؛ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وأمَرَهُ سبحانه أن يَهْبِطَ بسلامٍ ومَنْ معه لَمَّا نَضِبَ الماءُ الذي على الأرض، وأمكَنَ السعيُ فيها، والاستقرارُ عليها؛ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

فهذه استجابةُ اللهِ لدعوةِ نبيِّه المعصوم، وتنفيذٌ لِمَا سبَقَ في قَدَرِهِ المحتوم؛ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

❁ ❁ ❁

١٨٣

دُعَاءُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢)

لقد مَرَّ بنا دعوةُ نبيِّ الله نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسُؤالُهُ ربَّه سبحانه النجاةَ مِنَ القومِ الظالمين، ودعاؤُهُ عليهم بالهلاكِ لَمَّا عَتَوْا وتكبَّروا وتجبَّروا، واستجابةُ اللهِ له بأنْ أَهْلَكَهُمْ بالطُّوفان، وأنجى نوحًا ومَنْ معه في الفُلْكِ المشحون.

وقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ عبدًا شكورًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]؛ وفي هذا تنويهٌ بالثناءِ عليه بقيامِهِ بشكرِ اللهِ، واتِّصافِهِ بذلك، وفيه حَثٌّ لذريتِهِ أن يقتدوا به في شُكْرِهِ، ويتابعوه عليه، وأن يتذكَّروا نعمةَ اللهِ عليهم إذْ أبقاهم واستَخْلَفَهُمْ في الأرضِ، وأغرَقَ غيرهم.

ومِنْ شُكْرِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما ورَدَ في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون]؛ وهذا فيه تعليمٌ مِنَ الله سبحانه لنبيِّه نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ولِمَنْ معه مِنَ المؤمنين: أنْ يقولوا هذا الدعاءَ شُكْرًا له سبحانه، وحَمْدًا على نَجاتِهِمْ مِنَ القومِ الظالمين، وسؤالًا منه سبحانه أنْ يُيسِّرَ لهم منزلًا مباركًا.

قال ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمره أنْ يَحْمَدَ ربَّه على ما سَخَّرَ له مِنْ هذه السفينة، فنجَّاه بها، وفتَحَ بينه وبين قومه، وأَقَرَّ عينه مِمَّنْ خالَفَهُ وكَذَّبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف]؛ وهكذا يُؤمَرُ بالدعاءِ في ابتداءِ الأمور: أنْ يكونَ على الخيرِ والبَرَكة، وأن تكونَ عاقبتُها محمودةً؛ كما قال تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ هَاجَرَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ

﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]»[1]. اهـ. وقد امتثَلَ نُوحٌ عليه السلام هذه الوصيةَ، فذكَرَ اللهُ تعالى عندَ ابتداءِ سَيْرِه وعندَ انتهائِهِ؛ كما حَكَى اللهُ عنه بقولِه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]؛ أي: على اسمِ اللهِ ابتداءُ سَيْرِهَا وانتهاؤُهُ.

ودعاءُ نُوحٍ عليه السلام في هذا المقامِ قد استجابَهُ اللهُ؛ كما قال سبحانه: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]؛ أي: اهْبِطْ سالمًا مُبارَكًا عليك وعلى أممٍ ممَّن سَيُولَدُ بعدُ؛ أي: مِنْ أولادك؛ فإنَّ اللهَ لم يَجْعَلْ لأحدٍ ممَّن كان معه مِنَ المؤمنينَ نَسْلًا ولا عَقِبًا سوى نُوحٍ عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وفي هذا السياقِ المبارَكِ الذي ذكَرَ اللهُ تبارك وتعالى عن عبدِهِ الشكورِ، ونبيِّه الذَّكُورِ نُوحٍ عليه السلام: فوائدُ عظيمةٌ، ومنافعُ جليلةٌ، ينبغي للمسلمِ أن يتنبَّه لها، وأن يَحْرِصَ على التزامِها؛ **قال العَلَّامة عبد الرحمٰن بن سِعْدي** رحمه الله، **وهو بصددِ ذكرِ الفوائدِ المستنبطةِ من قصَّة نُوحٍ** عليه السلام: «**ومنها**: ـ **أي**: الفوائد ـ أنه ينبغي الاستعانةُ باللهِ، وأنْ يُذْكَرَ اسمُهُ عندَ الركوبِ والنزولِ، وفي جميعِ التقلُّباتِ والحَرَكات، وحمدُ اللهِ والإكثارُ مِنْ ذكرِهِ عند النعم، لا سيَّما النجاةُ من الكُرُباتِ والمشقَّات؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] وقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وأنه ينبغي أيضًا الدعاءُ بالبَرَكَةِ في نزولِ المَنَازِلِ العارضةِ؛ كالمَنَازِلِ في إقاماتِ السَّفَرِ وغيره، والمنازلِ المستقرَّةِ؛ كالمساكنِ والدُّور؛ لقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وفي ذلك كلِّه من اصطحابِ ذِكْرِ اللهِ، ومن القُوَّةِ على الحَرَكَاتِ والسَّكَنات، ومِنْ قوةِ الثقةِ باللهِ، ومِنْ نزولِ بركةِ اللهِ التي [هي] خَيْرُ ما صَحِبَتِ العبدَ في أحوالِهِ كلِّها: ما لا غنى للعبدِ عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ»[2].

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(٢) «تيسير اللطيف المنان، في خلاصة تفسير القرآن» (ص١١١).

ومن يَتأمَّلْ سنةَ نبيِّنا الكريم ﷺ يَجِدْ فيها هذه المعانيَ العظيمة، والأحوالَ الكاملة، والهَدْيَ القويم، في ركوبِهِ وتنقُّلاتِهِ، وذَهَابِهِ ورَوَاحِهِ.

ففي سنن أبي داود، والترمذي، وغيرهما، **عن علي بن رَبِيعةَ، قال:** «شَهِدتُ عليًّا رضي الله عنه وأُتِيَ بدابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فلمَّا وضَعَ رِجْلَهُ في الرِّكَابِ، قال: بِاسْمِ اللهِ، فلمَّا استوَى على ظَهْرِها، قال: **الحَمْدُ للهِ**، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، ثم قال: **الحَمْدُ للهِ**، ثَلاثَ مَرَّات، ثم قال: **اللهُ أَكْبَرَ**، ثَلاثَ مَرَّات، ثم قال: **سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**، ثم ضَحِكَ، فقيل: يا أميرَ المؤمنينَ، مِنْ أيِّ شيءٍ ضَحِكْتَ؟ قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ فعَلَ كما فَعَلْتُ، ثم ضَحِكَ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، مِنْ أيِّ شيءٍ ضَحِكْتَ؟ قال: **(إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي)**[1].

وفي «صحيح مسلم»، مِنْ حديثِ عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا اسْتَوَى على بَعِيرِهِ خارجًا إلى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثلاثًا، ثم قال: (﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف]، **اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ والأَهْلِ**)، وإذا رجَعَ، قَالَهُنَّ وزاد فيهنَّ: **(آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ)**[2].

وكلُّ هذا ذِكْرٌ لله، واستعانةٌ به، والتجاءٌ إليه، واعتمادٌ عليه، وهو هَدْيُ نبيِّنا عليه الصلاةُ والسلام، وهَدْيُ النبيِّين مِنْ قبله. رَزَقَنَا اللهُ الاقتداءَ بهم، والسيرَ على نهجهم؛ إنه سميعٌ مجيب.

---

(١)(٢) تقدم تخريجه (ص٧١٢).

١٨٤

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

(١)

إنَّ مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ المذكورةِ في القرآن: دعوةَ إبراهيمَ الخَلِيلِ عليه الصلاةُ والسلام لِمَكَّةَ بأنْ تكونَ بلدًا آمنًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم].

ففي الآيةِ الأولى قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وفي الآية الثانية قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؛ فنكَّرَ البلدَ في الأولى، وعَرَّفَهُ في الثانية.

وقد قيل: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام دعا بهذه الدعوةِ مَرَّتَيْن: مرةً قبلَ بناءِ البيت، وناسَبَ التنكيرُ في هذا الموضعِ، ومرةً بعدَ بنائِهِ واستقرارِ أهلِهِ به، فناسَبَ التعريفُ؛ ولهذا قال في آخرِ الدعاءِ في موضعه الثاني: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومعنى قوله: ﴿ءَامِنًا﴾؛ أي: ذا أَمْنٍ كاملًا في الأمنِ، يَأْمَنُ فيه أهلُهُ مِنَ الخوفِ والرُّعْب.

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، إنَّما سأَلَ ذلك؛ لأنَّ مكةَ لم يكنْ بها زرعٌ ولا ثمرٌ ولا ماء.

فإبراهيمُ عليه السلام دعا لِمَكَّةَ ولأهلها بالأمنِ ورَغَدِ العيش، مع قِلَّةِ المياهِ فيها

والأشجارِ والزروعِ والثمار، وأنْ تكونَ حَرَمًا مُحرَّمًا وأمْنًا مُحتَّمًا، فاستجابَ اللهُ تعالى لإبراهيمَ الخليلِ عليه السلام دعاءَهُ، وآتاهُ سُؤْلَه؛ **قال الحَسَنُ البصريُّ** رحمه الله: «هذا دعاءٌ دعا به إبراهيم، فاستجابَ له دعاءَهُ، فجعَلَهُ بَلَدًا آمنًا»[(١)].

قال الله تعالى ممتنًّا على أهلِ مَكَّةَ بهذه المِنَّةِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد بَيَّنَ أهلُ العلم ـ رحمهم الله تعالى ـ أنَّ اللهَ عز وجل حَرَّمَ مكةَ شَرْعًا وقَدَرًا، فحَرَّمَ مَكَّةَ في الشرعِ في آيٍ عديدةٍ مِنَ القرآن، ويَسَّرَ مِنْ أسبابِ حُرْمتها قَدَرًا ما هو معلوم.

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سِعْدي رحمه الله: «ومِنَ الآياتِ البيِّناتِ فيها: أنَّ مَنْ دَخَلَهُ كان آمنًا شَرْعًا وقدَرًا؛ فالشرعُ قد أمَرَ اللهُ ورسولُهُ إبراهيمُ، ثم رسولُهُ محمدٌ ـ عليهما الصلاةُ والسلام ـ باحترامِهِ وتأمينِ مَنْ دخَلَهُ، وأنْ لَا يُهاجَ، حتى إنَّ التحريمَ في ذلك شَمِلَ صيودَها وأشجارَها ونباتَها... وأما تأمينُهَا قَدَرًا فلأنَّ الله تعالى بقضائِهِ وقَدَرِهِ وضَعَ في النفوس ـ حتى نفوسِ المشركينَ به، الكافرين بربِّهم ـ احترامَهُ، حتى إنَّ الواحد منهم ـ مَعَ شِدَّةِ حَمِيَّتهم ونَعْرَتِهِمْ، وعدمِ احتمالهم للضَّيْم ـ يجدُ أَحَدُهم قاتلَ أبيه في الحَرَم، فلا يَهِيجُهُ. ومِنْ جعلِهِ حَرَمًا: أنَّ كلَّ مَنْ أرادَهُ بسوء، فلا بدَّ أن يعاقبَهُ عقوبةً عاجلةً، كما فَعَلَ بأصحابِ الفيلِ وغيرهم»[(٢)].

ومما يدلُّ على عِظَمِ شأنِ تحريمِ مكةَ، وخطورةِ محاولةِ العَبَثِ بأمنها:

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٢٩). (٢) «تفسير السعدي» (ص١٤٦).

ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما **في معنى الآية، قال:** «هو أنْ تَسْتَحِلَّ مِنَ الحَرَامِ ما حَرَّمَ اللهُ عليكَ مِنْ لسانٍ أو قتل، فَتَظْلِمَ مَنْ لا يَظْلِمُك، وتَقْتُلَ مَنْ لا يقتلك، فإذا فعَلَ ذلك، فقد وجَبَ له عذابٌ أليم»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، **قال:** «لو أنَّ رجلًا همَّ فيه بسيئةٍ وهو بِعَدَنِ أَبْيَنَ، لأذاقَهُ اللهُ عز وجل عذابًا أليمًا»(٢).

والآثارُ في هذا المعنى عن السَّلَفِ كثيرةٌ؛ **قال ابن كَثِيرٍ** رحمه الله: «وهذا مِنْ خَصُوصِيَّةِ الحَرَمِ: أنه يُعاقَبُ البادي فيه الشَّرَّ إذا كان عازمًا عليه، وإنْ لم يُوقِعْهُ»(٣).

وقال السَّعْدِيُّ رحمه الله: «والحالُ أنَّ هذا المسجدَ الحرامَ مِنْ حُرْمَتِهِ واحترامِهِ وعَظَمَتِه: أنَّ مَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلمٍ نُذِقْهُ مِنْ عذابٍ أليم. فمجرَّدُ إرادةِ الظلمِ والإلحادِ في الحرمِ مُوجِبٌ للعذاب، وإنْ كان غيرُهُ لا يُعَاقَبُ العبدُ عليه إلا بعملِ الظلم، فكيف بمَنْ أتى فيه أعظَمَ الظلم؛ مِنَ الكُفْرِ والشركِ، والصدِّ عن سبيلِهِ، ومَنْعِ مَنْ يريدُهُ بزيارةٍ، فما ظَنُّكم أن يفعلَ اللهُ بهم؟! وفي هذه الآيةِ الكريمةِ وجوبُ احترامِ الحَرَم، وشدةُ تعظيمِه، والتحذيرُ مِنْ إرادةِ المعاصي فيه وفِعْلِهَا»(٤).

ولذا، فإنَّ مَنْ سعى في زعزعةِ أَمْنِ بَلَدِ اللهِ الحرام، وانتَهَكَ حُرْمَته، وظلَمَ عبادَ اللهِ فيه، فقد ارتَكَبَ جُرْمًا عظيمًا، ومنكرًا شنيعًا؛ وقد تَوَعَّدَ اللهُ مَنْ هَمَّ بشيءٍ مِنْ ذلك بأن يُذِيقَهُ العذابَ الأليم، فكيف بِمَنْ يفعلُ ذلك؟! واللهُ جلَّ وعلا جعل مكةَ بلدًا حرامًا إلى يومِ القيامة، كما أن دماءَ المسلمينَ وأموالَهُمْ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/٥٠٧).
(٢) «تفسير الطبري» (١٦/٥٠٨).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/٤٠٧).
(٤) «تفسير السعدي» (ص٥٣٦).

وأعراضَهُمْ حرامٌ إلى يوم القيامة؛ وقد جاء في خُطْبةِ النبيِّ ﷺ في حَجَّةِ الوداع: (**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**)(١).

وإنا لنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يَحْفَظَ على المسلمينَ في بلادِ الحَرَمَيْنِ وسائرِ بلادِ المسلمينَ أَمْنَهم وإيمَانَهم، وأن يَصْرِفَ عنهم الفِتَنَ والشرور، وأن يَرُدَّ كيدَ مَنْ أرادَ الإخلالَ بأمنِهِ في نَحْرِه، وأنْ يَفْضَحَهُ بين خَلْقه، وأن يُسَلِّمَ المسلمينَ مِنْ شَرِّه؛ إنه سبحانه سميعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٠٣).

١٨٥

دُعاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام (٢)

إنَّ مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ العظيمةِ الواردِ ذِكْرُها في القرآنِ الكريم: ما جاء في سياق قِصَّةِ إبراهيمَ الخليلِ مع قومه، ودعوتِهِ لهم إلى توحيدِ الله، وإخلاصِ الدِّينِ له، والبراءةِ مِنَ المعبوداتِ الباطلة، التي لا تملكُ لنفسها نفعًا أو ضرًّا، فضلًا عن أن تملكَ شيئًا مِنْ ذلكَ لغيرها؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

فهذا السياقُ المباركُ فيه إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى عن عبدِهِ وخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام، وعن دعوتِهِ لقومِهِ إلى توحيدِ الله تعالى وعبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ له، مع بيانِ بُطلانِ المعبوداتِ التي اتَّخذَهَا قومُهُ من دون الله تعالى، وأنه عليه السلام مُتَبَرِّئٌ منها كلِّها سوى المعبودِ الحقِّ، الذي هو رَبُّ العالمين. وذَكَرَ جملةً مِنْ نعوتِهِ الدالَّةِ على عَظَمَتِهِ وجلالِهِ وكماله، وأنه وحدَهُ المستحقُّ للعبادة، لا تلكَ المعبوداتُ الباطلةُ التي لا تسمعُ إذا دُعِيَتْ، ولا تنفعُ ولا تَضُرُّ.

بعد هذا انتقَلَ إبراهيمُ عليه السلام مِنْ وصفِ ربِّه بجلائلِ الصفات، وعظيمِ النعوت، إلى دعائِهِ وسؤالِهِ وطلبِهِ بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ...﴾، إلى آخرِ الدعواتِ المباركةِ التي ذكرها؛ وهي دعواتٌ

عظيمة، مشتملةٌ على مطالبَ جليلة؛ مِنَ المصالحِ الدينيةِ والدنيويةِ والأُخْروية.

فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾؛ **أي**: عِلْمًا كثيرًا أعرفُ به الأحكام، والحلالَ والحرام، وأَحْكُمُ به بين الأنام.

وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ **أي**: اجْعَلْنِي مَعَ الصالحينَ في الدنيا والآخرة، وألحقني بِمَنْ قبلي من النبيين في المنزلةِ والدرجة.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ **أي**: اجعَلْ لي في الناسِ ذكرًا جميلًا، وثناءً حَسَنًا باقيًا فيمن يجيءُ مِنَ القرونِ بعدي.

قال ابن زَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللسانُ الصِّدْقُ: الذكرُ الصِّدْق، والثناءُ الصالح، والذكرُ الصالحُ في الآخِرِينَ: مِنَ الناسِ، مِنَ الأمم»[١].

قال أهل العلم: وقد أجابَ اللهُ دعاءَ إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، «فوهَبَ له مِنَ العلم والحُكْمِ ما كان به مِنْ أفضلِ المرسلين، وألحَقَهُ بإخوانِهِ المرسلين، وجعَلَهُ محبوبًا مقبولًا معظَّمًا، مُثْنًى عليه في جميعِ المِلَلِ في جميعِ الأوقات»[٢].

وهذا كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد أخَذَ أهلُ العلمِ مِنْ هذه الدعوةِ الترغيبَ في العملِ الصالحِ الذي يَكْسِبُ العبدُ به الثناءَ الحَسَن، ويُورِثُهُ الذِّكْرَ الجميل؛ إذْ هو الحياةُ الثانية **كما قيل**:

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

أي: بِذِكْرِهِمُ الطيِّب، وسيرتهم العَطِرَة.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٩٤).

(٢) «تفسير السعدي» (ص٦٩٤).

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: ممَّن تعطيه الجنةَ، وتَمُنُّ عليه بدخولها، وقد أجاب اللهُ دَعْوَتَهُ، فرفَعَ منزلتَهُ في جناتِ النعيم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: أَجِرْني يا اللهُ مِنَ الخِزْيِ يومَ القيامةِ يومَ يُبْعَثُ الخلائقُ أَوَّلُهم وآخرهم، وأَسْعِدْني في ذلك اليومِ العظيمِ الذي لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنونَ إِلَّا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليم؛ فهذا الذي ينفعُ عندك وينجو به العبدُ مِنْ عقابك، وينالُ به كريمَ الثواب، وجميلَ المآب.

والقلبُ السَّليمُ هو: الذي سَلِمَ مِنَ الشركِ والشَّكِّ، ومحبةِ الشَّرِّ، والإصرارِ على البدعةِ والذنب، ويلزمُ مِنْ سلامتِهِ مما ذُكِرَ اتصافُهُ بأضدادها من الإخلاصِ والعلمِ واليقين، ومحبةِ الخيرِ وتزيينِهِ في قلبه، وأن تكونَ إرادتُهُ ومحبتُهُ تابعةً لمحبةِ اللهِ، وهواهُ تبعًا لِمَا جاء عن الله.

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «والقلبُ السليمُ هو الذي سَلِمَ مِنَ الشركِ والغِلِّ، والحِقْدِ والحسد، والشُّحِّ والكِبْرِ، وحبِّ الدنيا والرياسة، فسَلِمَ مِنْ كلِّ آفةٍ تُبْعِدُهُ من الله، وسَلِمَ مِنْ كلِّ شبهةٍ تعارضُ خَبَرَهُ، ومِنْ كلِّ شَهْوةٍ تعارضُ أمره، وسَلِمَ مِنْ كلِّ إرادةٍ تُزاحمُ مراده، وسَلِمَ مِنْ كلِّ قاطعٍ يقطعُ عن الله؛ فهذا القلبُ السليمُ في جَنَّةٍ معجَّلةٍ في الدنيا، وفي جنةٍ في البرزخ، وفي جنةٍ يومَ المَعَاد، ولا تتمُّ له سلامتُهُ مطلقًا حتى يَسْلَمَ من خمسةِ أشياءَ: مِنْ شركٍ يناقضُ التوحيد، وبدْعةٍ تخالفُ السنة، وشَهْوةٍ تخالفُ الأمر، وغَفْلةٍ تناقضُ الذِّكْرَ، وهَوًى يناقضُ التجريدَ والإخلاصَ. وهذه الخمسةُ حُجُبٌ عن الله، وتحتَ كلِّ واحدٍ منها أنواعٌ كثيرةٌ تتضمَّنُ أفرادًا لا تنحصر»(١).

هذا وإنا لنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يُلْحِقَنا بالصالحينَ مِنْ عباده، وأن يَجْعَلَنا مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم، وألَّا يُخزِيَنا يومَ يُبْعَثُونَ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص١٤٣).

١٨٦

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام (٣)

إنَّ مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ العظيمةِ الواردةِ في القرآنِ الكريم: ما ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ عن نبيِّه إبراهيمَ عليه السلام؛ مِنْ سؤالِهِ ربَّه ﷻ أن يَهَبَهُ وَلَدًا صالحًا؛ إذِ الولَدُ الصالحُ نعمةٌ في الحياةِ عظيمةٌ، يَهَبُها اللهُ سبحانه لِمَنْ شاء مِنْ عباده؛ ولهذا كان دأبُ الصالحين سؤالَ الله تعالى الوَلَدَ الصالح، الذي هو قُرَّةُ عَيْنِ العبدِ وسَلْوَةُ قلبه، وزِينةُ حياته.

وقد ذكَرَ اللهُ في كتابِهِ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قال في دعائِهِ ومناجاتِهِ لربِّه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وهذه مسألةُ إبراهيمَ رَبَّهُ أنْ يرزُقَهُ ولدًا صالحًا، يقولُ: يا ربِّ هَبْ لي منك وَلَدًا يكونُ مِنَ الصالحين الذين يُطِيعُونَكَ ولا يعصونك، ويُصْلِحُونَ في الأرض ولا يُفْسِدُونَ»(١)، **وقال ابن كثير** رحمه الله: «**يعني**: أولادًا مطيعين عِوَضًا مِنْ قومِهِ وعشيرتِهِ الذين فارقهم»(٢).

وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾، فيه الإيمانُ بأنَّ وجودَ الوَلَدِ وصلاحَهُ مِنَّةٌ ربانية، وهِبةٌ مِنَ اللهِ ﷻ المتفرِّدِ بالتصرُّفِ والتدبيرِ في هذا الكون، لا شريكَ له؛ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى].

فالأمرُ لله مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ، ما شاء كان وما لم يشأْ لم يكنْ، يُعْطِي مَنْ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٧٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٢ ـ ٢٣).

يشاء، ويمنعُ مَنْ يشاء، لا مانعَ لِمَا أعطى، ولا مُعْطِيَ لما مَنع، وهو جلَّ وعلا يعطي مَنْ يشاءُ مِنْ خلقِهِ مِنَ الأولادِ، ويمنعُ مَنْ شاء، وهو العليمُ القدير.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾؛ أي: يرزقُهُ بناتٍ فقطْ، ليس معهنَّ ذكورٌ، وقوله: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ أي: يرزقُهُ البنينَ فقطْ، ليس معهم إناثٌ، وقوله: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾؛ أي: يجمعُ لِمَنْ شاءَ الذكورَ والإناثَ في العطاء، وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾؛ أي: لا يُولَدُ له أصلًا.

فقسَّم سبحانه حال الزوجَيْنِ إلىٰ **أربعةِ أقسام**: **منهم** مَنْ يعطيه البناتِ، **ومنهم** مَنْ يعطيه البنين، **ومنهم** مَنْ يعطيه مِنَ النوعَيْنِ ذكورًا وإناثًا، **ومنهم** مَنْ يمنعه هذا وهذا، فيجعلُهُ عقيمًا لا نَسْلَ له، ولا يُولَدُ له.

وقد ذكَرَ بعضُ المفسِّرين مَثَلًا للآيةِ مما كان للأنبياء ﷺ، وإنْ كانتِ الأقسامُ موجودةً في سائرِ الناسِ: بأنَّ قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾؛ كنبيِّ اللهِ لوطٍ ﷺ؛ كان له بناتٌ، ولم يكنْ له ولدٌ ذَكَرٌ، وقوله: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ كنبيِّ اللهِ إبراهيمَ ﷺ؛ كان له بَنُون، ولم تكنْ له بنتٌ أنثى، وقوله: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾؛ كخاتَمِ النبيِّينَ محمدٍ ﷺ؛ وُلِدَ له بنونَ وبناتٌ، وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾؛ كنبيِّ اللهِ يحيى، ونبيِّه عيسى ﷺ؛ لم يكنْ لهما وَلَدٌ ولا زوجةٌ[(١)].

وعَوْدًا على دعوةِ إبراهيمَ ﷺ ربَّه أن يَهَبَهُ من الصالحين؛ أي: أولادًا بَرَرَةً مطيعين؛ فإنَّ اللهَ قد استجابَ لإبراهيمَ الخليل ﷺ دعاءَهُ؛ كما قال سبحانه عقبَ الآيةِ السابقةِ مباشرةً: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ وهذا فيه دَلَالةٌ على أنه بُشِّرَ بابن ذَكَرٍ، وأنه يبقى حتى ينتهيَ في السِّنِّ، ويُوصَفَ بالحلم.

وهذا الابنُ الذي بُشِّرَ به هو إسماعيلُ ﷺ.

---

(١) **انظر**: «تفسير أبي المظفَّر السمعاني» (٥/ ٨٦)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٧/ ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٣).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الغلامُ هو إسماعيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه أولُ وَلَدٍ بُشِّرَ به إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أكبرُ مِنْ إسحاقَ؛ باتفاقِ المسلمينَ، وأهلِ الكتاب»[1].

ولما كانتْ هبةُ الولدِ الصالحِ مِنَّةً عظيمةً مِنَ الله تعالى، ونعمةً جليلةً مِنْ نِعَمِه، كان شكرُها وحَمْدُ الربِّ تعالى عليها واجبًا على العبد، وقد وَفَّى إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا المقام؛ كما ذكَرَ اللهُ تعالى عنه ذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

أي: الحمدُ لله الذي رَزَقَنِي على كِبَرٍ مِنَ السِّنِّ ولدًا إسماعيلَ وإسحاقَ، فَهِبَتُهُم مِنْ أكبرِ النِّعَم، وكَوْنُها على الكِبَرِ في حالِ اليأسِ مِنَ الأولادِ نعمةٌ أخرى، وكونُهُمَا أنبياءً صالحينَ أجلُّ وأفضلُ، وقولُهُ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ **أي**: لقريبُ الإجابةِ مِمَّنْ دعاه، وقد دعوتُهُ فلم يُخَيِّبْ رجائي.

* **ومِنَ الفوائدِ العظيمةِ المستفادةِ مِنْ هذا السياق**: «أنَّ مِنْ نعمةِ اللهِ على العبدِ هِبَةَ الأولادِ الصالحين، وأنَّ عليه في ذلك أن يَحْمَدَ اللهَ، ويدعُوَ اللهَ لذريَّتِهِ كما فعَلَ الخليلُ ﷺ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم]، وقال جلَّ ذِكْرُهُ في الثناءِ عمومًا على مَنْ يدعو اللهَ بصلاحِ ذُرِّيَّتِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فإنَّ العبدَ إذا مات انقطَعَ عملُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ: صدقةٍ جارية، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»[2].

ونسألُ اللهَ أن يَمُنَّ علينا بالذريةِ الصالحة، وأنْ يَهْدِيَ أبناءَ المسلمين وبناتِهِمْ؛ إنه سبحانه سميعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٣).

(٢) «تيسير اللطيف المنان، في خلاصة تفسير القرآن» لابن سعدي (ص١٢٢ ـ ١٢٣).

١٨٧

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام
(٤)

إنَّ مِنَ الدعواتِ الجوامعِ الواردةِ في القرآن: ما ذَكَرَهُ اللهُ عن نبيِّه وخليلِهِ إبراهيمَ، وابنِهِ إسماعيل عليهما السلام، في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة].

وقد اشتَمَلَتْ هذه الآياتُ على جملةٍ مِنَ المطالبِ التي دعا بها إبراهيمُ وابنُهُ إسماعيلُ عليهما السلام لأنفسهما ولِذُرِّيتهما:

وأوَّلُ ذلك: قولُهُمَا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ وهذا دعاءٌ مباركٌ، قالاه في حالِ بنائهما البيت، **كما جاء عن ابن عبَّاس** رضي الله عنهما، **قال:** «قاما يرفعان القواعدَ مِنَ البيتِ ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»؛ فهما في عملٍ صالحٍ جليل، ويسألان ربَّهما أن يَتَقبَّلَ منهما ما هما فيه من الطاعةِ العظيمة، والسعي المشكور.

وتأمَّلْ حالَ إمامِ الحُنَفاء، وقدوةِ الموحِّدين عليه السلام؛ يبني بيتَ اللهِ عز وجل، وبأمرِهِ سبحانه، وهو خائفٌ أنْ لا يُقْبَلَ.

جاء عن وُهَيْبِ بن الوَرْد، أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، **ثم بكى، ويقول:** «يا خليلَ الرحمٰن، تَرْفَعُ قوائمَ بيتِ الرحمٰن، وأنتَ مُشْفِقٌ أنْ لَا يُتقبَّلَ منك»؛ أورده الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»، **وقال:** «وهذا كما حَكَى اللهُ تعالى من حال المؤمنينَ المخلصينَ في

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ **أي**: يُعْطُونَ ما أَعْطَوْا مِنَ الصدقاتِ والنفقاتِ والقُرُبات، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾؛ **أي**: خائفةٌ أنْ لَا يُتقبَّلَ منهم؛ كما جاء به الحديثُ الصحيحُ عن عائشةَ ﵂، عن رسول الله ﷺ».

يشيرُ إلى ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»، عن أم المؤمنين عائشةَ ﵂، أنها قالت: «قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أهو الرَّجُلُ يزني ويشربُ الخمر؟ قال: **(لَا يا بِنْتَ أبي بَكْر - أَوْ لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ - وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ ويُصَلِّي وَيَتَصَدَّقَ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ)**[1].

والثاني: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؛ **أي**: اجعَلْنا مُسْتَسْلِمَيْنِ لأمرك، خَاضِعَيْن لطاعتك، مُنْقَادَيْن لِحُكْمك؛ وفي هذا سؤالُ الثَّباتِ على الطاعةِ، والدوامِ على الإسلام؛ وفي هذا دليلٌ واضحٌ على حاجةِ العبدِ إلى التوفيقِ والتثبيتِ مِنْ ربِّه ﷻ في الدوام على الإسلامِ والثباتِ عليه؛ ولهذا جاء في الحديث عن أم المؤمنين أم سَلَمَةَ ﵂، قالَتْ: «كان أكثَرُ دعائِهِ ﷺ **(يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)**، قالتْ: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما لأكثرِ دعائِكَ: **(يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)**؟ قال: **(يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ آدمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ؛ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ)**؛ أخرجَهُ الترمذي[2].

الثالث: قولهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ **أي**: واجعَلْ مِنْ أولادنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لك؛ **قال الحافظ ابن كثير** ﵀: «وهذا الدعاءُ مِنْ إبراهيمَ وإسماعيلَ ﵉، كما أخبرَ اللهُ تعالى عن عبادِهِ المتقين المؤمنين في قوله:

---

(١) «مسند أحمد» (٦/ ٢٠٥)، ورواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وقوّاه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٣٠٢)، و«جامع الترمذي» (٣٥٢٢)، وصحّحه بشواهده الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وهذا القَدْرُ مرغوبٌ فيه شرعًا؛ فإنَّ مِنْ تمامِ محبةِ عبادةِ اللهِ تعالى أنه يحبُّ أن يكونَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له؛ ولهذا لمَّا قال الله تعالى لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤][(١)].

الرابع: قولُهما: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ **أي**: وعَلِّمْنا وعَرِّفنا مناسكنا؛ **أي**: شرائعَ ديننا، وأعلامَ حَجِّنا.

الخامس: قولهما: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وهذا دعاءٌ منهما بالتوبة، **والتوبةُ هي**: الأَوْبَةُ إلى الله، والرجوعُ إليه بالندم، والإقلاعُ والعَزْمُ على تركِ العَوْد.

قال العَلَّامةُ ابن سِعْدِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ: «ولمَّا كان العبدُ ـ مهما كان ـ لا بدَّ أنْ يعتريه التقصيرُ، ويحتاجَ إلى التوبةِ، قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾»[(٢)].

السادس: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وهذا الدعاءُ قيل: إنه للأمَّةِ المسلمةِ مِنْ ذريةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، **وقيل**: إنه إخبارٌ عن تمامِ دعوةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأهلِ مَكَّةَ أن يبعَثَ اللهُ فيهم رسولًا منهم؛ **أي**: مِنْ جنسهم وعلى لغتهمُ الفصيحةِ البليغةِ لتتمَّ عليهم النعمتان الدينية والدنيوية؛ وعلى هذا القول الثاني يكونُ دعاؤهما هذا لنبينا محمَّد ﷺ خاصَّةً؛ إذْ لم يبعثِ اللهُ تعالى في أهلِ مكةَ غيرَ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ[(٣)].

ولا اختلافَ في الحقيقةِ بين القولَيْنِ في المرادِ بهذا الدعاءِ؛ لأنَّ نبينا محمَّدًا ﷺ مِنْ ولدِ إسماعيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإسماعيلُ من ذريةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا كان

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٦٧).
(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٠).
(٣) **انظر**: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٧٢).

النبيُّ محمَّدٌ ﷺ يقول: **(أَنَا دَعْوَةُ أبي إِبْرَاهِيمَ)**؛ رواه أحمدُ، والحاكم[١]، وغيرهما، **والمراد**: هذه الدعوةُ؛ كما ذكَرَ ذلك أهلُ العلم.

والمرادُ بقوله: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ**﴾؛ **أي**: القرآنَ الكريمَ، ﴿**وَٱلْحِكْمَةَ**﴾؛ **أي**: السُّنَّةَ، وقولُهُ: ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾؛ **أي**: بالإخلاصِ والطاعةِ والانقيادِ للهِ ﷻ.

* * *

(١) «مسند أحمد» (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، و«مستدرك الحاكم» (٢/ ٤١٨، ٦٠٠)، عن العِرْباض بن سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه، ورواه أحمد (٥/ ٢٦٢) عن أبي أمامة الباهِلِيِّ رضي الله عنه، والحاكم (٢/ ٦٠٠) عن أصحاب رسول الله ﷺ، وصحَّحه بشواهده الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٥٤٥، ١٥٤٦).

١٨٨

دُعاءُ إبْراهِيمَ عليه السلام (٥)

ومِنْ دَعَواتِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام: ما ورَدَ في السورةِ المعروفةِ باسمِهِ عليه السلام «**سورة إبراهيم**»، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم]، فهذه دعواتٌ عظيمةٌ، ومطالبُ جليلةٌ، سألها إبراهيمُ عليه السلام ربَّه عز وجل لنفسِهِ ولذريته، وقد انتظَمَتْ مقاصدَ جليلةً، وسؤالاتٍ عظيمةً، يَجْدُرُ بالمسلمِ أن يقفَ عندها، وأن يتأمَّلَها.

قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، مضى الكلامُ على هذه الدعوةِ العظيمةِ المشتملةِ على سؤالِهِ عليه السلام الأمنَ لِبَلَدِ اللهِ الحرامِ مكةَ، وأنَّ اللهَ استجابَ دعاءَهُ، فجعلها بلدًا آمنًا.

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ **أي**: أَبْعِدْني وبنيَّ مِنْ عبادةِ الأصنام، واجعلني وإيَّاهم في جانبٍ بعيدٍ عن عبادتها والإلمام بها؛ وفي هذا الخوفُ من عبادةِ الأصنامِ، والحذرُ الشديدُ من ذلك، وليتأمَّلِ العاقلُ ذلك؛ فإنَّ هذا مما يُخيفُ العبدَ مِنَ الشرك، ويوجبُ للقلبِ الحيِّ الخوفَ منه، فإذا كان إبراهيمُ عليه السلام ـ إمامُ الحنفاء، الذي جَعَلَهُ اللهُ أمةً وحده، وابتُلِيَ بكلماتٍ

فَأَتَمَّهُنَّ، وكَسَرَ الأصنامَ بيده ـ يخافُ أن يقعَ في الشرك، ويَسْأَلُ ربَّه أن يُجَنِّبَهُ ويُجَنِّبَ بنيه عبادةَ الأصنام، فما الظنُّ بغيره؟! وكيف يأمنُ الوقوعَ فيه مَنْ هو دُونَهُ بمراتبَ؟!(١).

روى الإمام الطبري في «تفسيره»، **عن إبراهيمَ التَّيْمِيِّ أنه كان يَقُصُّ ويقولُ في قَصَصِهِ:** «ومَنْ يأمنُ البلاءَ بعدَ خليلِ اللهِ إبراهيمَ؛ حيثُ يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟!».

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ذكَرَ فيه المُوجِبَ لخوفِهِ عليه وعلى بَنِيهِ مِنْ عبادتها، وهو كثرةُ مَنِ افْتُتِنَ وابْتُلِيَ مِنَ الناسِ بعبادتها، وبيَّن براءتَهُ منها وممَّن عبدها، وردَّ أمرهم إلى الله تعالى، وهو قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾؛ **أي:** على ما جِئْتُ به من التوحيد، وإخلاصِ العبادةِ لله رَبِّ العالمين، وفراقِ عبادةِ الأصنام؛ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾؛ **أي:** مِنْ أهلِ ديني ومِلَّتي، ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وهذا مِنْ شَفَقَةِ إبراهيمَ عليه السلام حيثُ دعا للعاصينَ بالمغفرةِ والرحمة؛ وهذا دليلٌ على عظيمِ شفقتِهِ ورحمتِهِ بعبادِ الله، واللهُ تعالى أَرْحَمُ بعبادِهِ منه، لا يُعَذِّبُ إلا مَنْ تَمرَّدَ عليه.

ولهذا جاء عن قتادةَ أنه قرأَ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، **ثُمَّ قال:** «اسمعوا إلى قولِ خليلِ اللهِ إبراهيمَ، لا واللهِ ما كانوا طَعَّانين ولا لَعَّانين، وكان يقال: إنَّ مِنْ أشرِّ عبادِ اللهِ كلَّ طَعَّانٍ لَعَّانٍ؛ قال نبيُ اللهِ ابنُ مَرْيَمَ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨](٢).

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: «أنَّ النبيَّ ﷺ تلا قولَ اللهِ عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن

---

(١) **انظر في هذا:** «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وشروحاته: «بابُ الخوفِ مِنَ الشركِ».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٨ ـ ٦٨٩).

تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فرفع يديه، وقال: (**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**) وبكى، فقال الله عز وجل: (**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ** ـ وربُّكَ أعلمُ ـ **فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟**)، فأتاه جبريلُ عليه السلام فسأله، فأخبرَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال، وهو أعلم، فقال الله: (**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوؤُكَ**)»[(١)].

وروى مسلم أيضًا في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ: ادْعُ على المشركينَ، قال: (**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**)»[(٢)].

وأمَّا قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، فقد تَقَدَّمَ الكلامُ على شيءٍ مِنْ معناه عند ذكرِ دعائِهِ عليه السلام لأهلِ مكةَ.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه بيانُ أنَّ قَصْدَهُ وجهُ الله، الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، فقال: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما تُخْفِي قلوبُنَا عندَ مَسْأَلَتِنا ما نَسْأَلُك، وفي غيرِ ذلكَ مِنْ أحوالنا، وما نُعْلِنُ مِنْ دعائنا فنجهرُ به، وغيرَ ذلك مِنْ أعمالنا، وما يَخْفَى عليك يا ربَّنا مِنْ شيءٍ يكونُ في الأرضِ ولا في السماء؛ لأنَّ ذلك كلَّه ظاهرٌ لك مُتجلٍّ بادٍ.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، سبقَ عندَ الكلامِ على دعائِهِ عليه السلام بالولدِ الصالحِ[(٣)].

وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾، فيه

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٩٤).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٩٩).
(٣) **انظر**: (ص٧٧٢).

سؤالُ اللهِ أن يَجْعَلَهُ مقيمًا لها بحدودها وأركانها، وأن يَجْعَلَ مِنْ ذريتِهِ مَنْ يقيمون الصلاةَ، ويحافظون عليها، وأن يَسْتَجِيبَ اللهُ لدعائِهِ فيما سأَلَهُ فيه كلِّه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ **في تفسيره لهذه الآيات**: «ينبغي لكلِّ داعٍ أن يَدْعُوَ لنفسِهِ ولوالِدَيْهِ ولذريته»(١).

وقد استجابَ اللهُ تعالى لنبيِّه وخليلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما دعاه لنفسِهِ ولذريتِهِ مما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ في الآيات؛ **وقد جاء عن ابن جُرَيْج** رَحِمَهُ اللهُ، **أنه قال**: «فلنْ يزالَ مِنْ ذريةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ناسٌ على الفِطْرَةِ يَعْبُدُونَ اللهَ تعالى حتى تقومَ الساعةُ»(٢)؛ وهذا من استجابةِ اللهِ له.

* * *

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٣١).

(٢) **انظر**: «الدر المنثور» (٥/ ٤٩).

١٨٩

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام (٦)

إنَّ ممَّا ذكَرَ اللهُ في كتابِهِ العزيزِ مِنْ دعاءِ خليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام: استغفارُهُ لأبيه؛ كقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، وقولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقد بيَّن اللهُ تعالى في كتابِهِ أنَّ دعاءَ إبراهيمَ عليه السلام لأبيه بالمغفرةِ مِنَ اللهِ كان وَعْدًا وَعَدَهُ إبراهيمُ أباه؛ طمعًا في إيمانِهِ، وترغيبًا له فيه، ولكنْ لما أصرَّ أبوه على الشركِ باللهِ تعالى حتى مات على ذلك، تَبرَّأَ خليلُ اللهِ إبراهيمُ عليه السلام من أبيه حينئذٍ، وترَكَ الاستغفارَ له؛ لأنَّ الله سبحانه: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي هذا يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤].

قال ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «ما زالَ إبراهيمُ يَسْتغفِرُ لأبيه حتى مات، فلمَّا ماتَ، تَبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله»، **وقال أيضًا** رضي الله عنه: «استَغْفَرَ له ما كان حيًّا، فلما مات، أَمْسَكَ عن الاستغفار»(١)، **وقال الضحَّاك** رحمه الله: «كان إبراهيمُ صلواتُ اللهِ عليه يرجو أن يُؤْمِنَ أبوه ما دام حيًّا، فلمَّا ماتَ على شِرْكِهِ، تبرَّأَ منه»(٢).

ولمَّا كان هذا هو واقعَ الحالِ لاستغفارِ إبراهيمَ عليه السلام لأبيه، نَهَى اللهُ تعالى المؤمنينَ عَنِ الاستغفارِ للمشركينَ اقتداءً بإبراهيمَ في ذلك، وأمرَهُمْ

---

(١) رواهما ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣٠).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣١).

بالاقتداءِ بخليلِهِ إبراهيمَ ﷺ في التمسُّكِ بالتوحيدِ، والبراءةِ من الشركِ وأهله؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، **قال الإمام الطبري** رحمه الله: «يقول تعالى ذِكْرُهُ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، في هذه الأمورِ التي ذكرناها: مِنْ مُبايَنَةِ الكفارِ، ومعاداتِهم، وتركِ موالاتهم، إلا في قولِ إبراهيمَ لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ فإنه لا أُسوةَ لكم فيه في ذلك؛ لأنَّ ذلك كان مِنْ إبراهيمَ لأبيه عن موعدةٍ وَعَدَهَا إيَّاه قبلَ أن يَتبيَّنَ له أنه عدُّو لله، فلما تَبيَّنَ له أنه عدُّو لله، تَبرَّأَ منه؛ يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، تَبرَّؤوا من أعداءِ اللهِ مِنَ المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياءَ حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرؤوا مِنْ عبادة ما سواه، وأَظْهِرُوا لهم العداوةَ والبغضاء». اهـ.

وفي هذا المعنى قولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وفي «الصحيحين»، عن ابن المسيِّب، عن أبيه، قال: «لمَّا حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ، دخَلَ عليه النبيُّ ﷺ، وعِنْدَهُ أبو جَهْلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ، فقال: (**أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ** ﷻ)، فقال أبو جَهْلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟! قال: فَلَمْ يَزالا يُكَلِّمانِهِ، حتى قال آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ به: هو عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فقال النبيُّ ﷺ: (**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**)؛ فنزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، قال: ونزَلَتْ فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]»(١).

وفي «المسند»، **عن عليٍّ** رضي الله عنه، **قال**: «سمعتُ رجلًا يستغفرُ لأبوَيْهِ وهما مُشْرِكَانِ، فقلت: أيستغفرُ الرَّجُلُ لأبَوَيْهِ وهما مشركان؟ فقال: أَوَلَمْ يَسْتَغْفِرْ إبراهيمُ لأبيه؟! فذكَرْتُ ذلك للنبيِّ ﷺ، فنزلَتْ: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾**، إلى قوله: **﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾**»(٢).

وفي هذا كلِّه بيانٌ للمؤمنين، وإرشادٌ لهم إلى عدمِ الدعاءِ للمشركين بالمغفرة؛ لأنَّ ذلك ليس بنافعٍ لهم ما داموا مقيمين على الشرك، واللهُ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به، ولكنْ له أن يَدْعُوَ لهم بالهدايةِ وبالتوفيقِ للإيمانِ والإسلام؛ **كما قال الإمام البخاري في «صحيحه»**: «بابُ الدُّعَاءِ للمُشْرِكينَ بالهُدَى لِيَتَأَلَّفهم»؛ ثم أخرَجَ حديثَ أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قَدِمَ طُفَيْلُ بنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وأصحابُهُ على النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فادْعُ اللهَ عليها، فقيل: هَلَكَتْ دَوْسٌ، قال: **(اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَائْتِ بِهِم)**(٣)»، وفي «المسند»، والترمذي، عن جابر رضي الله عنه، قال: «قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، أَحْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ، فَادْعُ اللهَ عليهم، قال: **(اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا)**(٤)».

ومن ذلك: ما ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في ذكرِ دعوتِهِ لِأُمِّهِ بالإسلام، وقد كانتْ مُشْرِكةً، وطَلَبِهِ مِنَ النبيِّ ﷺ أن يدعُوَ لها، فقال عليه الصلاة والسلام: **(اللَّهُمَّ اهْدِ أم أبي هُرَيْرَةَ)**، فاستجابَ اللهُ دعوتَهُ، وهَدَى أم أبي هريرة(٥).

ويجوزُ كذلك الدعاءُ له بالرزقِ أو الغيثِ؛ تأليفًا لقلبه؛ كما في «صحيح

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٦٧٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٩).
(٢) «مسند أحمد» (١/ ٩٩)، وحسَّن إسناده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٢٤).
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٨٩).
(٤) «المسند» (٣/ ٣٤٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٩٤٢)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (ص٤٨٠).
(٥) تقدم تخريجه (ص٤٤٣).

البخاري»، لمَّا طُلِبَ من النبيِّ ﷺ أن يَسْتَسْقِيَ لِمُضَرَ، فاستَسْقَى لهم[١].

وهذا من الإحسانِ الذي ذكَرَهُ اللهُ في حقِّ الكفارِ الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يُخْرِجُوهُمْ مِنْ ديارهم؛ طمعًا في هدايتهم، وتأليفًا لقلوبهم في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٨٢١).

١٩٠

دُعَاءُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إنَّ مما حَكَى اللهُ تعالى في كتابِهِ العزيزِ مِنْ أدعيةِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ: دعاءَ نبيِّ اللهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كان مُرْسَلًا إلى قومٍ جمعوا - مع شركهم بالله تعالى - منكرًا عظيمًا لم يَفْعَلْهُ أحدٌ قبلَهم مِنْ أهلِ الدنيا، وهو فعلُ الفاحشةِ في الذكورِ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف].

وكانتْ هذه الفَعْلَةُ القبيحةُ فاشيةً فيهم، حتى إنه لربَّما وقَعَتْ منهم في المحافل، ولا يستنكفون، ولا يَرْعَوُونَ لوعظِ واعظٍ، ولا لنصيحة ناصح، وكانوا في ذلك كالأنعامِ، بل هم أضلُّ سبيلًا.

ولهذا كان مِنْ دعاءِ نبيِّ اللهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما حكاه اللهُ عنه في قوله: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء].

فَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أعلَنَ بُغْضَهُ الشديدَ وبراءتَهُ مِنْ هذا العملِ الشنيع، ثم دعا ربَّه، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ وهذا الدعاءُ يَتضمَّنُ الاستعاذةَ باللهِ تعالى مِنْ هذا العمل المنكر، ومِنْ شُؤْمِهِ وغائلتِهِ وعقوبته.

وفي هذا الدعاءِ تعليمٌ وإرشادٌ للعبادِ إلى الاعتصامِ بالله تعالى، والاستعاذةِ به، من منكراتِ الأعمالِ والأقوال، وطَلَبِ النجاةِ مِنْ شؤمها وغوائلها، ولا سيَّما عند كثرةِ هذه المنكرات وانتشارها، ومجاهرةِ فَسَقَةِ الخَلْقِ بها.

وقد كان من أدعيةِ رسولِ اللهِ ﷺ ما جاء في حديث زِيَادِ بنِ عِلَاقَةَ، عن عمِّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كان النبيُّ ﷺ يقول: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن مُنْكَرَاتِ**

الأَخْلَاقِ والأَعْمَالِ والأَهْوَاءِ)؛ رواه الترمذي(١).

وما جاء في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ والعَفَافَ وَالغِنَى**)؛ رواه مسلم(٢).

وعن شَكَل بن حُمَيْدٍ رضي الله عنه، قال: «أتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، عَلِّمْني تَعوُّذًا أَتعوَّذُ به ـ وفي رواية: عَلِّمْني دُعَاءً أنتفعُ به ـ فأخَذَ بيدي، ثم قال: (**قُلْ: أَعُوذُ بِكَ**) ـ وفي روايةٍ: (**اللَّهُمَّ عَافِني**) ـ (**مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي**)»؛ رواه النسائي(٣).

والتعوُّذُ بالله مِنْ شَرِّ المَنِيِّ له شأنٌ مهمٌّ في حياةِ الإنسانِ، ذكرًا كان أو أنثى، ولا سيَّما عندَ كثرةِ دواعي الفتنة، وبواعثِ الفساد؛ فإنَّ شهوةَ الفَرْجِ من أعظمِ ما ابتُلِيَ به الإنسانُ، وثَوْرَتُها أو إثارتُها تؤدِّي بالإنسانِ إلى مسالكَ رديئةٍ، وإلى مهالكَ بعيدةٍ. وقد كانتْ فَعْلَةُ قوم لُوطٍ مِنْ هذا الباب، وانزلاقُهم كان مِنْ هذا المُنْزَلَقِ، حتى إنَّ الله تعالى وَصَفَهم في شهوتهم هذه بقولِهِ سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

قال العلامة ابن سِعْدي رحمه الله: «وهذه السَّكْرةُ هي سَكْرةُ مَحبَّةِ الفاحشةِ التي لا يبالون معها بعَذْلٍ ولا لوم»(٤)؛ فهذا مِنْ شَرِّ المَنِيِّ الذي يجبُ على العبدِ أن يسأل ربَّه العصمةَ والنجاةَ منه.

ولمَّا تَملَّكتْ هذه الشهوةُ قومَ لُوطٍ لم يستجيبوا لدعوتِهِ، ولا لنهيِهِ إيَّاهم عن إتيانِ الذكور، بل ازدادوا عِنادًا وطُغيانًا، حتى طَلَبوا منه وقوعَ ما حذَّرهم عنه مِنْ مجيءِ العذابِ الأليمِ، وحلولِ البأسِ العظيم، فعند ذلك سأَلَ لوطٌ ربَّ

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤٧٣).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢١).
(٣) رواه أبو داود رقم (١٥٥١)، والترمذي رقم (١٩٥٣)، و«سنن النسائي» رقم (٥٤٥٦)، وصحَّحه الألباني. قال المناوي في «فيض القدير» (٢/ ١٣٥): «ومن شَرِّ مَنِيِّي: مِنْ شرِّ شِدَّةِ الغُلْمةِ، وسَطْوةِ الشهوةِ إلى الجِمَاعِ، الذي إذا أفرَطَ ربما أوقَعَ في الزنا أو مقدِّماته لا محالة؛ فهو حقِيقٌ بالاستعاذةِ مِنْ شره».
(٤) «تفسير ابن سِعْدي» (ص٥٠٢).

العالمين وإلٰهَ المرسلين: أن يَنْصُرَهُ على القومِ المفسدين؛ فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]؛ فغارَ الله تعالى لِغَيْرَتِه، وغَضِبَ لِغَضْبَتِه، واستجابَ لِدَعْوَتِه، فبعَثَ ملائكتَهُ العِظَامَ لإهلاكهم، وإنزالِ بأسِهِ الذي لا يُرَدُّ عن القومِ الظالمينَ المعتدين.

ومِنْ عجيبِ أمرِ قومه وتماديهم في سَكْرتهم: أنَّ ملائكةَ العذابِ عندما أَتَوْا إلى لُوطٍ عليه السلام، وكانوا في صورةِ أضيافٍ آدميِّينَ شَبَابٍ حِسَانٍ، تَوافَدَ إليه قَوْمُهُ في بيته، وجاؤوه يُهْرَعُونَ إليه يريدونَ فِعْلَ الفاحشةِ بأضيافه، فزَجَرَهُمْ ونهاهم، وحَذَّرهم وأنذرهم، وكان مِنْ قوله لهم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، إلَّا أنَّ القومَ كانوا في سَكْرَتِهم يَعْمَهون، وفي غِيِّهم متمادين، وفي شَهَواتِهِمْ سادرين، إلى أنْ حَلَّ بهم العقاب، ونزَلَ بهم العذاب؛ كما قَصَّ اللهُ تعالى ذلك في مواضعَ مِنْ كتابِهِ العزيز.

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت]، وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود].

وهذه الآيةُ فيها دَلَالةٌ على أنَّ هذه العقوبةَ التي حَلَّتْ بهم، والنَّكالَ الذي نزَلَ بهم، ليس ببعيدٍ ممَّن يَعْمَلُ عملهم، ويفعل فِعْلَهم.

نعوذُ بالله مِنْ مُوجِبَاتِ غَضَبِه، وأليمِ عقابه، ونسألُهُ سبحانه أن يُجَنِّبَ المسلمين الفِتَن، وأنْ يُعِيذَهم مِنَ الشرورِ والمِحَن، وأن يُجِيرَهُمْ مِنَ الفواحشِ وغوائلها وعواقبها ما ظَهَرَ منها وما بَطَن؛ إنه سميعٌ مجيب.

١٩١

دُعَاءُ شُعَيْبٍ عليه السلام

إنَّ مِنْ دعواتِ الأنبياءِ الواردةِ في القرآن ما ذكَرَهُ الله تعالى في سياقِ قصةِ نبيِّ اللهِ شُعَيْبٍ عليه السلام، الذي كان مثالًا عاليًا في الصبر على الأذى، وتحمُّلِهِ في سبيلِ نشرِ دِينِ اللهِ والدعوةِ إلى صراطِهِ المستقيم، وكان مِنْ أمرِهِ مع قومه ما قصَّه اللهُ علينا بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذا إخبارٌ مِنَ اللهِ عمَّا واجَهَتْ به الكفارُ نبيَّ اللهِ شُعَيْبًا ومَنْ معه مِنَ المؤمنين، في توعُّدهم إيَّاه ومَنْ معه بالنفيِ مِنَ القريةِ، أو الإكراهِ على الرجوعِ في مِلَّتهم والدخولِ معهم فيما هم فيه؛ وهذا خطابٌ مع الرسول، والمرادُ أتباعُهُ الذين كانوا معهم على المِلَّة»(١).

فهاهنا تهديدٌ صريح، وتوعُّدٌ شديد مِنَ الكفارِ لنبيِّ اللهِ شُعَيْب عليه السلام، ولِمَنْ معه من المؤمنين بالطَّرْدِ مِنْ بلدهم إنْ لم يعودوا في ملة الكفر؛ ولهذا قال عليه السلام جوابًا لقومه: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾، والهمزةُ هنا للاستفهام، وهو استفهامُ إنكارٍ وتعجُّب، «**أي**: أنتابعُكُمْ على دينِكُمْ ومِلَّتِكُمُ الباطلةِ ولو كنَّا كارهين لها، لِعِلْمِنا ببُطْلانها، فإنَّما يُدْعَى إليها مَنْ له نوعُ رغبةٍ فيها، أمَّا مَنْ يعلنُ بالنهي عنها، والتشنيعِ على مَنِ اتَّبَعَها، فكيف يُدْعَى إليها؟!»(٢).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤٤).
(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٣٣٤).

وفي هذا السياقِ دَلالةٌ على أنَّ مَنْ هداه اللهُ إلى الإيمانِ، وخالَطَتْ بشاشتُهُ قلبَهُ لا يَسْخَطُهُ أبدًا، ولا يريدُ التحوُّلَ عنه؛ لوضوحِ طريقِ الهدايةِ وحسنه، ولفسادِ طريقِ الضلالِ وقُبْحِه؛ ولهذا قال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقولُ: قد اختَلَقْنَا على اللهِ كذبًا وتَخَرَّصْنا عليه مِنَ القولِ باطلًا إنْ نحنُ عُدْنا في مِلَّتكم، فرجعنا فيها بعدَ إذْ أنقذنا اللهُ منها، بأنْ بَصَّرنا خَطَأَها وصوابَ الهدى الذي نحنُ عليه»[1].اهـ.

وهذا القولُ مِنْ نبيِّ اللهِ شعيبٍ عليه السلام تيئيسٌ للكفَّارِ من دَعْوته هو ومَنْ معه من المؤمنين إلى مِلَّتهم، وبيانٌ منه لهم أنَّ ما هم عليه من الكُفْرِ والشركِ افتراءٌ عظيمٌ على الله تعالى، وأنه لا أحدَ أعظمُ افتراءً ممَّن عَبَدَ غيرَ اللهِ تعالى، وجعَلَ معه شريكًا في شيءٍ مِنْ حقوقه وخصائصه، بل اللهُ تعالى لا إلـٰه غيره، ولا ربَّ سواه، ولا شريكَ معه.

كما تَضمَّنَ قولُهُ عليه السلام ذكرًا لِمنَّةِ اللهِ تعالى عليه وعلى مَنْ آمَنَ معه: بالنجاةِ من الكفرِ والشركِ، والهدايةِ إلى الإيمانِ والإسلامِ والتوحيد؛ فإنَّ اللهَ عز وجل يَمُنُّ على مَنْ يشاء مِنْ عباده، فيوفِّقُهُ للهداية إلى الحق، ويَخْذُلُ مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، فَيَضِلُّ عن الحقِّ، ويُقِيمُ على الباطل؛ وهذا المعنى أَكَّدَهُ نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام بقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾؛ فهذا ردٌّ للأمر إلى مشيئةِ اللهِ على جهةِ التسليم له؛ إذْ هو الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ علمًا؛ يعلمُ ما كان، وما هو كائنٌ، وما لم يكنْ لو كان كيفَ يكونُ، وأنَّ توفيقَ العبدِ وهدايتَهُ بيدِ الله ؛ إذْ لا خروجَ لأحدٍ عن مشيئتِهِ وقضائِهِ وقَدَره.

ثم ختَمَ نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام مُحاجَّتَهُ لكفارِ قومِهِ بالدعاءِ والتوكُّلِ على الله تعالى؛ فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/٣١٨).

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «يقول: على اللهِ نعتمدُ في أمرنا، وإليه نستندُ فيما تَعِدُونَنَا به مِنْ شَرِّكم أيُّها القوم؛ فإنَّهُ الكافي مَنْ نَتوكَّلُ عليه»(١).

وقد حكى الله تعالى عن نبيِّه شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في آية أخرى: أنه قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]؛ **أي**: اعتَمَدتُ عليه في أموري، ووَثِقْتُ في كفايتِهِ، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ **أي**: في أداءِ ما أَمَرَني به مِنْ أنواعِ العبادات. وبهذَيْنِ الأمرَيْنِ تستقيمُ أحوالُ العبد، وهما الاستعانَةُ بربه، والإنابةُ إليه؛ وهذا في معنى قولِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾؛ **أي**: احكُمْ بيننا وبينهم بحُكْمِكَ الحقِّ، الذي لا ظُلْمَ فيه، ولا حَيْفَ، ولا جَوْرَ بأن يَنْصُرَ الحقَّ وأهله، ويُذِلَّ الباطلَ وأهلَهُ، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾؛ **أي**: خيرُ الحاكمين؛ ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]، **والفَتَّاحُ**: اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ الحسنى، وهو دالٌّ على صفةِ كمالٍ عظيمةٍ لله عَزَّ وَجَلَّ، فهو سبحانه يَحْكُمُ بين عبادِهِ بما شاء، ويقضي فيهم بما يريد، ويَمُنُّ على مَنْ يشاءُ منهم بما يشاء، لا رادَّ لِحُكْمه، ولا مُعقِّبَ لقضائِهِ وأمره.

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وفتحُهُ تعالى لعبادِهِ نوعان:

فتحُ العلمِ بتبيينِ الحقِّ مِنَ الباطل، والهُدَى مِنَ الضلال، ومَنْ هو مِنَ المستقيمين على الصراطِ ممَّن هو منحرفٌ عنه.

النوع الثاني: فَتْحُهُ بالجزاءِ وإيقاعِ العقوبةِ على الظالمين، والنجاةِ والإكرامِ للصالحين.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ٣١٩).

فسألوا اللهَ أن يَفْتَحَ بينهم وبين قومهم بالحَقِّ والعدل، وأن يُرِيَهُمْ مِنْ آياتِهِ وعِبَرِهِ ما يكونُ فاصلًا بين الفريقين»(١).

وقد استجاب الله دعوةَ نبيِّه شُعَيْبٍ عليه السلام، ففتَحَ بينه وبين قومه بالحق، فجاء أمرُهُ سبحانه بنصرِ نبيِّه شعيبٍ عليه السلام والمؤمنين معه وإهلاكِ الكافرين؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

❀ ❀ ❀

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٣٣٥).

١٩٢

دُعَاءُ يُوسُفَ عليه السلام

لقد ذكَرَ اللهُ تعالى في موضعَيْنِ من «سورة يوسف» دُعَاءَيْنِ لنبيِّه يوسف عليه السلام؛ كلُّ دعاءٍ له شأنُهُ ومناسبتُهُ التي يحسُنُ تأمُّلها وتدبُّرها.

* **الدعاء الأول**: قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يوسف].

وهذا مقامٌ مِنْ مَقَاماتِ الفَزَعِ إلى اللهِ في طَلَبِ العِصْمةِ مِنْ مقارفةِ الذنب، والوقايةِ مِنْ كيدِ الأشرار؛ ولا سيَّما كيدُ النساءِ وفتنتُهُنَّ التي هي مِنْ أشدِّ الفِتَنِ على الرجالِ في هذه الحياة، بل قال رسولُ الله ﷺ: **(مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)**(١)، ويوسفُ عليه السلام قد تَعرَّضَ في شبابِهِ وفُتُوَّتِهِ لهذه الفتنةِ العظيمةِ مِنَ النسوة اللاتي أَرَدْنَ منه فعلَ الفاحشة، فما كان منه عليه السلام إلا البعدُ عن كيدهنَّ، واللَّجأُ إلى اللهِ بطلبِ العِصْمةِ مِن فتنتهن، وذلك قولُه سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾؛ **يعني**: أن دخولَ السجنِ الذي هَدَّدَتْهُ به امرأةُ العزيز إنْ لم يُلَبِّ رغبتها ـ على ما فيه مِنْ شَظَفٍ وشدة ـ أسهلُ عليه وأهونُ مِنَ الوقوعِ في المعصية، واقترافِ الخطيئة، فآثَرَ عليه السلام مَرْضاةَ الله، والتجأَ إليه؛ لعلمِهِ بأنه لا يُطِيقُ صرفَ ذلكَ عن نفسِهِ إنْ لم يعصِمْه ربُّه مِنْ ذلك وينجِّه مِنَ الوقوعِ فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

قال الطبري رحمه الله: «يقول: وإنْ لم تَدْفَعْ عني يا ربِّ فِعْلَهُنَّ الذي

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٨٠).

يَفْعَلْـنَ بي فـي مُرَاوَدَتِهِـنَّ إيَّـايَ علـى أنفسهـن، ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، يقول: أَمِيلُ إليهنَّ وأُتابِعُهُنَّ على ما يُرِدْنَ مني ويَهْوَيْنَ»[١].

وقال ابن كثير رحمه الله: «**يعني**: إنْ وَكَلْتَنِي إلى نفسي، فليس لي مِنْ نفسي إلَّا العَجْزُ والضعف، ولا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله، فأنا ضعيفٌ إلا ما قَوَّيْتَنِي وعَصَمْتَنِي وحَفِظْتَني وحُطْتَني بحولِكَ وقُوَّتك»[٢].

وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: معطوفٌ على قوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ **أي**: أَكُنْ بِصَبْوتي إليهنَّ مِنَ الذين جَهِلُوا حقَّك، وخالفوا أَمْرَكَ ونهيك؛ وقد دَلَّ هذا على أنَّ أحدًا لا يمتنعُ عن معصيةِ الله، ولا يَسْلَمُ مِنَ الوقوعِ فيها إلا بعونِ اللهِ وتوفيقه؛ كما دَلَّ أيضًا على قبحِ الجهل، وذمِّ صاحبه، وأنَّ كلَّ مَنْ عصى الله فهو جاهل.

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله **في رسالةٍ عظيمةٍ أفردها بعنوان: «فوائدُ مستنبطةٌ مِنْ قصَّة يوسف»**: «**ومنها ـ أي**: الفوائد ـ أنه ينبغي للعبدِ أنْ يلتجئَ إلى اللهِ عندَ خوفِ الوقوعِ في فتنةِ المعاصي والذنوب، مع الصبرِ والاجتهادِ في البعد عنها كما فعَلَ يوسفُ عليه السلام ودعا ربَّه، قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وأنَّ العبدَ لا حَوْلَ له ولا قوةَ ولا عِصْمةَ إلا بالله؛ فالعبدُ مأمورٌ بفعلِ المأمور، وتركِ المحظور، والصبرِ على المقدور، مع الاستعانة بالمَلِكِ الشكور»[٣]. اهـ.

وقد استجاب اللهُ دعوةَ نبيِّه يوسفَ عليه السلام؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ **أي**: فاستجابَ اللهُ ليوسفَ دعاءَهُ، ولَطَفَ به، وعَصَمَهُ مِنْ كيدِ النِّسْوةِ ومِنَ الوقوعِ في المعصية؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فيوسفُ عليه السلام قد أَخْلَصَ لله تعالى توحيدَهُ وحُبَّهُ،

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ١٤٤). (٢) «البداية والنهاية» (١/ ٤٧٣).
(٣) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف» (ص١٩).

فأخلَصَهُ اللهُ لنفسه، وخَلَّصَهُ مِنْ فتنةِ النساءِ المُهْلِكة، ومِنَ الوقوعِ في الشهواتِ المُرْدِيَة.

* **الدعاء الثاني**: قال الله تعالى حكايةً عن نبيه يوسف عليه السلام، في تمام ذكرِ قصَّته: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذا دعاءٌ مِنْ يوسفَ الصِّدِّيق، دعا به ربَّه عز وجل لَمَّا تَمَّتِ النعمةُ عليه باجتماعِهِ بأبوَيْهِ وإخوته، وما مَنَّ اللهُ به عليه مِنَ النبوَّةِ والمُلْك، سأل ربَّه عز وجل كما أَتَمَّ نعمتَهُ عليه في الدنيا أن يَسْتَمِرَّ بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مسلمًا حين يتوفَّاه ـ قاله الضَّحَّاك ـ وأن يُلْحِقَهُ بالصالحين، وهم إخوانُهُ مِنَ النبيين والمُرْسَلين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم أجمعين»(١).

فهي دعوةٌ عظيمةٌ مباركةٌ جامعة؛ **قال العلامة ابن القيِّم** رحمه الله: «جَمَعَتْ هذه الدعوةُ الإقرارَ بالتوحيد، والاستسلامَ للرَّبِّ، وإظهارَ الافتقارِ إليه، والبراءةَ مِنْ موالاةِ غيرِهِ سبحانه، وكونَ الوَفَاةِ على الإسلامِ أجلَّ غاياتِ العبد، وأنَّ ذلك بيدِ اللهِ لا بيدِ العبد، والاعترافَ بالمَعَاد، وطَلَبَ مرافقةِ السُّعَداء»(٢).

* **ويُستفاد مِنْ هذا الدعاء**: أنَّ على العبدِ أنْ يَلْجَأَ دائمًا إلى ربِّه، ويُلِحَّ عليه بالدعاء بأنْ يُثَبِّتَ إيمانه، ويَعْمَلَ الأسبابَ المُوجبةَ لذلك، ويسألَ اللهَ تعالى أن يُتِمَّ له النِّعْمة، ويُحْسِنَ له الخاتمة، وأنْ يَجْعَلَ خيرَ أيَّامِهِ آخرَها، وخيرَ أعمالِهِ خَوَاتِمَها؛ فإنَّ اللهَ كريمٌ، جَوَادٌ رحيمٌ.

وليس فيما حكاه الله مِنْ دعاءِ يوسفَ عليه السلام في هذا المقامِ ما يَدُلُّ على أنه دعا باستعجالِ الموت، وإنما الذي يَدُلُّ عليه ظاهرُ الكلام أنه عليه السلام سأل ربَّهُ الثباتَ على الإسلامِ حتى يَتَوَفَّاهُ حين يتوفَّاه عليه، ويُلْحَقَ بالصالحين مِنْ عباده.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٧).

(٢) «الفوائد» (٣٤٩).

وقد ثبت عن النبي ﷺ النهيُ عن تمنِّي الموت؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي)** متفقٌ عليه(١).

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري رقم (٥٦٧١)، ومسلم رقم (٢٦٨٠).

١٩٣

دُعَاءُ أَيُّوبَ عليه السلام

إنَّ مِنَ الدعواتِ العظيمةِ الواردةِ في القرآنِ الكريمِ دعاءَ نبيِّ اللهِ أيوبَ عليه السلام الصابرِ المُحْتَسِبِ، وقد تَعرَّضَ لابتلاءٍ عظيمٍ في بَدَنِهِ وأهلِهِ وماله، حتى إنَّ المَثَلَ لَيُضْرَبُ بما حصَلَ له عليه السلام مِنْ أنواع البلايا؛ ولم يَزِدْهُ هذا كلُّه إلا صبرًا واحتسابًا وابتهالًا إلى الله تعالى وتضرُّعًا إليه لكشفِ ما به من الضُّرِّ والبلاء؛ لأنه سبحانه هو وَحْدَهُ المَلاذُ في الكُرُبات، المُدْعُوُّ في الشدةِ والرخاء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]؛ **أي**: واذكُرْ ـ والخطابُ لنبيِّنا محمَّد ﷺ ـ عَبْدَنا أيوبَ إذْ نادى ربَّه داعيًا مستغيثًا به، وإليه لا إلى غيرِهِ شاكيًا، فقال: يا رَبِّ إنِّي مسَّني الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذاب؛ **أي**: بِمَشَقَّةٍ وتَعَبٍ في جَسَدِهِ، وعذابٍ وهلاكٍ في أهلِهِ وماله.

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]؛ **أي**: واذكُرْ أيوبَ إذْ نادى ربَّه وقد مَسَّهُ الضُّرُّ والبلاءُ؛ ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ وفي هذا السياقِ ثناءٌ عظيمٌ على عبدِ اللهِ ورسولِهِ أيوبَ عليه السلام، ورفعٌ لقدرِهِ حينَ ابتلاه الله جلَّ وعلا ببلاءٍ شديد، فوجَدَهُ صابرًا محتسبًا، حتى صار بهذا الصبرِ قدوةً للصابرين، وسَلْوةً للمُبْتَلِينَ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقد توسَّل عليه السلام إلى اللهِ جلَّ وعلا بالإخبارِ عن حال نفسه، وأنه بَلَغَ الضرُّ منه مبلغًا عظيمًا، وبرحمةِ اللهِ الواسعةِ العامَّة؛ فنادى ربَّه: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «جمَعَ - **يعني**: أيُّوبَ عليه السلام - في هذا الدعاءِ بين حقيقةِ التوحيد، وإظهارِ الفقرِ والفاقةِ إلى ربه، ووجودِ طعمِ المَحَبَّةِ في التملُّقِ له، والإقرارِ له بصفةِ الرحمة، وأنه أرحمُ الراحمين، والتوسُّلِ إليه بصفاتِهِ سبحانه، وشدةِ حاجتِهِ هو وفَقْرِه، ومتى وجَدَ المُبْتَلَى هذا، كُشِفَتْ عنه بَلْواه»(١).

وقد استجاب اللهُ تعالى دعاءَ نبيِّه أيوب عليه السلام؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ وبَيَّنَ الله سبحانه كيفيةَ كَشْفِهِ الضُّرَّ عن أيوب عليه السلام، وأنه سبحانه لَمَّا أرادَ إذهابَ الضُّرِّ عن أيوب، أَمَرَهُ أن يَرْكُضَ بِرِجْلِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «**أي**: اضْربِ الأرضَ بِرِجْلك، فامْتَثَلَ ما أُمِرَ به، فأنبَعَ اللهُ له عينًا باردةَ الماء، وأُمِرَ أن يَغْتَسِلَ فيها ويَشْرَبَ منها، فأذهَبَ اللهُ عنه ما كان يجدُهُ مِنَ الألم والأذى، والسَّقَم والمرضِ الذي كان في جسدِهِ ظاهرًا وباطنًا، وأبدَلَهُ اللهُ بعدَ ذلكَ كلِّه صحةً ظاهرةً وباطنة، وجمالًا تامًّا، ومالًا كثيرًا، حتى صبَّ له مِنَ المالِ صبًّا مَطَرًا عظيمًا جَرادًا مِنْ ذَهَب، وأخلَفَ اللهُ له أهلَهُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، **فقيل**: أحياهُمُ اللهُ بأعيانهم، **وقيل**: آجَرَهُ فيمَنْ سلَفَ، وعَوَّضَهُ عنهم في الدنيا بدَلَهم، وجَمَعَ له شَمْلَهُ بكلِّهم في الدارِ الآخرة، وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ **أي**: رَفَعْنَا عنه شِدَّتَهُ، ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾؛ رحمةً منا به ورأفةً وإحسانًا، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾؛ **أي**: تذكرةً لِمَنِ ابتُلِيَ في جَسَدِهِ أو مالِهِ أو وَلَدِه، فله أسوةٌ بنبيِّ الله أيوبَ؛ حيثُ ابتلاه اللهُ بما هو أعظمُ مِنْ ذلك، فصبَرَ واحتسَبَ حتى فَرَّجَ اللهُ عنه»(٢).

وقال الطبري رحمه الله **في معنى قوله تعالى**: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾: «يقولُ:

---

(١) «الفوائد» (ص٣٤٩).
(٢) «البداية والنهاية» (١/ ٥١٣).

وتذكرةً للعابدين رَبَّهم فَعَلْنا ذلك به؛ ليعتبروا به، ويَعْلَمُوا أنَّ اللهَ قد يبتلي أولياءَهُ ومَنْ أحبَّ مِنْ عبادِهِ في الدنيا بضروبٍ من البلاءِ في نفسِهِ وأهلِهِ وماله، مِنْ غيرِ هوانٍ به عليه، ولكن اختبارًا منه؛ ليبلُغَ بصبرِهِ عليه، واحتسابِهِ إياه، وحُسْنِ يقينِهِ: منزلتَهُ التي أعدَّها له تبارَكَ وتعالى مِنَ الكرامةِ عنده»، ثم ساق بسنده إلى **محمَّد بن كَعْب القُرَظي، أنه قال**: «أيُّما مؤمنٍ أصابَهُ بلاءٌ، فذكَرَ ما أصاب أيوبَ، فليقلْ: قد أصاب مَنْ هو خيرٌ منا، نبيًّا من الأنبياء»[1].

والمؤمنُ عُرْضةٌ في هذه الحياةِ للابتلاء، بل جاء في الحديث عن سعد ابن أبي وَقَّاص رضي الله عنه، قال: «قلتُ: يا رَسُولَ الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بَلَاءً؟ قال: **(الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ، زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)**»؛ رواه أحمد، والترمذي[2].

ومَنْ يَتأمَّلْ مِنَ المُبْتَلَينَ ما أصاب نبيَّ اللهِ أيوبَ عليه السلام يجدْ في ذلك سَلْوةً وعِبْرةً، فإذا رَأَوْا ما أصابه مِنَ البلاءِ الشديد، ثم ما أثابه اللهُ بعدَ زواله، وتأمَّلوا في سببِ ذلك، وَجَدُوهُ الصبرَ، فجعَلُوهُ أُسْوةً وقدوةً لهم.

وفيما حكى اللهُ تعالى مِنْ دعاءِ أيوب عليه السلام: بيانُ أنَّ مِنْ أعظمِ أسبابِ الفرجِ دعاءَهُ عز وجل، والابتهالَ إليه، والتضرُّعَ له، وإظهارَ الفاقةِ لديه، وذِكْرَهُ بأسمائِهِ الحسنى، وصفاتِهِ العليا، والتوسُّلَ إليه بذلك.

وفيه: أنَّ البلاءَ لا يَدُلُّ على الهوانِ والشقاء، بل قد يكونُ تكفيرًا للسيئات، أو رفعًا للدرجات، فللَّه الحكمةُ البالغةُ في ذلك؛ وقد ثبَتَ في «الصحيحين»، مِنْ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: **(مَا يُصِيبُ**

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٢) «مسند أحمد» (١/ ١٧٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٣٩٨)، ورواه ابن ماجه رقم (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٥٦٥).

الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا خَطَايَاهُ)[١].

وفيه كذلك: أنَّ الدعاءَ بكشفِ الضُّرِّ ورَفْعِ البلاءِ، لا ينافي الصبرَ والرضا بالقضاءِ؛ فإنَّ تَرْكَ الصبرِ يكونُ بإظهارِ الشكوى إلى الخلقِ، أمَّا إظهارُها إلى الله تعالى، فلا يكونُ تركًا للصبر.

❀ ❀ ❀

(١) تقدم تخريجه (ص٦٧٥).

١٩٤

دُعَاءُ يُونُسَ عليه السلام

ومِنَ الدعواتِ العظيمةِ المذكورةِ في القرآن: ما ورَدَ في قصَّة يونس، وكان عليه السلام نبيًّا مِنْ أنبياءِ الله تعالى، وكان مبعوثًا إلى أهل نِينَوَىٰ مِنْ أرضِ المَوْصِلِ بالعراق، فدعاهم إلى الله تعالى، فأَبَوْا عليه، وتَمادَوْا في كُفْرهم، فوعدهم بالعذاب، ثم خرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لهم قبلَ أن يَأْمُرَهُ اللهُ تعالى بذلك، إلى أنْ رَكِبَ مَعَ جماعةٍ في سفينةٍ مليئةٍ بالرُّكَّاب والأحمال، فلَجَّجَتْ بهم في البحر، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على مَنْ يُلْقُونَهُ مِنْ بينهم في البحرِ ليتخفَّفوا منه، فوقَعَتِ القُرْعةُ على يونس عليه السلام ابتلاءً مِنَ الله تعالى له؛ وعندئذ قامَ عليه السلام وألْقَى بنفسِهِ في البحر، فأرسَلَ اللهُ تعالى مِنَ البحرِ حُوتًا عظيمًا، فالتقَمَ يُونُسَ عليه السلام، وأوحى اللهُ إلى ذلك الحوتِ أنْ لَا يأكُلَ له لحمًا، ولا يَهْشِمَ له عظمًا، بل يبتلعُهُ ليكونَ بطنُهُ له سِجْنًا؛ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات].

ولـمَّا صارَ يُونُسُ عليه السلام في بَطْنِ الحُوتِ في تلك الظُّلُمات، نادى ربَّه مستغيثًا، مُعْترِفًا بخطئه، كما أخبَرَ عنه ذو العِزَّةِ والجلال، الذي يعلمُ السرَّ والنجوى، ويكشفُ الضُّرَّ والبَلْوَى، سامعُ الأصواتِ وإنْ ضَعُفَت، وعالمُ الخفيَّاتِ وإنْ دَقَّت، ومجيبُ الدعواتِ وإنْ عَظُمت؛ حيث قال في كتابه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء].

فقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، **قال الإمام الطبري** رحمه الله: «يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: واذكُرْ يا محمَّدُ ذا النون؛ **يعني**: صاحبَ النون، **والنونُ**: الحُوتُ، وإنَّما عنى بذي النونِ: يُونُسَ بنَ مَتَّى»(١).

وقوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، **عن ابن عباس** رضي الله عنهما، **قال**: «غَضِبَ على قَوْمِهِ»؛ ومثلُهُ عن الضَّحَّاك(٢).

وقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، **عن ابن عباس** رضي الله عنهما، **قال**: «يقولُ: ظَنَّ أنْ لَنْ نَقْضِيَ عليه عقوبةً ولا بلاءً فيما صَنَعَ بقومِهِ في غَضَبِهِ عليهم وفراره، وعقوبتُهُ أَخْذُ النون إياه»، ونحوُه عن قتادةَ، ومجاهدٍ، والضحاك(٣).

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، **قال ابن مسعود، وابن عباس، وغيرُهما من المفسِّرين**: «ظُلْمَةُ بَطْنِ الحَوْت، وظلمةُ البَحْر، وظلمةُ الليل»(٤).

وقوله: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ **أي**: نادى يونسُ عليه السلام ربَّه بهذا القولِ مُعْتَرِفًا بذنبه، تائبًا مِنْ خطيئته.

وهذا الدعاءُ العظيمُ الذي نادى به يونسُ عليه السلام ربَّه في بطنِ الحُوتِ يَتضمَّنُ ثلاثةَ جوانبَ:

الأول: قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رحمه الله: «فيه إثباتُ انفرادِهِ بالإلٰهية، والإلٰهيةُ تَتضمَّنُ كمالَ عِلْمِهِ وقدرتِهِ، ورحمتِهِ وحكمتِهِ؛ ففيها إثباتُ إحسانِهِ إلى العباد؛ فإنَّ الإلٰه هو المألوهُ، والمألوهُ هو الذي يَستحِقُّ أن يُعْبَدَ، وكونُهُ يستحقُّ أن يُعْبَدَ هو بما اتصَفَ به مِنَ الصفاتِ التي تَسْتلزِمُ أن يكونَ هو المحبوبَ غايةَ الحُبِّ، المخضوعَ له غايةَ الخضوع، والعبادةُ تَتضمَّنُ غايةَ الحُبِّ بغايةِ الذُّلِّ»(٥).

الثاني: قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، وفيه إثباتُ تنزيهِ الله مِنْ كلِّ نقصٍ وعيبٍ،

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٤).
(٢) رواهما ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٤).
(٣) **انظر**: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).
(٤) **انظر**: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٨٢)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٢٠ ـ ٢١).
(٥) «دقائق التفسير» (٤/ ٣٦٤).

وإثباتُ عَظَمَتِهِ المُوجِبَةِ له براءتَهُ مِنَ النقائصِ والعيوب؛ فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ يَتضمَّنُ معانيَ أسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِه العليا، ففيه كمالُ المدحِ والثناءِ لله تعالى، مَعَ كمالِ الذُّلِّ والحبِّ والخضوع.

الثالث: قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفيه اعترافٌ بذنبِهِ، وبحقيقةِ حاله، وهو يَتضمَّنُ طلَبَ المغفرةِ مِنَ الله تعالى؛ فإنَّ الطالبَ السائلَ تارَةً يسألُ بصيغةِ الطلب، وتارَةً يسألُ بصيغةِ الخبر: إمَّا بوصفِ حالِهِ، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ، وإمَّا بوصفِ الحالَيْن.

فدعاءُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقامِ قد تَضمَّنَ من المعانِي الجليلةِ والدَّلَالاتِ العظيمةِ ما يُوجِبُ القَبُولَ والإجابة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما دعوةُ ذي النُّونِ، فإنَّ فيها مِنْ كمالِ التوحيدِ، والتنزيهِ للربِّ تعالى، واعترافِ العبد بظُلْمِهِ وذنبِهِ ما هو مِنْ أبلغِ أدويةِ الكَرْبِ والهَمِّ والغَمِّ، وأبلغِ الوسائلِ إلى اللهِ سبحانه في قضاءِ الحوائج؛ فإنَّ التوحيدَ والتنزيهَ يَتضمَّنانِ إثباتَ كلِّ كمالٍ لله، وسَلْبَ كلِّ نقصٍ وعيبٍ وتمثيلٍ عنه، والاعترافُ بالظلمِ يَتضمَّنُ إيمانَ العبدِ بالشرعِ والثوابِ والعقاب، ويوجبُ انكسارَهُ ورجوعَهُ إلى اللهِ، واستقالتَهُ عَثْرَتَه، والاعترافَ بعبوديَّته، وافتقارَهُ إلى ربه؛ **فهٰهنا أربعةُ أمور قد وقَعَ التوسُّل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبوديَّة، والاعتراف**»[1].

وقد استجاب اللهُ لنبيِّه يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾؛ **أي**: فاستجبنا لِيُونُسَ دعاءَهُ إيانا؛ إذْ دعانا في بطن الحوت، ونجيناه مِنَ الغَمِّ الذي كان بسبب حَبْسِهِ في بطنِ الحوت.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فيه كمالُ هذه الدَّعْوة، وأنها دعوةٌ مستجابة؛ **قال ابن جرير الطبري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ جلَّ ثناؤه: وكما أنجينا يُونُسَ مِنْ كَرْبِ الحَبْسِ في بطنِ الحوتِ في البحرِ إذْ دعانا، كذلك نُنْجِي

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٠٨).

المؤمنين مِنْ كربهم إذا استغاثوا بنا ودَعَوْنَا»[١].

وذكَرَ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ **نحوًا مِنْ هذا، وقال:** «ولا سيَّما إذا دَعَوْا بهذا الدعاءِ في حالِ البلاء؛ فقد جاء الترغيبُ في الدعاء بها عن سَيِّد الأنبياء»[٢]، ثم أورَدَ ما رواه أحمد، والترمذي، وغيرُهما، عن سَعْد بن أبي وَقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ)**[٣].

❋ ❋ ❋

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٨٥).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٣).
(٣) تقدم تخريجه (ص٦٤٠).

١٩٥

دُعَاءُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)

لقد ساق اللهُ تعالى قِصَّةَ نبيِّه موسى عليه السلام في مواضعَ كثيرةٍ مِنْ كتابه العزيزِ بأساليبَ متنوعةٍ، وليس في قَصَصِ القرآنِ أعظمُ مِنْ قِصَّته، ولا أكثرُ منها مواقفَ وعِبَرًا؛ لأنه عليه السلام عالَجَ أكبرَ طاغيةٍ عَرَفَهُ التاريخ؛ فرعونَ وجنودَهُ، وعالَجَ أَعْنَتَ شَعْبٍ عرَفَهُ الناس؛ بني إسرائيل، فكانتْ مُهِمَّةُ موسى عليه السلام من أقوى المهمات، ورسالتُهُ مِنْ أظهرِ الرسالات.

وقد اشتَمَلَتْ قصةُ موسى عليه السلام في القرآن الكريم على مواقفَ عديدةٍ دعا فيها اللهَ تعالى بدعواتٍ عظيمةٍ، دَالَّةٍ على كمالِ ذُلِّهِ وخضوعه، وتمامِ عبوديَّتِهِ للهِ ربِّ العالمين، وعلى مكانتِهِ ووَجَاهَتِهِ وعُلُوِّ شأنِهِ عندَ ربِّه عز وجل.

فمِنْ دعاءِ موسى عليه السلام: ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وهذا الدعاءُ قد قاله موسى عليه السلام استغفارًا وتوبةً إلى ربِّه سبحانه لقتلِهِ رجلًا قِبْطِيًّا خطأً مِنْ غيرِ قصدٍ لقتله، ولكنه قَصَدَ مساعدةَ رجلٍ إسرائيليٍّ مِنْ شِيعَتِهِ استغاثَ به على القبطي، فوكَزَهُ موسى؛ **أي**: ضرَبَهُ بِقَبْضَةِ يده، فقضى عليه لِقُوَّةِ موسى عليه السلام، ولم يَنْسُبْ عليه السلام هذا الفعلَ إلى القَدَرِ معتذرًا بذلك، بل بادَرَ بالتوبةِ والاستغفار؛ لأنه كان السببَ فيه؛ **وهذا معنى ما رُوي عن قَتَادةَ** رحمه الله **في قوله تعالى**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، **قال**: «وعرَفَ نبيُّ اللهِ عليه السلام مِنْ أينَ المَخْرَجُ، فأرادَ المَخْرَجَ، فلم يُلْقِ ذنبَهُ على ربِّه»(١).

---

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٩).

وقد ذكر العَلَّامة ابن سِعْدي رحمه الله **مِنْ فوائد هذه القصَّة**: «أَنَّ قَتْلَ الكافرِ الذي له عهدٌ بعقدٍ أو عُرْفٍ لا يجوزُ؛ فإنَّ موسى نَدِمَ على قتلِهِ القِبْطيَّ، واستَغْفَرَ اللهَ وتابَ إليه»، **وذكَرَ أيضًا مِن فوائدها**: «أن الذي يقتُلُ النفوسَ بغيرِ حقٍّ يُعَدُّ مِنَ الجبَّارين المُفْسِدِينَ في الأرض، ولو كان غرضُهُ من ذلك الإرهاب، ولو زعَمَ أنه مُصْلِح، حتى يَرِدَ الشرعُ بما يبيحُ قتلَ النفس»(١).اهـ.

وبهذا الكلامِ المتينِ الذي ذكَرَهُ رحمه الله يُعْلَمُ فسادُ ما عليه بعضُ المندفعين والمتهوِّرين ممَّن جعلوا إرهابَ المؤمنين، وإرعابَ الآمنين، وإخافةَ المطمئنين، وقتلَ المسلمين والمستَأْمَنِينَ سبيلًا للإصلاحِ بزعمهم، وهم في الحقيقةِ مِنَ الجَبَّارين في الأرض ومِنَ المفسدين.

ومِنْ دعاءِ موسى عليه السلام: أنه لمَّا أُخبِرَ بأنَّ الأقباطَ يأتمرون به ليثأروا منه لقتله القبطيَّ خرَجَ من المدينةِ فرارًا بنفسِهِ، داعيًا ربَّه عز وجل في هذه الحال؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص].

فقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: دعاءٌ بالنجاةِ مِنْ فرعونَ وقومِهِ الذين يأتمرون لقتله، وسمَّاهم ظالمين؛ لأنه قد تاب مِنْ ذنبه، وفعَلَهُ غضبًا مِنْ غيرِ قَصْدٍ منه للقتل، فتوعُّدُهُمْ له بالقتلِ ظُلْمٌ منهم واعتداءٌ، **وقيل**: سَمَّاهم ظالمين؛ لأنهم ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ بالله تعالى.

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: دعاءٌ بالهدايةِ إلى الطريقِ الوَسَطِ المُوصِلِ إلى البلدِ الذي قَصَدَهُ - وهو مَدْيَنُ - وإلى كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة.

وقد استجابَ اللهُ دعاءَهُ، وأعطاه ما سأل؛ **قال ابن كثير** رحمه الله: «ففعَلَ اللهُ به ذلك، وهداه إلى الطريقِ المستقيمِ في الدنيا والآخرة، فجعَلَهُ هاديًا مَهْدِيًّا»(٢).

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٣٦).

وأشار **العَلَّامة ابن سعدي** في هذا المقام إلى أنَّ في هذا الدعاء تنبيهًا لطيفًا على أنَّ الناظرَ في العلمِ عندَ الحاجةِ إلى العلمِ أو التكلُّمِ به إذا لم يَترجَّحْ عنده أحدُ القولَيْن، فإنه يستهدي ربَّه ويَسْأَلُهُ أن يَهْدِيَهُ إلى الصوابِ من القولَيْن، بعد أن يَقْصِدَ الحقَّ بقلبِهِ، ويبحثَ عنه؛ فإنَّ الله لا يُخَيِّبُ مَنْ هذه حالُه، كما جرى لموسى ﷺ لَمَّا قصَدَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ، ولا يدري الطريقَ المُعَيَّنَ إليها، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقد هداه الله، وأعطاهُ ما رَجَاهُ وتمنَّاه[١].

ومِنْ دعائه ﷺ: أنه لما جَهِدَ به السفرُ، وبلَغَ به الجُوعُ كلَّ مبلغ، ولم يكنْ معه مِنَ الطعامِ ما يأكُلُهُ، قال في هذه الحالِ مسترزِقًا ربَّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقد أجمَعَ المفسِّرون على أنَّ موسى ﷺ طلَبَ في هذا الدعاءِ ما يأكلُهُ، لِمَا به مِنَ الجوعِ الشديد؛ فإنَّ هذا وصفٌ لحالِهِ بأنه فقيرٌ إلى ما أنزَلَ اللهُ إليه مِنَ الخير، وهو متضمِّنٌ لسؤالِ اللهِ إنزالَ الخيرِ إليه؛ وهذا مِنْ أبلغِ الوسائل إلى الله ﷻ.

قال ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ اللهَ كما يُحِبُّ مِنَ الداعي أن يَتَوَسَّلَ إليه بأسمائِهِ وصفاتِهِ ونِعَمِهِ العامَّةِ والخاصَّة، فإنه يُحِبُّ منه أن يَتوسَّلَ إليه بضعفِهِ وعجزِهِ وفقرِهِ، وعدمِ قدرتِهِ على تحصيلِ مصالحِهِ ودفعِ الأضرارِ عن نفسه، كما قال موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ لِمَا في ذلكَ من إظهارِ التضرُّعِ والمسكنةِ والافتقارِ لله، الذي هو حقيقةُ كلِّ عَبْد»[٢]. اهـ.

ويلاحظُ أن الطالبَ السائلَ تَارَةً يسألُ بصيغةِ الطلبِ، وتارةً يسألُ بصيغةِ الخبر، إمَّا بوصفِ حالِهِ مِنْ فقرٍ واحتياجٍ وضعف، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ مِنْ غِنًى وكمالٍ، ومَنٍّ وعطاءٍ، وإمَّا بوصفِ الحالَيْن: حالِ السائلِ، وحالِ المسؤول.

---

(١) **انظر**: «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣١، ١٣٢).
(٢) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣٢).

وموسى عليه السلام وصَفَ في هذه الدعوةِ حالَهُ، وأظهَرَ فَقْرَهُ واحتياجَهُ إلى ربه ومولاه، وهو يَتضمَّنُ سؤالَهُ سبحانه إنزالَ الخيرِ إليه، وموالاةَ المَنِّ عليه.

وقد أجابه اللهُ فيما سأل، فوالى المَنَّ عليه، وأجزَلَ له العطاءَ، وبقي عليه السلام في مَدْيَنَ في أمنٍ وعافية، وفي خيرٍ ورزقٍ إلى أنِ اصطفاهُ اللهُ واجتباهُ رسولًا أمينًا، ونبيًّا كريمًا، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبركاتُهُ عليه وعلى جميعِ النبيين.

❁ ❁ ❁

١٩٦

دُعَاءُ مُوسَى عليه السلام (٢)

ومِنْ دعاءِ موسى عليه السلام: أنَّ الله تعالى لَمَّا بَعَثَهُ إلى فِرْعَوْنَ وقومِهِ لدعوتهم إلى الإسلامِ، سأل ربَّه عز وجل أن يَفْتَحَ عليه في تبليغِ الرسالة، وبيانِ الدين؛ كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه].

وهذا دعاءٌ عظيمٌ، في مقامٍ عظيم؛ **كما قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله: «هذا سؤالٌ مِنْ موسى عليه السلام لربِّه عز وجل أن يَشْرَحَ له صدرَهُ فيما بعَثَهُ به؛ فإنه قد أمرَهُ بأمرٍ عظيم، وخَطْبٍ جسيم، بعثه إلى أعظمِ مَلِكٍ على وجهِ الأرض إذْ ذاك، وأَجْبَرِهم وأشدِّهم كفرًا، وأكثرِهم جنودًا، وأَعْمَرِهم مُلْكًا، وأطغاهم، وأبْلَغِهم تمرُّدًا، بَلَغَ مِنْ أمرِهِ أَنِ ادَّعَى أنه لا يَعْرِفُ اللهَ، ولا يَعْلَمُ لرعاياه إلـٰهًا غَيْرَهُ»(١).

والدعاء بشرحِ الصدرِ له أهميةٌ كبيرةٌ في هذا الشأن؛ فإنَّه قوةٌ معنويَّة، يستعينُ بها نبيُّ اللهِ موسى عليه السلام على أداءِ تلك المهمَّة الكبرى، فإنه مَدْعَاةٌ للصبرِ، واحتمالِ المَشَاقِّ، والإقبالِ على الدعوةِ بهمَّةٍ ونشاط؛ وأما ضِيقُ الصَّدْرِ والسَّآمةُ، فهي من أسبابِ الضعفِ وخَوَرِ العزيمة، ومَنْ هذا حالُهُ لا يصلُحُ لهدايةِ الخَلْقِ ودعوتهم إلى الله تعالى؛ كما قال الله سبحانه لنبيه

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٦).

مـحـمَّـد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومَعَ سَعَةِ الصدرِ وانشراحِهِ، لا بدَّ مِنْ تيسيرِ الله تعالى وتوفيقِهِ؛ ولهذا قال عليه السلام في هذا الدعاء: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾؛ **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله: «**أي**: إنْ لم تكنْ أنت عَوْني ونصيري، وعَضُدِي وظهيري، وإلَّا فلا طاقةَ لي بذلك»(١).

وقال ابن سِعْدي رحمه الله: «ومِنْ تيسيرِ الأمرِ أن يُيسِّرَ للداعي أن يأْتِيَ جميعَ الأمورِ مِنْ أبوابها، ويُخَاطِبَ كلَّ أحدٍ بما يناسبُ له، ويَدْعُوَهُ بأقربِ الطرقِ المُوصِلَةِ إلى قَبُولِ قوله»(٢).

ثم إنَّ مِنْ أهمِّ وسائلِ الدعوةِ إلى الله: قدرةَ الداعي على البيانِ والإفهامِ بالقول؛ ولهذا دعا موسى عليه السلام ربَّه أن يَفْتَحَ عليه بذلك، في قوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾، وقد ذكَرَ المفسِّرون أنه كان في لسان موسى ثِقَلٌ لا يكادُ يُفْهَمُ عنه الكلامُ، فسأَلَ اللهَ تعالى أن يَحُلَّ عُقْدةً مِنْ لسانِهِ ليفهموا قوله، ولِيَحْصُلَ المقصودُ التامُّ مِنَ المخاطبةِ والمراجعةِ والبيانِ عن المعاني.

ولذا ذكر العلامة ابن سِعْدي رحمه الله **مِنْ جملةِ الفوائد المستفادةِ مِن قصَّة موسى** عليه السلام: «أنَّ الفصاحةَ والبيانَ ممَّا يعين على التعليم، وعلى إقامةِ الدعوة؛ لهذا طلَبَ موسى من ربِّه أن يَحُلَّ عُقْدةً مِن لسانِهِ ليفقهوا قولَه، وأنَّ اللَّثْغة لا عَيْبَ فيها إذا حصَلَ الفهمُ للكلام، ومِنْ كمالِ أدبِ موسى عليه السلام مَعَ ربِّه أنه لم يسأل زوالَ اللَّثْغةِ كلِّها، بل سأل إزالةَ ما يَحْصُلُ به المقصودُ»(٣)؛ **قال الحسن البصري** رحمه الله: «الرسل إنما يسألون بِحَسَبِ الحاجة؛ ولهذا بَقِيَتْ في لسانه بقيَّةٌ»(٤).

ثـم قـال مـوسـى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٦). (٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).

(٣) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣٦).

(٤) أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٦٠).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا أيضًا سؤالٌ مِنْ موسى في أمرٍ خارجيٍّ عنه، وهو مساعدةُ أخيه هارونَ له»(١).

وجاء في موضعٍ آخرَ مِنَ القرآنِ الكريم بيانُ التعليلِ لهذا السؤالِ من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو ما حكاه اللهُ عنه من قوله: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، فمُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سألَ ربَّه أن يَجْعَلَ أخاه هارونَ شَرِيكًا له في النبوَّةِ وتبليغِ الرسالة، وهذا مِنْ وجاهتِهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندَ ربِّه، حين شفَعَ أنْ يُوحِيَ اللهُ إلى أخيه، وطلَبَ موسى أن يكونَ مُعِينهُ مِنْ أهله؛ لأنه مِنْ باب البرِّ، وأحقُّ بِبرِّ الإنسانِ قرابتُه، **ويقال**: إنه لم يكنْ أحدٌ على أخيه أسعدَ، ولأخيه أنفعَ مِنْ موسى لهارون(٢)، ثم ذكَرَ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الفائدةَ في سؤاله هذا، فقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه].

قال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ مدارَ العباداتِ كلِّها والدينِ على ذكرِ اللهِ، فسأَلَ اللهَ أن يَجْعَلَ أخاه معه يتساعدانِ ويتعاونانِ على البرِّ والتقوى، فيَكْثُرُ منهما ذِكْرُ اللهِ مِنَ التسبيحِ والتهليلِ وغيرِهِ من أنواعِ العبادات»(٣)، وبيَّن أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الذِّكْرَ كما أنه هو الذي خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ لأجله، والعباداتُ كلُّها ذِكْرٌ لله، فكذلك الذِّكْرُ يُعِينُ العبدَ على القيامِ بالطاعاتِ وإن شَقَّت، ويُهَوِّنُ عليه الوقوفَ بين يدي الجبابرة، ويُخَفِّفُ عليه الدعوةَ إلى الله تعالى، وقد قال الله تعالى لموسى حين بَعَثَهُ: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾(٤) [طه: ٤٢]؛ **أي**: لا تَفْتُرَا ولا تَضْعُفا عن ذِكْري؛ فإنه لكما سلاحٌ وعُدَّةٌ.

وختَمَ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعاءَهُ لربِّه في هذه الأمورِ كلِّها بقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥]؛ **أي**: «تعلمُ حالَنا وضَعْفَنا وعَجْزَنا وافتقارَنا إليكَ في كلِّ

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٧).
(٢) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٣/ ٣٢٨).
(٣) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).
(٤) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣٥).

الأمور، وأنت أَبْصَرُ بنا مِنْ أنفسنا وأرحمُ، فمُنَّ علينا بما سألناك، وأَجِبْ لنا فيما دعوناك»(١). فاستجاب اللهُ تعالى دعاءَ نبيِّه وكليمِه مُوسَىٰ ﷺ، فقال ﷻ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]؛ أي: أُعْطِيتَ جميعَ ما سَأَلْـتَ، **والسُّؤْلُ**: الطَّلِبَـةُ والمرغـوبُ فيـه، وقال تعالى جوابًا لموسى أيضًا على سؤاله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؛ فأخبر سبحانه أنه استجابَ له الدعاءَ، وحَقَّقَ له الرجاءَ، فعَضَدَهُ وقَوَّاهُ بأخيه، وجعَلَ لهما سلطانًا على فِرْعَوْنَ وقومِهِ، فلا سبيلَ لهم إلى أذاهما بما أَيَّدهما به مِنَ الآياتِ الساطعات، وجعَلَ الغَلَبَةَ والنصرَ والعاقبةَ الحميدةَ لهما ولأتباعهما؛ فنِعْمَ المَوْلَى هو سبحانه ونِعْمَ النصير.

* * *

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).

١٩٧

دُعَاءُ مُوسَىٰ عليه السلام
(٣)

لا يزالُ الحديثُ ماضيًا عن دعاء نبيِّ الله موسى عليه السلام، **فمِنْ دعائه**: أنه لَمَّا بلغَهُ تهديدُ فرعونَ له بالقتل، التجأَ إلى ربِّه مستعيذًا به مِنْ بأسِ فرعونَ وجَبَرُوتِهِ؛ كما حكى اللهُ تعالى ذلك، حيثُ قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر].

وقولُ فِرْعَوْنَ هذا ـ قبَّحه الله ـ مِنْ أعجب ما يكون، وهو مِنَ التمويهِ والترويجِ للباطلِ الذي هو عليه؛ ولهذا يقالُ في المثل ـ على سبيلِ التهكُّم ـ: «صارَ فرعونُ مُذَكِّرًا»؛ وهذا تضليلٌ منه؛ فإن فرعونَ يزعُمُ في كلامِهِ هذا أنه يخافُ على الناس أن يُضِلَّهُمْ موسى عليه السلام، فصار واعظًا يُشْفِقُ على الناس من موسى، ويخشى عليهم منه، من أن يُبَدِّلَ على الناس دِينَهم، أو أن يُظْهِرَ في الأرضِ الفسادَ، ويَزْعُمُ لنفسِهِ أنه إنما يريدُ بالناسِ الخيرَ وهدايتَهم إلى سبيلِ الرشاد، وهذا شأنُ دعاةِ الباطل وأئمةِ الضلالِ في كلِّ زمانٍ ومكان؛ وقد قال فرعونُ ذلك مع أنه مِنْ شَرِّ خَلْقِ اللهِ تعالى وأشدِّهم فسادًا وخُبْثًا، ومَكْرًا بالناس، واستخفافًا بالعقول، وتكبُّرًا على الحَقِّ، وتعاليًا عليه.

ولهذا قال موسى عليه السلام داعيًا الله تعالى، ومنبِّهًا الناسَ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله **في معنى هذا الدعاء**: «إني استجَرْتُ ـ أيها القومُ ـ بربي وربِّكم مِنْ كلِّ متكبِّرٍ عليه، تكبَّرَ عن توحيدِهِ والإقرارِ بألوهيَّتِهِ وطاعتِهِ، لا يؤمنُ بيومٍ يُحَاسِبُ اللهُ فيه خَلْقَه، فيجازي المُحْسِنَ بإحسانه، والمسيءَ بما أساء،

وإنما خَصَّ موسى صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه الاستعاذةَ بالله مِمَّنْ لا يؤمنُ بيوم الحساب؛ لأنَّ مَنْ لم يؤمنْ بيومِ الحسابِ مصدِّقًا، لم يكنْ للثوابِ على الإحسانِ راجيًا، ولا للعقابِ على الإساءةِ وقبيحِ ما يأتي مِنَ الأفعالِ خائفًا؛ ولذلك كانتِ استجارتُهُ مِنْ هذا الصنفِ مِنَ الناس خاصَّةً»(١).

وقد حكى الله تعالى عن نبيِّه موسى عليه السلام نحوَ هذا الدعاءِ أيضًا في قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول: وإني اعتصَمْتُ بربِّي وربِّكم، واستَجَرْتُ به منكم أن تَرْجُمُونِ»(٢)، **قال**: «والرجمُ قد يكونُ قولًا باللسان، وفعلًا باليد، والصوابُ أن يقال: استعاذ موسى بربِّه مِنْ كلِّ معاني رَجْمِهِمُ الذي يصلُ منه إلى المرجومِ أذًى ومكروهٌ، شتمًا كان ذلك باللسان، أو رجمًا بالحجارةِ باليد»(٣).

ويُستفادُ مِنْ هذا السياقِ الكريم: أنَّ مَنْ كان متكبِّرًا غيرَ مؤمنٍ بيومِ الحساب يحملُهُ تكبُّرُهُ وعدمُ إيمانِهِ على الشَّرِّ والفساد، وأنَّ على المؤمنِ أن يستعيذَ باللهِ مِنْ شرِّ هذا الصنف مِنَ الخَلْق؛ وقد ثبَتَ في «سنن أبي داود»، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قومًا، قال: **(اللَّهُمَّ، إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ)**»(٤).

وممَّا حكى الله تعالى مِنْ دعاءِ موسى عليه السلام: استغفارُه لنفسِهِ ولأخيه هارون؛ كما قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وكذلك: استغفارُهُ ودعاؤُهُ لنفسِهِ ولقومه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٣١٠ - ٣١١).
(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣١).
(٣) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣).
(٤) تقدم تخريجه (ص٦٤٨).

تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف].

واشتَمَلَ دعاؤُهُ في هذا المقامِ على فَصْلَيْنِ كما أشار إليهما الحافظُ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

الفصل الأول مِنَ الدعاء: فيه دَفْعُ المحذور، وهو قولُهُ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾؛ فهذا دعاءٌ بتركِ المؤاخذةِ بالذنبِ، والوقايةِ من ذلك.

والفصل الثاني مِنَ الدعاء: في تحصيلِ المقصود، وهو قوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ **أي:** أَوْجِبْ لنا وأَثْبِتْ لنا فيهما حسنةً(١).

وقد مدَحَ اللهُ تعالى في كتابه مَنْ يدعوه سبحانه بهذا الدعاءِ المشتملِ على طلبِ الحسنةِ في الدنيا والآخرة؛ فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فجمَعَتْ هذه الدعوةُ كلَّ خيرٍ في الدنيا، وصرَفَتْ كلَّ شَرٍّ؛ فإنَّ الحسنةَ في الدنيا تشملُ كلَّ مطلوب دنيوي مِنْ عافيةٍ، ودارٍ رَحْبةٍ، وزوجةٍ حَسَنة، ورزقٍ واسع، وعِلْم نافع، وعَمَلٍ صالح، ومَرْكَبٍ هنيءٍ، وثناءٍ جميل، إلى غير ذلك مما اشتَمَلَتْ عليه عباراتُ المفسِّرين، ولا منافاةَ بينها؛ فإنَّها كلَّها مندرجةٌ في الحسنةِ في الدنيا، وأمَّا الحسنةُ في الآخرة، فأعلى ذلك: دخولُ الجنةِ، وتوابعُهُ مِنَ الأمنِ مِنَ الفزعِ الأكبرِ في العَرَصات، وتيسيرِ الحساب، وغيرِ ذلك مِنْ أمورِ الآخرة الصالحة، وأما

---

(١) **انظر:** «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٧٨).

النجاةُ مِنَ النار، فهو يقتضي تيسيرَ أسبابِهِ في الدنيا؛ مِنِ اجتنابِ المَحَارِمِ والآثام، وتَرْكِ الشهواتِ والحَرَام»[١].

ولهذا وردَتِ السنةُ المطهَّرةُ بالترغيبِ في هذا الدعاء؛ فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان أكثَرُ دَعْوَةٍ يدعو بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (**اللَّهُمَّ، آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**)»؛ متفق عليه[٢].

وقولُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ **أي**: تُبْنَا ورَجَعْنَا وأنبنا إليك.

* * *

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٨٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٠).

١٩٨

دُعَاءُ سُلَيْمَانَ عليه السلام

مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ في القرآنِ: **دَعْوةُ نبيِّ اللهِ سُلَيْمانَ** عليه السلام، الذي أعطاه اللهُ تعالى النبوَّةَ والمُلْكَ، وعلَّمه لغةَ الطير.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وكان عليه السلام شاكرًا لنعمةِ اللهِ عليه؛ يدعو ربَّه تعالى، ويَبْتَهِلُ إليه أن يُلْهِمَهُ شُكْرَ هذا الفضلِ المبين، والاستعانةَ به على العملِ الصالح الذي ينالُ به رِضْوانَ الله تعالى ورحمتَهُ بدخولِ الجنةِ مع عبادِ اللهِ الصالحين؛ كما أخبرَ اللهُ تعالى بذلك في قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل].

فذكَرَ تعالى ـ في هذه الآيات ـ جانبًا من مُلْكِ سليمانَ عليه السلام، وما كان يدعو اللهَ تعالى به، وهو قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وهذا مِنْ أجمعِ الأدعية، ومِنْ أنسبها لحالِهِ عليه السلام وما أعطاه الله مِنَ المُلْكِ العظيم، والفضلِ المبين.

فقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾: طَلَبٌ من اللهِ أنْ يُقَيِّضَهُ للشكرِ على ما أنعَمَ به عليه، وعلى ما خَصَّه به من المزيَّةِ على غيرِهِ من تعليمِهِ مَنْطِقَ الطير، وإسماعِهِ قولَ النَّمْلة.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، فيه أنَّ النعمةَ على الوالدَيْنِ نعمةٌ على الولد؛ ولهذا سأَلَ ربَّه التوفيقَ للقيامِ بشكرِ نعمتِهِ الدينية والدنيوية عليه وعلى والدَيْه،

والمرادُ بوالدَيْهِ: داوُد عليه السلام، وأُمُّهُ وكانتْ مِنَ العابداتِ الصالحات(١).

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ **أي**: وَفِّقني أنْ أعمَلَ صالحًا ترضاه؛ لكونِهِ موافقًا لأمرك، خالصًا لوجهك، سالمًا مِنَ المُفْسِداتِ والمُنْقِصات.

وينبغي التأمُّلُ في قوله: ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ فإنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ العملَ قد يكونُ صالحًا في نظرِ صاحبِهِ ولا يرضاهُ اللهُ تعالى؛ لكونِهِ غيرَ موافقٍ لأمرِهِ سبحانه، أو لكونِهِ غيرَ خالصٍ لوجهه عز وجل؛ فلا يرضى اللهُ تعالى مِنَ الأعمالِ إلا ما كان موافقًا لشريعته، خالصًا لوجهه.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ **أي**: إذا تَوَفَّيْتَني، فأَلْحِقْني بالصالحينَ مِنْ عبادك، والرفيقِ الأعلى مِنْ أوليائك؛ **بمعنى**: أَدْخِلْني في جملتهم، وأَثْبِتِ اسمي مع أسمائهم، واحْشُرْني في زُمْرتهم؛ **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: «يريدُ: مع إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ ومَنْ بَعْدَهم من النبيين»(٢).

ومِنْ دعاءِ نبيِّ الله سليمان عليه السلام: ما حكاه اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص].

فأخبرَ تعالى أنه ابتَلَى عَبْدَهُ ونبيَّه سليمانَ عليه السلام بأنْ ألقى على كرسيِّهِ جَسَدًا، **ولعلَّ المرادَ** به: ما ثبَتَ في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (**قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد** عليه السلام: **لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**)(٣)؛ فابتلاه اللهُ بشِقِّ وَلَدٍ،

---

(١) **انظر**: «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٣٢٧).

(٢) أورده البغوي في «تفسيره» (٣/ ٤١١).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٢٨١٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٥٤).

وقيل: إنَّ الجسَدَ الذي أُلقِيَ على كرسيِّه هو صَخْرٌ الجِنِّيُّ الذي تَسلَّطَ على مُلْكِهِ أربعين يومًا يحكُمُ بين الناس، في قصةٍ طويلةٍ جاءتْ في أخبارِ بني إسرائيل، ولا يُعْتَمَدُ عليها.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: تابَ إلى ربِّه؛ ومِنْ ثَمَّ قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

فسأَلَ اللهَ مغفرةَ ذَنْبِهِ، وتَوسَّلَ إليه باسمِهِ الوَهَّابِ أن يَهَبَ له ملكًا لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدِهِ من البَشَر.

وقد استجابَ اللهُ دَعْوَتَه، فغفَرَ له، وأعطاه مُلْكًا لم يحصُلْ لأحدٍ من بعده؛ قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص]، فزاده اللهُ على المغفرةِ **أمرين**: **الزُّلْفَىٰ**؛ وهي درجةُ القُرْبِ منه، والثاني: **حُسْنُ المآب**؛ وهو حُسْنُ المُنْقَلَب، وطيبُ المأوى عندَ الله[(١)].

وقد ثبَتَ في الحديث في سنن النسائي، وابن ماجه، عن عبد الله ابن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: (**أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ﷺ لَمَّا بَنَى بَيْتَ المَقْدِسَ، سَأَلَ اللهَ ﷻ خِلَالًا ثَلَاثَةً: سَأَلَ اللهَ ﷻ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ ﷻ مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ ﷻ حِينَ فَرَغَ مِن بِنَاءِ المَسْجِدِ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**)[(٢)] وقوله: (**لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ**)؛ أي: لا يُحَرِّكُهُ إلا ذلك.

ونسأل اللهَ أن يَفُكَّ أَسْرَهُ مِنْ أيدي اليهود، وأن يُطْلِقَ قَيْدَه، وأن يَرُدَّهُ للمسلمين، وأن يُقِرَّ أعينهم بالصلاةِ فيه، مطهَّرًا مِن رِجْسِ اليهود؛ إنه سبحانه خيرُ مسؤول، ونِعْمَ المأمول، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل .

---

(١) **انظر**: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص٢١٧).

(٢) «سنن النسائي» رقم (٦٩٢)، و«ابن ماجه» رقم (١٤٠٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح النسائي» (١/ ٢٢٩).

١٩٩

دُعَاءُ زَكَرِيَّا عليه السلام

إنَّ مِنْ دعواتِ الأنبياءِ في القرآنِ: ما جاء في قصَّة نبيِّ اللهِ زكريَّا عليه السلام: أنه دعا ربَّه عز وجل أن يَرْزُقَهُ وَلَدًا صالحًا يكونُ وارثًا له في العلمِ والنبوَّةِ والقيامِ بالدِّين، ولم يكنْ عليه السلام قد رُزِقَ وَلَدًا في حياته، وكانتِ امرأتُهُ عاقرًا، وتَقدَّمَ به السنُّ، لكنَّه على علم بكمالِ قدرةِ الله، وأنه سبحانه إذا أراد شيئًا كان، ولو لم تَتوفَّرْ أسبابُهُ المعلومةُ في العادة؛ إذْ هو خالقُ الأسبابِ والمسبَّبات، وبيده مقاليدُ كلِّ شيءٍ وخزائنه.

قال الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم].

وقد تَضمَّنَ هذا الدعاءُ العظيمُ الذي دعا به زكريَّا عليه السلام ذِكْرَ حالته، وشدةَ رغبته، وكمالَ أدبِهِ مع ربِّه، وثقتَهُ التامَّةَ بقدرتِهِ ورحمتِهِ به خاصَّةً وبعبادِهِ عامَّة.

قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾؛ أي: هذا ذِكْرُ رحمةِ اللهِ بعبدِهِ زكريا.

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، النداءُ هنا: هو الدعاءُ والرَّغْبة.

وقوله: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾؛ أي: سِرًّا لا عَلَنًا؛ وهذا الثناءُ عليه بكونِ دعائِهِ خفيًّا فيه دَلَالَةٌ على أنَّ إخفاءَ الدعاءِ أفضلُ من إظهارِهِ وإعلانه.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾؛ أي: ضَعُفَ العظمُ منِّي ورَقَّ من الكِبَر؛ **قال العلامة محمد الأمين الشِّنْقِيطي** رحمه الله: «وإنما ذكَرَ ضَعْفَ العظمِ؛

لأنه عَمُودُ البدنِ وبه قَوَامُهُ، وهو أصلُ بنائه، فإذا وَهَنَ دلَّ على ضَعْفِ جميعِ البدن؛ لأنه أشدُّ ما فيه وأصلبُهُ، فوهَنُهُ يستلزمُ وهَنَ غيرِهِ من البدن»[(١)].

وقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ **أي**: انتَشَرَ الشيبُ في الرأس؛ لأنَّ الشيبَ دليلُ الضعفِ والكبر، ورسولُ الموتِ ورائدُهُ ونذيره.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمرادُ مِنْ هذا الإخبارُ عن الضعفِ والكبرِ ودلائلِهِ الظاهرةِ والباطنة»[(٢)].

ونادى ربَّه بذلك بيانًا لحالِهِ متوسِّلًا إليه سبحانه بافتقارِهِ إليه.

قال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَتوسَّلَ إلى الله تعالى بضعفِهِ وعَجْزه، وهذا مِنْ أحبِّ الوسائلِ إلى الله؛ لأنه يَدُلُّ على التبرِّي من الحولِ والقوة، وتعلُّقِ القلبِ بحولِ اللهِ وقوته»[(٣)].

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾؛ **أي**: لم أَشْقَ يا رَبِّ بدعائك؛ لأنك لم تُخَيِّبْ دعائي، بل كنتَ تجيبُ دَعْوتي، وتقضي حاجتي، فهو توسُّلٌ إليه بما سلَفَ مِنْ إجابتِهِ وإحسانه، طالبًا أن يُجارِيَهُ على عادتِهِ التي عَوَّدَهُ من قضاءِ حوائجِهِ وإجابتِهِ إلى ما سأله[(٤)].

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «استُفِيدَ من هذه الآياتِ آدابُ الدعاءِ وما يُسْتَحبُّ فيه؛ **فمنها**: الإسرارُ بالدعاء؛لقوله: ﴿خَفِيًّا﴾، **ومنها**: استحبابُ الخضوع في الدعاء، وإظهارِ الذُّلِّ والمسكنةِ والضعف؛ لقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، **ومنها**: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بِنِعَمِهِ وعوائدِهِ الجميلة؛ لقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾»[(٥)].

وقوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾؛ **أي**: وإنِّي خفتُ مَنْ يتولَّى على بني إسرائيلَ مِنْ بعدِ موتي أَلَّا يقومَ بِدِينِكَ حقَّ القيامِ، ولا يدعوَ عبادَكَ إليك؛

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٠٤).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠٦).
(٣) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩).
(٤) **انظر**: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٣/ ٥٠٤).
(٥) «محاسن التأويل» (١١/ ٤١٢٧).

وهذا فيه شفقتُهُ ونصحُهُ وحِرْصُهُ على قيامِ الدينِ، والخوفُ من ضياعه.

وقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾؛ **أي**: وكانتْ زوجتي لا تَلِدُ منذُ شبابها.

وقوله: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾؛ **أي**: وَلَدًا صالحًا معينًا.

قال العلَّامة ابن سِعْدي رحمه الله: «وهذه الوَلَايةُ وَلَايةُ الدِّينِ وميراثُ النبوَّةِ والعلمِ والعملِ؛ ولهذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾»(١)؛ فالإرثُ المذكورُ هنا إنما هو إِرْثُ علمٍ ونبوةٍ ودعوةٍ إلى الله عز وجل لا إرثُ مالٍ.

وقوله: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾؛ **أي**: اجعَلْ هذا الذي تَهَبُهُ لي مَرْضِيًّا ترضاه أنت، ويرضاه عبادُك دِينًا وخُلُقًا وخَلْقًا.

قال العلامة ابن سِعْدي رحمه الله: «**والحاصل**: أنه سأَلَ اللهَ ولدًا ذَكَرًا صالحًا يبقى بعد موته، ويكونُ وليًّا مِنْ بعده، ويكونُ نبيًّا مرضيًّا عندَ اللهِ وعندَ خَلْقه؛ وهذا أفضلُ ما يكونُ مِنَ الأولاد، ومِنْ رَحْمةِ اللهِ بعبدِهِ أن يَرْزُقَهُ ولدًا صالحًا جامعًا لمكارمِ الأخلاق، ومحامدِ الشِّيَم»(٢).

ومِنَ الآياتِ المشتملةِ على ذِكْرِ دعاءِ زكريا عليه السلام هذا: قولُ الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]؛ وقد أخبرَ اللهُ تعالى أنه استجابَ لدعاءِ نبيِّه زكريا عليه السلام، فجعَلَ امرأتَهُ وَلُودًا بعد أنْ كانتْ عاقرًا، ورزَقَهُ وَلَدًا ذَكَرًا صالحًا سمَّاه يحيى، وجعله نبيًّا من الأنبياء.

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩).
(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩ ـ ٥٧٠).

ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصودُ: أنَّ الله تعالى أمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أنْ يَقُصَّ على الناسِ خَبَرَ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كان مِنْ أمرِهِ حِينَ وَهَبَهُ اللهُ ولدًا على الكِبَرِ، وكانتِ امرأتُهُ عاقرًا في حالِ شبيبتها وقد أَسَنَّتْ أيضًا، حتى لا يَيْئَسَ أحدٌ مِنْ فضلِ اللهِ ورحمته، ولا يَقْنَطَ مِنْ فضلِهِ تعالى وتقدَّس»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٣٩٥).

٢٠٠

دُعاءُ نَبِيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ

(١)

في القرآنِ الكريمِ مواضعُ عديدةٌ يأمُرُ اللهُ تعالى فيها نبيَّه ورسولَهُ محمَّدًا ﷺ بدعائِهِ دعاءَ ذِكْرٍ وثناءٍ، ودعاءَ طَلَبٍ ومسألةٍ، ومِنَ المناسبِ للمسلمِ والمفيدِ له فائدةً عظيمةً: أن يَقِفَ عليها لِيتعلَّمَ منها الهَدْيَ القويم، والنهجَ السديد، والمسلكَ الرشيد، في ذِكْرِ الرَّبِّ ﷻ ودعائه.

* **ومن هذه المواضع:** قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ففيها الأمرُ بذكرِ اللهِ ﷻ خِيفَةً مع التضرُّع والإلحاح، ولا سيَّما في أَوَّلِ النهارِ وآخره، والتحذيرُ مِنَ الغفلةِ وسبيلِ الغافلين.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ **ـ وقد اختار أنَّ المراد بقوله: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾؛ أي: باللسان مع القَلْب ـ:** «ومعلومٌ أنَّ ذِكْرَ اللهِ المشروعَ بالغُدُوِّ والآصالِ في الصلاةِ وخارجَ الصلاةِ هو باللسانِ مع القلب؛ مثلُ صلاتَي الفجرِ والعصر، والذِّكْرِ المشروعِ عَقِبَ الصلاتَيْن، وما أمَرَ به النبيُّ ﷺ وعَلَّمَهُ وفَعَلَهُ من الأذكارِ والأدعيةِ المأثورةِ مِنْ عملِ اليومِ والليلةِ المشروعةِ طرفي النهارِ، بالغدوِّ والآصال»[١].

* **ومن الآيات التي فيها أَمْرُ اللهِ لنبيِّه ﷺ بالدعاء:** قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ

---

(١) «دقائق التفسير» (٣/ ١٦٦).

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران].

وهذا أمرٌ للنبيِّ ﷺ أن يَدْعُوَ بهذا الدعاءِ معظِّمًا لربِّه ﷻ، متوكِّلًا عليه، وشاكرًا له، ومفوِّضًا إليه.

«فصدَّرَ الآيةَ سبحانَهُ بتفرُّدِهِ بالمُلْكِ كلِّه، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه مَنْ يشاءُ، ويَنْزِعُهُ ممَّن يشاء لا غيرُهُ، **فالأوَّل**: تفرُّدُهُ بالملك، **والثاني**: تفرُّدُهُ بالتصرُّفِ فيه، وأنه سبحانه هو الذي يُعِزُّ مَنْ يشاء بما يشاء مِنْ أنواعِ العِزّ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ بسلبِ ذلك العِزِّ عنه، وأنَّ الخيرَ كلَّه بيديه، ليس لأحدٍ معه منه شيء، ثم ختَمَهَا بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فتناوَلَتِ الآيةُ مُلْكَهُ وحدَهُ، وتصرُّفَهُ، وعمومَ قُدْرَته، وتضمَّنَتْ أنَّ هذه التصرفاتِ كلُّها بيده، وأنها كلُّها خيرٌ، فسَلْبُهُ المُلْكَ عمَّن يشاءُ وإذلالُهُ مَنْ يشاءُ خيرٌ، وإنْ كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل؛ فإنَّ هذا التصرُّفَ دائرٌ بين العدلِ والفضل، والحكمةُ والمصلحَةُ لا تخرُجُ عن ذلك، وهذا كلُّه خيرٌ يُحْمَدُ عليه الربُّ ويثنى عليه به؛ كما يُحْمَدُ ويُثْنَىٰ عليه بتنزيهِهِ عن الشر، وأنه ليس إليه»؛ **قاله ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسيره للآية**: «وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ وإرشادٌ إلى شكرِ نِعْمةِ اللهِ تعالى على رسولِهِ ﷺ وهذه الأُمَّةِ؛ لأنَّ اللهَ حَوَّلَ النبوةَ مِنْ بني إسرائيلَ إلى النبيِّ العربيِّ، القرشيِّ المَكِّيِّ، الأُمِّيِّ، خاتَمِ الأنبياءِ على الإطلاق، ورسولِ اللهِ إلى جميعِ الثقلَيْنِ الإنسِ والجِنّ، الذي جمَعَ اللهُ فيه محاسنَ مَنْ كان قبله، وخَصَّهُ بخصائصَ لم يُعْطِهَا نبيًّا مِنَ الأنبياء، ولا رسولًا من الرُّسُلِ في العلم باللهِ وشريعتِهِ، وإطلاعِهِ على الغيوبِ الماضيةِ والآتية، وكشفِهِ عن حقائقِ الآخرة، ونشرِ أمتِهِ في الآفاقِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، وإظهارِ دينِهِ وشرعِهِ على سائرِ الأديانِ والشرائع؛ فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه

(١) «شفاء العليل» لابن القيم (ص١٧٨ ـ ١٧٩).

دائمًا إلى يومِ الدينِ، ما تعاقَبَ الليلُ والنهار»[١].

* **ومن الآياتِ التي فيها أمرُهُ ﷺ بالدعاء**: قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقد أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بهذا الدعاءِ بعدما ذكَرَ عن المشركين ما ذكَرَ مِنَ المَذَمَّةِ لهم في حُبِّهم الشركَ، ونُفْرتِهِمْ عن التوحيد.

والمعنى: ادعُ - أيها النبيُّ - اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، الذي هو فاطرُ السمٰواتِ والأرض؛ **أي**: خالِقُهما على غيرِ مثالٍ سبَقَ، ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ **أي**: السِّرِّ والعلانية، ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ **أي**: في دنياهم، وستَفْصِلُ بينهم يومَ مَعادِهِمْ وقيامهم مِنْ قبورهم»[٢].

وفي هذا تعليمُ العبادِ الالتجاءَ إلى اللهِ تعالى، والدعاءَ بأسمائِهِ الحسنى، والاستعانةَ بالتضرُّعِ والابتهالِ على دفعِ كَيْدِ العدو، والسلامةِ مِنْ شرورهم.

وقد ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن عائشة ﵂، قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا قام مِنَ الليلِ، افتتَحَ صلاتَهُ، فقال: (**اللَّهُمَّ، رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمواتِ والأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، أَنْتَ تحكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**)»[٣].

* **وَمِنَ الدعاءِ الذي أُمِرَ به النبيُّ ﷺ**: ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

ومعنى الآيةِ: فإنْ أعرَضَ الكُفَّارُ عما جِئْتَهُمْ به مِنَ الشريعةِ العظيمة، المطهَّرةِ الكاملةِ الشاملة، فقُلْ أنت هذا الدعاءَ، وهو:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢ - ٢٣). (٢) **انظر**: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص٦٠١).

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيَّ اللهُ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا هو.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتَمَدتُّ عليه، وإليه فَوَّضْتُ جميعَ أموري.

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: هو مالكُ كلِّ شيءٍ وخالقُهُ؛ لأنه ربُّ العرشِ العظيم، الذي هو سَقْفُ المخلوقات، وخَصَّ العرشَ بالذِّكْرِ؛ لأنه أعظمُ المخلوقات، فيدخُلُ فيه ما دونه مِنْ باب أولى.

وفي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: «مَنْ قال في كلِّ يوم حِينَ يُصْبِحُ وحِينَ يُمْسِي: (**حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**)، سبعَ مَرَّات، كفاه اللهُ عز وجل ما أَهَمَّهُ من أمر الدنيا والآخرةِ»؛ رواه ابنُ السُّنِّيِّ في «عمل اليوم والليلة» مرفوعًا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ورواه غيره موقوفًا[(١)]، والموقوفُ رجالُ إسنادِهِ ثقاتٌ، ومِثْلُ هذا لا يُقالُ مِنْ قِبَلِ الرأيِ والاجتهاد، فسبيلُهُ سبيلُ المرفوع.

❀ ❀ ❀

(١) تقدم تخريجه (٤٩٦).

٢٠١

دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ (٢)

* **ومِنَ المواضعِ التي ورَدَ فيها أَمْرُ النبيِّ ﷺ بذكرِ اللهِ ودعائه**: قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وهذا دعاءُ ثناءٍ وتمجيدٍ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بأنْ يقولَهُ توحيدًا لربِّه سبحانه، وتنزيهًا له عن كلِّ ما لا يليقُ به، وقد جاء في الأثر **عن محمَّد بن كَعْب القُرَظِيِّ أنه كان يقول**: «إنَّ اليهودَ والنصارى قالوا: اتخَذَ اللهُ ولدًا، وقالتِ العرَبُ: لَبَّيْكَ لا شريكَ لك إلَّا شريكًا هو لك، وقال الصابئون والمَجُوس: لولا أولياءُ اللهِ لَذَلَّ الله؛ فأنزَلَ الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾»(١).

وفي الآية بيانُ استحقاقِ اللهِ للحمدِ؛ لاختصاصِهِ سبحانه بنعوتِ الكمال، وصفاتِ الجلال، فهو سبحانه المنزَّهُ عن اتخاذِ الولد، المتفرِّدُ بالمُلْكِ لا شريكَ له، الغنيُّ عن عباده، لا يحتاجُ إلى أحدٍ منهم، ولا يتولَّى أحدًا منهم ليتعزَّزَ به مِنْ ذِلَّة، أو لِيتكثَّرَ به من قِلَّة، وهو سبحانه الكبيرُ المتعال.

* **ومن المواضع التي فيها أمرُهُ ﷺ بالدعاء**: قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وهذا دعاءُ مسألةٍ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يقولَهُ، وهو مُتضمِّنٌ سؤالَ الله

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٩٠).

تعالى أن يَجْعَلَ مُدْخَلَهُ ومُخْرَجَهُ على الصِّدْق؛ وذلك في قوله: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحقيقةُ الصِّدْقِ في هذه الأشياءِ هو الحقُّ الثابتُ المُتَّصِلُ بالله، المُوصِلُ إلى الله، وهو ما كان به وله مِنَ الأقوالِ والأعمال، وجزاءِ ذلك في الدنيا والآخرة.

فمُدْخَلُ الصِّدْقِ ومُخْرَجُ الصدق: أن يكونَ دخولُهُ وخروجُهُ حقًّا ثابتًا لله وفي مرضاته، بالظَّفَرِ بالبُغْيةِ وحصولِ المطلوب، ضِدَّ مُخْرَجِ الكَذِبِ ومُدْخَلِهِ، الذي لا غايةَ له يُوصَلُ إليها، ولا له ساقٌ ثابتةٌ يقومُ عليها، كمُخْرَجِ أعدائِهِ يوم بَدْر، ومُخْرَجُ الصدقِ كمُخْرَجِهِ ﷺ هو وأصحابِهِ في تلك الغَزْوة، وكذلك مُدْخَلُهُ ﷺ المدينةَ كان مُدْخَلَ صِدْق، باللهِ وللهِ وابتغاءَ مرضاةِ الله، فاتصَلَ به التأييدُ والظَّفَرُ والنصرُ وإدراكُ ما طلَبَهُ في الدنيا والآخرة، بخلافِ مُدْخَلِ الكذب، الذي رام أعداؤُهُ أنْ يدخلوا به المدينةَ يومَ الأحزاب، فإنَّه لم يكنْ باللهِ ولا للهِ، بل كان مُحَادَّةً للهِ ولرسولِهِ، فلم يتصلْ به إلَّا الخِذْلَانُ والبَوَار، وكذلك مُدْخَلُ اليهودِ مَنْ دخَلَ من اليهودِ والمحاربين لرسولِ اللهِ ﷺ حِصْنَ بني قُرَيْظة، فإنَّه لما كان مُدْخَلَ كذبٍ أصابهم معه ما أصابهم.

فكلُّ مُدْخَلٍ ومُخْرَجٍ كان بالله ولله، فصاحبُهُ ضامنٌ على الله، فهو مُدْخَلُ صدقٍ، ومُخْرَجُ صدق.

وكان بعضُ السلف إذا خرَجَ مِنْ داره، رفَعَ رأسه إلى السماء **وقال**: «اللهمَّ، إنِّي أعوذُ بِكَ أَنْ أَخْرُجَ مَخْرَجًا لا أكونُ فيه ضامنًا عليك»؛ يريد أنْ لَا يكونَ المخرجُ مخرجَ صِدْق.

ولذلك فُسِّرَ مدخلُ الصدق ومخرجُهُ بخروجِهِ ﷺ من مكةَ ودخولِهِ المدينة؛ ولا ريبَ أن هذا على سبيل التمثيل، فإنَّ هذا المدخلَ والمخرجَ من أجَلِّ مداخلِهِ ومخارجِهِ ﷺ، وإلَّا فمداخلُهُ ومخارجُهُ كلُّها مداخلُ صدق، ومخارجُهُ مخارجُ صدق؛ إذْ هي للهِ وباللهِ، وبأمرِهِ ولابتغاءِ مرضاته.

وما خرَجَ أحدٌ من بيته ودخَلَ سُوقَهُ أو مدخلًا آخر إلَّا بِصِدْقٍ أو بكذبٍ، فمخرجُ كلِّ واحد ومدخلُهُ لا يعدو الصدقَ والكذبَ، والله المستعان»(١).اهـ.

كما تَضمَّنَ هذا الدعاءُ العظيمُ سؤالَ اللهِ تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ نبيَّ اللهِ عَلِمَ أنْ لَا طاقةَ له بهذا الأمرِ إلَّا بسلطان، فسأَلَ سلطانًا نصيرًا لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ولحدودِ الله، ولفرائض الله، ولإقامةِ دِينِ الله، وإنَّ السلطانَ رحمةٌ من اللهِ جعَلَهَا بين أَظْهُرِ عباده، لولا ذلك لأغارَ، بعضهم على بعضٍ، فأكَلَ شديدُهُمْ ضعيفَهُمْ»(٢).

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «سلطانًا نصيرًا: حجةً بيِّنة»(٣).

ورجَّح الإمامُ ابن جريرٍ الطبريُّ والحافظُ ابن كَثِيرٍ قولَ قتادةَ في المرادِ بسؤالِهِ السلطانَ النصيرَ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنه لا بدَّ مع الحقِّ مِنْ قهرٍ لِمَنْ عاداه وناوَأَهُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وفي الحديث: «إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بالسُّلْطَانِ ما لا يَزَعُ بالقُرْآن»(٤)؛ **أي**: لَيَمْنَعُ بالسلطانِ عن ارتكابِ الفواحشِ والآثامِ ما لا يمتنعُ كثيرٌ من الناسِ بالقرآنِ وما فيه مِنَ الوعيدِ الأكيد، والتهديدِ الشديد؛ وهذا هو الواقع»(٥).اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩).

(٤) أخرج نحوه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٠٨)، عن عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا، وإسنادُهُ تالفٌ: فيه الهيثم بن عدي، وهو كَذَّابٌ متروك، وأخرَجَ معناه ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١١٨)، عن عُثْمان بن عَفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإسناده معضل.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٠٩).

وخلاصة هذا الدعاء: أنه سؤالٌ لله تعالى بأن يجعلَهُ على الحقِّ الثابتِ في جميعِ أحوالِهِ في مُدْخَلِهِ ومُخْرَجِهِ، وأن يَجْعَلَ له سلطانًا وقوةً ينصُرُ به الحقَّ ويُظْهِرُهُ على كلِّ مَنْ خالَفَهُ.

* **ومن المواضعِ التي فيها أمرُهُ ﷺ بالدعاء**: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤].

وهذا أمرٌ مِنَ الله تعالى لنبيِّه ﷺ أن يَسْأَلَ ربَّه، ويتوجَّهَ إليه بأن يوفِّقَهُ للصوابِ والرَّشَد؛ فيقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾؛ **أي**: يُثَبِّتَني على طريقٍ هو أقربُ إليه وأرشدُ.

قال العلامة السِّعْدي رَحِمَهُ اللهُ: «فأمرَهُ أن يَدْعُوَ الله ويَرْجُوَهُ ويَثِقَ به أن يَهْدِيَهُ لأقربِ الطرقِ الموصِّلةِ إلى الرَّشَد، وحريٌّ بعبدٍ تكونُ هذه حالَهُ، ثم يَبْذُلُ جُهْدَهُ ويَسْتفرِغُ وُسْعَهُ في طلبِ الهدى والرشد أنْ يُوَفَّقَ لذلك، وأن تَأْتِيَهُ المعونةُ من ربِّه، وأن يُسَدَّدَ في جميعِ أمورِه»[1] .اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٥١).

٢٠٢

دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ (٣)

* **ومِنَ المواضعِ التي أُمِرَ فيها النبيُّ الكريم ﷺ بدعاءِ الله**: قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: وقُلْ يا محمَّدُ: ربِّ زدني عِلْمًا إلى ما علَّمتني، أمرَهُ بمسألتِهِ مِنْ فوائدِ العلمِ ما لا يَعْلَم»(١).

وقال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمرَهُ الله تعالى أن يسألَهُ زيادةَ العلم؛ فإنَّ العلمَ خيرٌ، وكثرةُ الخيرِ مطلوبة، وهي مِنَ الله، والطريقُ إليها: الاجتهادُ، والشوقُ للعلم، وسؤالُ اللهِ، والاستعانةُ به، والافتقارُ إليه في كلِّ وقت»(٢).

وقد ثبت في السُّنَّةِ عنايةُ النبيِّ ﷺ بهذا الدعاء.

ففي الترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسولُ الله ﷺ يقولُ: (**اللَّهُمَّ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وزِدْنِي عِلْمًا**)(٣).

قال سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم يَزلْ ﷺ في زيادةٍ حتى تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»(٤).

وكذلك لم يزلِ السلفُ الصالحُ رحمهم الله على عنايةٍ بهذه الدعوة؛ ومِمَّا ورد في ذلك: ما رواه سعيد بن منصور، وعَبْد بن حُمَيْدٍ، **عن ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **أنه كان يدعو**: «اللهُمَّ زِدْنِي إيمانًا وفِقْهًا، ويقينًا وعِلْمًا»(٥).

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، قَالَ: كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ١٨١).
(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٩٩).
(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٥١ و٣٨٣٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤٧٦).
(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٣١٢).
(٥) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٠٢).

إِيمَانًا دَائِمًا، وَعِلْمًا نَافِعًا، وَهَدْيًا قَيِّمًا. قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَنرى أَنَّ مِنَ الْإِيمَانِ إِيمَانًا لَيْسَ بِدَائِمٍ، وَمِنَ الْعِلْمِ عِلْمًا لَا يَنْفَعُ، وَمِنَ الْهَدْيِ هَدْيًا لَيْسَ بِقَيِّمٍ»(١).

ويُروى عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ، **أنه قال**: «مِنْ شأنِ ابن آدمَ أَلَّا يَعْلَمَ كلَّ شيءٍ، ومِنْ شأنِ ابن آدمَ أن يَعْلَمَ ثم ينسى، ومِنْ شأنِ ابن آدمَ أن يَطْلُبَ مِنَ اللهِ عِلْمًا إلى عِلْمه»(٢).

* **ومن المواضع التي أمَرَ اللهُ فيها نبيَّه ﷺ بالدعاء**: قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يَدْعُوَ بهذا الدعاءِ عندَ حلولِ النِّقَم: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون]»(٣).

ومعنى هذا الدعاء: أي: يا رَبِّ، إنْ أَرَيْتَني ما يوعدون مِنَ العذاب، بأن تُنْزِلَهُ بهم وأنا حاضرٌ شاهدٌ ذلك، يا رَبِّ، فلا تَجْعَلْني في جملةِ الظالمين المعذَّبين، بل أَخْرِجْني منهم ونَجِّني مِنْ عذابهم.

«قال أهلُ التفسيرِ: وهذا دليلٌ على أنه يجوزُ للعبدِ أن يَسْأَلَ اللهَ تعالى ما هو كائنٌ لا محالةَ»(٤).

وبيانُ ذلك: أنه ﷺ كان يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى لا يجعلُهُ في القومِ الظالمينَ إذا نزَلَ بهم العذابُ، وقد أخبَرَ تعالى في كتابه أنه لا يُنْزِلُ بهم العذابَ وهو فيهم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ومع هذا أمَرَ الربُّ تعالى نبيَّه ﷺ بهذا الدعاءِ والسؤالِ لِيَعْظُمَ أجره، وليكونَ في كلِّ الأوقاتِ ذاكرًا لربِّه، ملتجئًا إليه، لائذًا بجنابه.

ومِنْ هذا القبيل: قولُه ﷺ في دعائه: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ،**

---

(١) «الإيمان» لابن أبي شيبة (ص٤١).

(٢) ذكره أبو المظفَّر السمعاني في «تفسيره» (٣/ ٣٥٨).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٨٥).

(٤) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٣/ ٤٨٨).

وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وحُبَّ المَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدتَّ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ)[١]؛ وله نظائرُ كثيرةٌ.

* **ومن المواضع أيضًا:** قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون].

وهذا أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ بالاستعاذةِ مِنَ الشياطينِ ومِنْ شرورهم؛ لأنهم لا تنفعُ معهم الحِيَل، ولا ينقادون بالمعروف؛ فالنجاةُ منهم بالاستعاذةِ بالله تعالى.

وقوله: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾؛ **أي:** أَعْتَصِمُ بحولك وقوتك، مُتَبَرِّئًا مِنْ حولي وقوتي، لكي تَقِيَني مِنْ هَمَزاتِ الشياطين.

والهَمَزَاتُ: جمعُ هَمْزَةٍ، كتَمَرَاتٍ وتَمْرة، **وأصلُها في اللغة:** الدفعُ والنَّخس.

وفُسِّرَتْ همزاتُ الشياطين: بِنَفْخِهِمْ ونَفْثِهم، **وفُسِّرَتْ:** بِخَنْقِهم، وهو الموتةُ التي تشبهُ الجنون، **وفُسِّرَتْ:** بنَزَغَاتِهِمْ ووَسَاوِسِهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فهَمَزَاتُ الشياطين: دَفْعُهم الوساوسَ والإغواءَ إلى القلب».

قال: «وقد يقالُ ـ وهو الأظهر ـ: إنَّ همزاتِ الشياطينِ إذا أُفْرِدَتْ دخَلَ فيها جميعُ إصابتهم لابنِ آدمَ، وإذا قُرِنَتْ بالنفخِ والنفثِ كانت نوعًا خاصًّا؛ كنظائرِ ذلك»[٢].

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، **قال العلامة ابن سِعْدي** رَحِمَهُ اللهُ: «**أي:** أعوذُ بك مِنَ الشرِّ الذي يصيبني بسببِ مباشَرَتِهِمْ وهَمْزِهم ومَسِّهم، ومِنَ الشَّرِّ الذي يصيبني بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذةٌ مِن مَادَّةِ الشرِّ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣)، والترمذي رقم (٣٢٣٣)، من حديث ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصَحَحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٣١٧).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

كلِّه وأصله، ويدخُلُ فيها الاستعاذةُ مِنْ جميعِ نَزَغاتِ الشيطان ومِنْ مسِّه ووسوسته، فإذا أعاذ اللهُ عبدَهُ مِنْ هذا الشر، وأجاب دعاءَهُ، سَلِمَ من كلِّ شرٍّ، ووُفِّقَ لكلِّ خير»[١].

وقال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والظاهرُ في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾: أنَّ المعنى: أعوذُ بك أنْ يَحضُرَني الشيطانُ في أمرٍ مِنْ أموري كائنًا ما كان، سواءٌ كان ذلك وقتَ تلاوةِ القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أو عندَ حضورِ الموتِ، أو غيرَ ذلك مِنْ جميعِ الشؤونِ في جميعِ الأوقات»[٢].

وقد ثبَتَ في الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ في صلاتِهِ بعدَ دعاءِ الاستفتاح: (**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**)؛ رواه الترمذي[٣].

وثبت في الحديث أيضًا عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ نَقُولُهُنَّ عندَ النومِ مِنَ الفَزَعِ: (**بِاسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ**)»؛ رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[٤].

والأحاديثُ الواردةُ في التعوُّذِ بالله مِنَ الشيطانِ الرجيمِ كثيرةٌ؛ أعاذنا اللهُ منه، ومِنْ هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه.

❊ ❊ ❊

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٥٣).
(٢) «أضواء البيان» (٥/٨١٩).
(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/١٣)، وأبو داود رقم (٧٧٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٤٢)، وابن ماجه رقم (٨٠٧)، من حديث أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (١/١٤٩).
(٤) تقدم تخريجه (ص٥٥٧).

٢٠٣

دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

(٤)

* **ومن المواضع التي أمَرَ اللهُ فيها نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالدعاء:** قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ إلى هذا الدعاء»(١).

وهو دعاءٌ متضمِّنٌ للاستغفارِ والاسترحامِ مِنَ الرَّبِّ الغفورِ الرحيم.

فقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ استغفارٌ، وهو طلَبُ الغَفْر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فالغَفْرُ ـ إذا أُطلِقَ ـ معناه: محوُ الذنبِ وسَتْرُهُ عن الناس»(٢).

وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «وقل ـ يا محمَّد ـ: ربِّ اسْتُرْ عليَّ ذنوبي بعفوِكَ عنها»(٣).

وقوله: ﴿وَٱرْحَمْ﴾: استرحامٌ، وهو طَلَبُ الرَّحْمة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «والرَّحْمَةُ معناها: أن يُسَدِّدَهُ ويوفِّقَهُ في الأقوالِ والأفعال»(٤).

وقال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللهُ: «وارحَمْنَا لِتُوصِلَنا برَحْمَتِكَ إلى كلِّ خير»(٥).

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ **أي:** وأنت ـ يا ربِّ ـ خيرُ مَنْ رَحِمَ عَبْدَه، فقَبِلَ توبته، وغَفَرَ ذنبه، وترَكَ عقوبته، وأوصَلَهُ إلى كلِّ خير، وكلُّ

---

(١)(٢)(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٩٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧/ ١٣٥). (٥) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٥٦).

راحم للعبدِ فاللهُ خيرٌ له منه، وأرحمُ بعبدِهِ مِنَ الوالدةِ بولدها، وأرحَمُ به مِنْ نفسه.

وقد ختَمَ الدعاءَ بهذا توسُّلًا به إلى الربِّ تعالى بكمالِ رحمتِهِ، وكثرتها، وعمومها، وهو مناسبٌ للاستغفارِ والاسترحام، فهو مِنْ أحبِّ الوسائلِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنه ثناءٌ عليه سبحانه بما هو أهلٌ له مِنَ الأسماءِ الحسنى، والصفاتِ الحميدة.

ولهذا الدعاءِ المبارَكِ نظائرُ عديدةٌ في السُّنَّةِ يَجْمَعُ فيها ﷺ بين الاستغفارِ والاسترحامِ، وهو مِنْ كمالِ استجابتِهِ ﷺ لأمرِ الله ﷻ؛ **ومِنْ ذلك**: ما رواه البخاري ومسلم، عن أبي بكر الصِّدِّيقِ ﵁، أنه قال للنبيِّ ﷺ: «عَلِّمْنِي دُعَاءً أدعو به في صلاتي؟ قال: (**قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**)»[١].

* **ومن المواضع التي أمَرَ اللهُ فيها نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالدعاء**: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣].

وهذا أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ بأنْ يُسبِّحَ بحمدِ ربِّه ويستغفرَهُ، وقد جاء هذا الأمرُ بعدَ بِشَارةِ النبيِّ ﷺ بنصرِ اللهِ تعالى وفتحِ مَكَّةَ، ودخولِ الناسِ في دين الله أفواجًا؛ ولهذا فَهِمَ طائفةٌ مِنَ الصحابة ﵃ أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِرَ بالتسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ شكرًا لله تعالى على هذه النِّعَمِ التي بُشِّرَ بها، وفَهِمَ بعضُ الصحابة ـ كعُمَرَ، وابن عَبَّاس ـ ﵃ أنَّ مجيءَ نصرِ اللهِ والفتحِ ودخول الناسِ في الدِّينِ أفواجًا علامةٌ على اقترابِ أجلِ رسولِ الله ﷺ، وانقضاءِ عُمُره، وأنَّ الله تعالى أمرَهُ بالتسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ لِيَخْتِمَ عَمَلَهُ بذلك، ويتهيَّأَ للقاءِ رَبِّهِ والقدومِ عليه على أكملِ أحواله وأتمِّها.

وقد كان النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ من التسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ بعدَ نزولِ هذه

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠٥).

السورة؛ كما في الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ من قول: (**سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**)، قالت: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قول: (**سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتوبُ إليهِ**)؟ فقال: (**خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا، أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهَ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ - فتحُ مَكَّةَ - ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر])»؛ رواه مسلم(١).

وفي روايةٍ أخرى عنها رضي الله عنها، قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أنْ يقولَ في ركوعِهِ وسجودِهِ: (**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرِ لِي**)؛ يَتَأَوَّلُ القرآن»؛ رواه البخاري ومسلم(٢).

ومعنى قولها: «يَتَأَوَّلُ القرآنَ»؛ **أي**: يَفْعَلُ ما أَمَرَهُ اللهُ به في القرآنِ؛ **تعني**: قولَهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وبعدُ، فهذه الآياتُ القرآنيَّةُ المتقدِّمُ ذِكْرُها كانتْ عَرْضًا لجملةٍ طَيِّبَةٍ من الأدعيةِ المباركةِ التي أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يَدْعُوَ بها ربَّه، ويبتهلَ إليه ثناءً عليه، وسؤالًا لمصالحِ الدِّينِ والدنيا والآخرة.

وقد امتثَلَ النبيُّ ﷺ أوامرَ ربِّه تعالى، وعَمِلَ بتوجيهاتِهِ سبحانه على الوجه الذي يحبُّهُ اللهُ ويرضاه؛ فكان عليه الصلاةُ والسلامُ أكثَرَ الناسِ دعاءً، وأحسَنَهُمْ ثناءً، وأرغَبَهُمْ إلى الله عز وجل، وأرهَبَهُمْ منه في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، بل فاقَ عليه الصلاةُ والسلامُ جميعَ الأنبياءِ والمرسلين في دعاءِ الربِّ سبحانه، وحُسْنِ الثناءِ عليه بالكلماتِ الجامعة، العاجلةِ والآجلة.

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٨٤).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٤٤).

فهو ﷺ لم يَتْرُكْ خَصْلَةً مِنَ الخصالِ الحميدة، ولا خَلَّةً من الخِلَالِ الرشيدة، إلَّا طَلَبَهَا مِنَ الله، ولا خَصْلَةً مِنَ الخِصَالِ السَّيِّئَةِ، ولا صفةً من الصفاتِ المذمومةِ، إلَّا استعاذَ به تبارك وتعالى منها إجمالًا وتفصيلًا بما آتاه اللهُ مِنْ جوامعِ الكلم، وكمالِ التذلُّل، وتمامِ الخضوعِ والانكسار.

فكان هديُهُ ﷺ أكملَ الهَدْيِ وأَسْناه، ونَهْجُهُ أتمَّ النَّهْجِ وأَسَدَّهُ وأوفاه؛ فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبَرَكَاتُهُ عليه، ورَزَقَنَا اللهُ حُسْنَ الاتباعِ لمنهجِهِ والاقتفاءِ لأثره.

❋ ❋ ❋

٢٠٤

دَعَوَاتُ الْمُؤْمِنِينَ
(١)

لقد ذكَرَ اللهُ في كتابِهِ المجيدِ دَعَواتٍ وصَفَ بها عبادَهُ المؤمنين، وأثنى عليهم بها، وحَكَى عن بعضِ الصالحين مِنْ عبادِهِ كلماتٍ دَعَوُا اللهَ تعالى بها في بعضِ المواقفِ والمناسبات، حَسَنةً في مبناها، وعظيمةً في مدلولها ومعناها.

وحريٌّ بالعبدِ المسلمِ أن يُعْنَىٰ بها ويَتَأَمَّلَهَا ويَتَدَبَّرَها، وأنْ يَحْرِصَ على حفظها ودعاءِ اللهِ بها، كلٌّ منها في مَقَامِهِ ومناسبته؛ فإنه سبحانه إنما ذَكَرَها في كتابه وحكاها فيه ليتدبَّرها عبادُهُ المؤمنون، وليأخذوا بها.

وفيما يلي عَرْضٌ لطائفةٍ مباركةٍ مِنْ هذه الدعوات، مع وَقَفاتٍ يسيرة مع بعض معانيها وفوائدها:

* **فمن ذلك**: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وهذا الدعاءُ العظيمُ قد أخبَرَ اللهُ تعالى به في كتابِهِ عن قوم مِنْ أهلِ الإيمانِ به وبرسولِهِ، مِمَّنْ حَجَّ بيتَهُ الحرام، أنَّهم يسألون ربَّهم ﷻ بهذا الدعاء، على وجهِ المَدْحِ لهم والثناءِ عليهم؛ لأنهم جَمَعُوا في دعائهم بين مصلحةِ الدارَيْنِ الدنيا والآخرة.

فقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾: نداءٌ فيه إقرارٌ بالربوبيَّةِ المستلزمةِ لتوحيدِهِ في الألوهية، واعتقادِ كمالِهِ وجلالِهِ في الذاتِ والصفاتِ والأفعال.

وقولهم: ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: دعاء بخيرِ الدنيا كلِّه؛ فإنَّ الحسنةَ المطلوبةَ في الدنيا تشملُ كُلَّ مطلوبٍ دنيويٍّ مما يَحْسُنُ وقعُهُ عند العبد،

مِنْ عافيةٍ، ورزقٍ هنيءٍ واسعٍ حلالٍ، ودارٍ رَحْبةٍ، وزوجةٍ صالحة، ووَلَدٍ تَقَرُّ به العَيْن، وعلمٍ نافع، وعملٍ صالح، وأمنٍ وراحة، وثناءٍ جميل، ونحوِ ذلك من المطالبِ المحبوبةِ المباحة؛ وهذا جامعٌ لِمَا أورَدَهُ المفسِّرون مِنَ العباراتِ في هذا المقام.

وقولهم: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾؛ **أي**: وآتنا في الآخرةِ حَسَنَةً.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا الحَسَنةُ في الآخرة، فأعلى ذلك دخولُ الجَنَّةِ، وتوابعُهُ مِنَ الأمنِ مِنَ الفزعِ الأكبرِ في العَرَصات، وتيسيرِ الحساب، وغيرِ ذلك مِنْ أمورِ الآخرة الصالحة»(١).

وقولهم: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ **يعني**: اصْرِفْ عنا عذابَ النار، وهذا دعاءٌ بالنجاةِ مِنَ النارِ وعدمِ الدخولِ فيها، فهو يقتضي تيسيرَ أسبابِهِ في الدنيا من اجتنابِ المَحَارِمِ والآثام، وتَرْكِ الشُّبُهاتِ والحَرَام.

ويُعَدُّ هذا الدعاءُ المباركُ مِنْ جوامعِ الأدعيةِ وأَشْمَلِها لخيري الدنيا والآخرة؛ ولهذا وردَتِ السُّنَّةُ النبويَّةُ ببيانِ مكانتِهِ، والترغيبِ فيه، والحثِّ عليه، كما في الحديث عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «كان أكثرَ دعاءِ النبيِّ ﷺ: **(رَبَّنَا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وقِنَا عَذَابَ النَّار)**». متفق عليه(٢)، وزاد مسلمٌ في روايته: «وكان أنسٌ إذا أَرَادَ أن يَدْعُوَ بدعوةٍ دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاءٍ دعا بها فيه».

وروى أبو داود، عن عبد الله بن السائب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول - ما بين الركنَيْنِ -: **(رَبَّنا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وقِنَا عَذَابَ النَّارِ)**»(٣).

وروى مسلم، في «صحيحه»، عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عادَ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٦).
(٢) تقدم تخريجه (ص٨٣٥).
(٣) «سنن أبي داود» رقم (١٨٩٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١/ ٥٢٨).

رجلًا مِنَ المسلمينَ قد خَفَتَ، فصار مِثْلَ الفَرْخِ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: **(هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟)**، قال: نَعَمْ، كنتُ أقولُ: اللَّهُمَّ، ما كُنْتَ معاقبي به في الآخرة، فعَجِّلْهُ لي في الدنيا، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **(سُبْحَانَ اللهِ، لا تُطِيقُه ـ أو لا تَسْتَطِيعُه ـ، أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)؟!** قال: فدعا اللهَ لَهُ فشفاه»[(١)].

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، أنَّ قومًا أَتَوْا أنسَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه لِيَدْعُوَ لهم، فقيل له: إنَّ إخوانَكَ أَتَوْكَ لِتَدْعُوَ اللهَ لهم، **قال:** «اللهُمَّ اغفِرْ لنا وارحَمْنَا، وآتِنَا في الدنيا حَسَنَةً، وفي الآخرةِ حَسَنَةً، وقنا عذابَ النارِ»، فاستزادُوهُ، فقال مثلَها، **فقال:** «إنْ أُوتِيتُمْ هذا، فقد أُوتِيتُمْ خيرَ الدنيا والآخرة»[(٢)].

* **ومِنْ دَعَواتِ المؤمنينَ المذكورةِ في القرآن:** ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وهذه الآيةُ حكايةٌ لدعاءِ فئةٍ مِنَ المؤمنين ـ وهم طَالُوتُ وجنودُهُ ـ في مَقَامِ المُوَاجَهَةِ لأعداءِ الله تعالى، وهم جالوتُ وجنوده، وكانوا مشركين بالله تعالى، وكان عددُهم يَفُوقُ عَدَدَ المؤمنينَ بكثير؛ ولهذا تَضَرَّعَ هؤلاءِ المؤمنون إلى الله تعالى يسألونَهُ أسبابَ النصرِ على المشركين في هذا القتال؛ كما أخبرَ الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ **أي:** لَمَّا واجَهَ حزبُ الإيمان ـ وهم قليلٌ مِنْ أصحاب طالوت ـ لعدوِّهم أصحابِ جالوت، وهم عددٌ كثيرٌ، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ **أي:** أَنْزِلْ واصْبُبْ علينا صبرًا مِنْ عندك، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ **أي:** قَوِّ قُلُوبَنا على جهادهم؛ لِتُثَبِّتَ

(١) تقدم تخريجه ص(٣٠٦).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٦٣٣)، وصحَّح إسناده الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٤٩٤).

أقدامَنا فلا ننهزم، والأقدامُ إنما تَثْبُتُ عندَ قُوَّةِ القلوب، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: اكتب النصرَ لنا عليهم.

وقد أجابهم اللهُ إلى ما سألوا، وأنالهم ما إليه فيه رَغِبُوا؛ ولهذا قال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غلبوهم وقهروهم بحولِ اللهِ لا بحولهم، وبقوةِ اللهِ ونَصْرِه، لا بِقُوَّتِهِمْ وعَدَدِهِمْ، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقد تَضمَّنَ هذا الدعاءُ كمالَ الاستعانةِ باللهِ، وتَمَامَ الالتجاءِ إليه في هذا الموقفِ العصيب.

وقد جاء في السُّنَّةِ من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقولُ إذا لَقِيَ العدوَّ: **(اللَّهُمَّ، بِكَ أَحُولُ، وبِكَ أَصُولُ، وبِكَ أُقَاتِلُ)**؛ رواه أحمد(١).

وهو تفويضٌ إلى اللهِ واعتمادٌ عليه، وهو سبحانه الذي بيده أَزِمَّةُ الأمورِ ومقاليدُ السمٰوات والأرض، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا به.

* * *

(١) تقدم تخريجه (ص٦٤٧).

٢٠٥

دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢)

* **إنَّ مِنْ دَعواتِ الرسولِ ﷺ وأهلِ الإيمانِ العظيمة**: ما ذَكَرَهُ تعالى في خواتيم «**سورة البقرة**»؛ قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة].

فهذا دعاءٌ عظيمٌ أخبرَ الله تعالى به عَنْ رسولِهِ محمَّد ﷺ، وعن عبادِهِ المؤمنينَ مِنْ أُمَّته، وأثنى تعالى عليهم بهذا الدعاءِ الذي سألوا فيه مصالحَ الدينِ والآخرة.

فقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾: إخبارٌ عن النبيِّ ﷺ، وهو شهادةٌ من اللهِ تعالى له عليه الصلاةُ والسلامُ بإيمانِهِ بما أُنْزِلَ إليه مِنْ ربه، وذلك يَتضمَّنُ إعطاءَهُ ثوابَ أكملِ أهلِ الإيمانِ، زيادةً على ثوابِ الرسالةِ والنبوَّة؛ لأنه ﷺ شارَكَ المؤمنين في الإيمان، ونالَ منه أعلى مراتبه، وامتازَ عنهم بالرسالةِ والنبوَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾: عطفٌ على: ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، وهو شهادةٌ للمؤمنين بأنهم آمنوا بما آمَنَ به رسولُهم ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾: شهادةٌ لهم جميعًا بالإيمانِ بالقواعدِ الخمسةِ التي لا يكونُ أحدٌ مؤمنًا إلَّا بها؛ **وهي**: الإيمانُ باللهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليوم الآخر.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾: حكايةٌ عن أهلِ الإيمانِ أنهم يقولون هذا؛ أي: إنهم لا يفرِّقون بين أحدٍ مِنْ رُسُلِ الله تعالى، فيؤمنونَ ببعضٍ، ويكفرونَ ببعضٍ، بل يؤمنونَ بجميعهم، وإن كان بعضُ الرسلِ يَنْسَخُ شريعةَ بعضٍ بإذنِ الله، حتى نُسِخَ الجميعُ بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ خاتَم الأنبياءِ والمرسلين، الذي تقومُ الساعةُ على شريعته، ولا تزالُ طائفةٌ من أمته على الحقِّ ظاهرين إلى قيامها، فباينوا بهذا الإيمانِ جميعَ طوائفِ الكُفَّارِ المكذِّبينَ لجنسِ الرسل، والمصدِّقين لبعضهم، المكذِّبين لبعض، والكفرُ بنبيٍّ واحدٍ كفرٌ بجميعِ النبيين.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾؛ أي: سمعنا قولَكَ ـ يا ربَّنا ـ وفهمناه وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه.

وهذا إقرارٌ منهم بِرُكْنَي الإيمانِ اللَّذَيْنِ لا يقومُ إلَّا بهما، **وهما: السمعُ**: المتضمِّنُ للقَبُولِ والتسليم، **والطاعةُ**: المتضمِّنةُ لكمالِ الانقيادِ وامتثالِ الأمر.

ثم قالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ لأنَّهم عَلِمُوا أنهم لن يُوَفُّوا مقامَ الإيمانِ حقَّه مع القَبُولِ والطاعةِ الذي يقتضيه منهم، وأنهم لا بدَّ أن تَمِيلَ بهم غَلَبَاتُ الطباعِ، ودواعي البشريةِ إلى بعضِ التقصيرِ في واجباتِ الإيمان، وأنه لا يَلُمُّ شَعَثَ ذلك إلَّا مغفرةُ اللهِ تعالى لهم، فسألوه غفرانَهُ الذي هو غايةُ سعادتهم، ونهايةُ كمالهم؛ فقالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، ثم اعترَفُوا أنَّ مصيرهم ومردَّهم إلى مولاهُمُ الحقِّ الذي لا بُدَّ لهم مِنَ الرجوعِ إليه؛ فقالوا: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فَتَضمَّنتْ هذه الكلماتُ إيمانَهم به، ودُخُولَهُمْ تحتَ طاعتِهِ وعبوديَّته، واعترافَهُمْ بربوبيَّته، واضطرارَهُمْ إلى مغفرته، واعترافَهُمْ بالتقصيرِ في حقِّه، وإقرارَهُمْ برجوعِهِمْ إلى يومِ الحساب.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾؛ أي: لا يكلِّفُ اللهُ أحدًا فوقَ طاقته، بل جميعُ ما كَلَّفَ عبادَهُ به أمرًا ونهيًا، فهم مطيقون له،

قادرون عليه؛ وهذا مِنْ لُطْفِهِ تعالى بخلقه، ورَأْفَتِهِ بهم، وإحسانِهِ إليهم.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾؛ أي: للنفسِ ما كسَبَتْ مِنْ خير، وعليها ما اكتَسَبَتْ مِنْ شر؛ وذلك في الأعمال التي تحت التكليف.

وفي هذا بيانُ أن ثمرةَ التكليفِ وغايتَهُ عائدةٌ على العباد، وأنه سبحانه يتعالى عن انتفاعِهِ بِكَسْبهم، وتَضرُّرِهِ باكتسابهم؛ كما في الحديث القدسي: **(يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، ولَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي)**[١]، بل لهم كَسْبُهم ونَفْعُهُ، وعليهم اكتسابُهُمْ وضَرَرُه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، فلم يَأْمُرْهم تعالى بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، بل رَحْمةً وإحسانًا وتَكَرُّمًا، ولم يَنْهَهُم عما نهاهم عنه إلَّا حَمْيَةً لهم، وحفظًا وصيانةً وعافيةً.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: إرشادٌ مِنَ اللهِ تعالى للمؤمنينَ إلى هذا الدعاء؛ وذلك أن ما كُلِّفَ به عبادُهُ عهودٌ ووصايا تجبُ مراعاتها، والمحافظةُ عليها، وعَدَمُ الإخلالِ بشيءٍ منها، لكنَّ غَلَبَاتِ الطباعِ البشريَّةِ تأبى إلَّا النسيانَ والخطأَ، والضعفَ والتقصيرَ، فكان في هذا الدعاءِ سؤالُ المؤمنين ربَّهم مسامحتَهُ إيَّاهم في ذلك كله، ورَفْعَ مُوجَبِهِ عنهم.

وفي الحديث عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قال: **(إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسْيَانَ ومَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ)**؛ رواه ابن ماجه[٢].

وهذا مِنْ عظيمِ مَنِّ اللهِ عز وجل وواسعِ فضلِهِ أنْ تجاوَزَ عن عبادِهِ ما وقَعَ منهم مِنْ قَبيلِ الخطأِ والنسيان، أو على سبيلِ الإكراه؛ فله الحمدُ على فضلِهِ وإحسانه، وله الشكرُ سبحانه على مَنِّهِ وإكرامه.

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (٢٠٤٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (١٦٧٧).

٢٠٦

دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٣)

نُكْمِلُ هنا ما بَقِيَ مِنْ كلامٍ على معاني الدعواتِ المباركةِ الواردةِ في خاتمة «**سورة البقرة**»، كما نتناولُ ذكرًا بعضِ الفضائلِ للآيتَيْنِ اللتَيْنِ خُتِمَتْ بهما السورة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ **أي**: لا تُكَلِّفْنا مِنَ الأعمالِ الشاقَّةِ وإنْ أطقناها، كما شَرَعْتَهُ للأممِ السابقةِ قبلنا مِنَ الأغلالِ والآصارِ التي كانتْ عليهم.

وهذا سؤالٌ للتخفيفِ في أمرِهِ تعالى ونهيه، وقد بُعث بذلك نبيُّنا محمدٌ ﷺ، كما وصَفَهُ ربُّه سبحانه في كتابه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ: (**إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفيَّةٍ سَمْحَةٍ**)؛ رواه أحمد، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[(١)].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾: سؤالٌ في القضاءِ والقدرِ، والمصائبِ والبلاءِ؛ **أي**: لا تَبْتَلِنا بما لا قِبَلَ لنا به؛ وذلك أنهم لَمَّا

(١) «مسند أحمد» (٦/ ١١٦)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٦/ ١٠٢٤).

علموا أنهم غيرُ منفكِّين عمَّا يأمرهم به وينهاهم عنه، سألوه التخفيفَ في قضائِهِ وقَدَرِهِ، كما سألوه التخفيفَ في أمرِهِ ونهيه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾؛ **أي**: اعْفُ عنا فيما بيننا وبينك مما تَعْلَمُهُ مِنْ تقصيرنا وزَلَلِنا، واغفرْ لنا فيما بيننا وبين عبادك، فلا تُظْهِرْهُمْ على مساوينا وأعمالنا القبيحة، وارْحَمْنَا فيما يُستَقْبَلُ؛ بأنْ لَا نقعَ في ذنوبٍ أُخَرَ؛ **ولهذا يقال**: إنَّ المذنبَ محتاجٌ إلى ثلاثةِ أشياء: أن يعفُوَ اللهُ عنه فيما بينه وبينه، وأن يَسْتُرَهُ عن عبادِهِ فلا يَفْضَحَهُ به بينهم، وأن يُسَلِّمَهُ فيما بَقِيَ، فلا يَقَعَ في نظيره.

وهذه الثلاثةُ التي تَضمَّنَهَا هذا الدعاءُ؛ **وهي**: العَفْوُ، والمغفرةُ، والرحمةُ، هي مدارُ سعادةِ العبدِ وفلاحُهُ، فالعفوُ: مُتضمِّنٌ لإسقاطِ حَقِّ اللهِ تعالى ومسامحتِهِمْ به، والمغفرةُ: متضمِّنةٌ لوقايتهم شَرَّ ذنوبهم وإقبالِهِ عليهم ورضاه عنهم، والرحمةُ: متضمِّنةٌ للأمرين، مع زيادةِ الإحسانِ والعطفِ والبِرّ، فالثلاثة تَتضمَّنُ النجاةَ مِنَ الشرِّ، والفوزَ بالخير.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ **أي**: أنتَ وليُّنا وناصرُنا، وعليك تَوَكُّلُنا، وأنت المستعان، ولا حولَ ولا قوةَ لنا إلَّا بك.

وهذا توسُّلٌ باعترافهم أنه سبحانه مولاهُمُ الحقُّ الذي لا مَوْلَىٰ لهم سواه؛ فهو ناصرهم، وهاديهم وكافيهم ومُعِينُهم، ومجيبُ دَعَوَاتِهِمْ ومعبودُهم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: دعاءٌ بالنصرِ على الأعداء؛ ويَتضمَّنُ ذلك قَهْرَهم لعدوِّهم، وشِفَاءَ صُدُورِهم منهم، وإذهابَ غيظِ قلوبهم، كما يَتضمَّنُ التمكُّنَ من إعلانِ عبادة ربِّهم، وإظهارِ دينِهِ، وإعلاءِ كلمته.

ثم إنَّ هذه الكلماتِ الواردةَ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ من آخر «**سورة البقرة**» هي مِنَ الأدعيةِ العظيمةِ التي خَصَّ اللهُ تعالى بها رسولَهُ محمَّدًا ﷺ وأُمَّتَهُ، كما في الحديث **عن عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، **قال**: «لَمَّا أُسْرِيَ برسولِ اللهِ ﷺ، انتُهِيَ

به إلى سِدْرَةِ المنتهى، وهي في السماءِ السادسةِ، إليها ينتهي ما يُعْرَجُ به مِنَ الأرضِ، فيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به مِنْ فوقها، فيُقْبَضُ منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، قال: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، قال: فأُعْطِيَ رسولُ اللهِ ﷺ ثلاثًا: أُعْطِيَ الصلواتِ الخمسَ، وأُعطِيَ خواتيمَ سُورَةِ البقرةِ، وغُفِرَ لِمَنْ لا يُشْرِكُ باللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا المُقْحِمَاتُ»؛ رواه مسلم(١).

وعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي)**؛ رواه أحمد(٢).

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: «بينما جبريلُ قاعدٌ عندَ النبيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فوقه، فرفَعَ رأسَهُ، فقال: **(هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ، وقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ)**»؛ رواه مسلم(٣).

وعن ابن عَبَّاس أيضًا رضي الله عنهما، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخلَ قلوبَهُمْ منها شيءٌ لم يَدْخُلْ قلوبَهُمْ مِنْ شيء، فقال النبيُّ ﷺ: **(قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا)**، قال: فأَلْقَى اللهُ الإيمانَ في قلوبهم، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: قد فَعَلْتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ قال: قد فَعَلْتُ»؛ رواه مسلم(٤)، ورَوَى نحوه مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه(٥).

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٧٣).
(٢) تقدم تخريجه (ص٥٣١).
(٣) تقدم تخريجه (ص٥٣٢).
(٤) «صحيح مسلم» رقم (١٢٦).
(٥) «صحيح مسلم» رقم (١٢٥).

وعن أبي مسعودٍ البَدْريِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ، كَفَتَاهُ)**؛ رواه البخاري ومسلم[(١)].

فهذا بعضُ ما ورَدَ في فضلِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ، وهو دالٌّ على عِظَمِ شأنهما، وجلالةِ قَدْرِهما، وعظيمِ مَنِّ اللهِ بهما على هذه الأُمَّةِ أُمَّةِ الإسلام، أُمَّةِ محمَّد ﷺ.

* * *

(١) تقدم تخريجه (ص٥٢٩).

٢٠٧

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ

(٤)

* **ومِنْ دَعَواتِ المؤمنينَ المذكورةِ في القرآن**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران].

وقد أخبرَ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ عَنِ الراسخينَ في العلم أنَّهم يَدْعُونَ ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني بذلك ـ جلَّ ثناؤه ـ: أنَّ الراسخين في العلمِ يقولون: آمَنَّا بما تشابَهَ مِنْ آيِ كتابِ الله، وأنه هو والمُحْكَمَ مِنْ آيِهِ مِنْ تنزيلِ ربِّنا ووَحْيِه، ويقولونَ أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾؛ يعني: أنهم يقولون ـ رغبةً منهم إلى ربِّهم في أن يَصْرِفَ عنهم ما ابْتَلَى به الذين زاغَتْ قلوبُهم مِنِ اتِّباعِ مُتَشَابِهِ آيِ القرآنِ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِه، الذي لا يَعْلَمُهُ غيرُ الله ـ: يا ربَّنا، لا تَجْعَلْنَا مثلَ هؤلاءِ الذين زاغَتْ قلوبُهُمْ عن الحق، فصَدُّوا عن سبيلك، ﴿لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا﴾: لا تُمِلْها فتَصْرِفَها عن هُداك، ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ له، فوَفَّقْنَا للإيمانِ بِمُحْكَم كتابِكَ ومتشابهِهِ، ﴿وَهَبۡ لَنَا﴾ يا ربَّنا ﴿مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾؛ **يعني**: مِنْ عِنْدِكَ رحمةً؛ **يعني بذلك**: هَبْ لنا مِنْ عندك توفيقًا وثباتًا للذي نحنُ عليه مِنَ الإقرارِ بِمُحْكَم كتابِكَ ومُتَشَابِهِهِ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾؛ **يعني**: إنك أنتَ المُعْطِي عبادَكَ التوفيقَ والسدادَ للثباتِ على دينِكَ، وتصديقِ

كتابك ورُسُلِك»[١]؛ وهي دعوةٌ عظيمةٌ مباركة.

وفي الحديثِ عن أم سَلَمَةَ أم المؤمنين ﵂: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُكْثِرُ في دعائِهِ أن يقولَ: **(اللَّهُمَّ، مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)**، قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَوَ إنَّ القلوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قال: **(نَعَمْ، مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ؛ فَإِنْ شَاءَ اللهُ ﷻ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ)**»؛ رواه أحمد[٢].

فنسأل الله ربَّنا أنْ لَا يُزيغَ قُلُوبَنَا بعدَ إذْ هدانا، ونسألُهُ أنْ يَهَبَ لنا من لدنه رحمةً؛ إنه هو الوهابُ.

وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص ﵄، أنه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: **(إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)**، ثم قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)**؛ رواه مسلم[٣].

وقولـه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾: حكايةٌ لِمَا يقولُهُ الراسخون في العلمِ، مَعَ دعائهِمُ السابقِ.

قال الإمام الطبري ﵀: «وهذا مِنَ الكلامِ الذي استغنى بذكرِ ما ذُكِرَ منه عما تُرِكَ ذِكْرُهُ؛ وذلك أنَّ معنى الكلام: ربَّنا إنك جامعُ الناسِ ليوم القيامة، فاغفرْ لنا يومئذٍ، واعْفُ عنَّا؛ فإنَّكَ لا تُخْلِفُ وَعْدَكَ أنَّ مَنْ آمَنَ بك، واتَّبَعَ رسولك، وعَمِلَ بالذي أَمَرْتَهُ به في كتابك: أنك غافِرُهُ يومئذٍ.

وإنما هذا مِنَ القومِ مسألةُ ربِّهم أن يُثَبِّتَهُمْ على ما هم عليه مِنْ حُسْنِ نُصْرَتِهِمْ[٤] بالإيمانِ باللهِ ورسوله، وما جاءهم به مِنْ تنزيله، حتى يَقْبِضَهم على أحسنِ أعمالهم وإيمانهم؛ فإنَّه إذا فعَلَ ذلك بهم، وجَبَ لهم

(١) «تفسير الطبري» (٥/٢٢٧ ـ ٢٢٨).
(٢) تقدم تخريجه (ص٧٩٤).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٥٤).
(٤) كذا في الأصل، ولعلها: حسن بصيرتهم.

الجَنَّةُ؛ لأنه قد وعَدَ مَنْ فعَلَ ذلك به مِنْ عبادِهِ أنه يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ؛ فالآيةُ وإنْ خرَجَتْ مخرجَ الخبرِ، فإنَّ تأويلَها مِنَ القومِ مسألةٌ ودعاءٌ ورغبةٌ إلى ربِّهم»(١).

وهذا المقامُ الذي عليه هؤلاءِ الراسخونَ في العلم مقامٌ رفيعٌ؛ يَدُلُّ على كمالِ دينهم، وحُسْنِ تعبُّدهم، وقُوّةِ صلتهم بربِّهم وخالقهم، وتمامِ التجائِهِمْ إليه، وتَذَلُّلِهم بين يديه، يرجون رَحْمَتَه، ويخافونَ عَذَابَه، ويسألونَهُ الثباتَ على دينِهِ القويم، وصراطِهِ المستقيم.

وقد انتَظَمَ هذا السياقُ الكريمُ ذِكْرَ جملةٍ مِنَ الخصالِ الطيبة، والصفاتِ الجميلة لهؤلاءِ؛ ثناءً مِنَ الله عليهم، وبيانًا لعظيم قَدْرِهم، ورفيعِ مقامهم.

قال العلامة عبد الرحمٰن بن سِعْدي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد أثنى اللهُ تعالى على الراسخين في العلم **بسبعِ صفاتٍ هي عنوانُ سعادة العبد:**

إحداها: العلمُ الذي هو الطريقُ الموصِلُ إلى الله، المبيِّنُ لأحكامِهِ وشرائعه.

الثانية: الرسوخُ في العلم، وهذا قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ العلم؛ فإنَّ الراسخَ في العلم يقتضي أنْ يكونَ عالمًا محقِّقًا، وعارفًا مدقِّقًا، قد عَلَّمَهُ اللهُ ظاهرَ العلمِ وباطنَه، فرسَخَ قَدَمُهُ في أسرارِ الشريعة، عِلْمًا وحالًا وعملًا.

الثالثة: أنه وَصَفَهُمْ بالإيمانِ بجميعِ كتابه، وردِّ لمتشابِهِهِ إلى مُحْكَمِه، بقوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

الرابعة: أنهم سألوا اللهَ العفوَ والعافيةَ مِمَّا ابْتُلِيَ به الزائغون المُنْحَرِفون.

الخامسة: اعترافُهُمْ بمِنَّةِ اللهِ عليهم بالهداية؛ وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

---

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

السادسة: أنهم - مع هذا - سَأَلُوهُ رحمتَهُ المتضمِّنةَ حصولَ كلِّ خير، واندفاعَ كلِّ شَرّ، وتوسَّلوا إليه باسمِهِ الوَهَّاب.

السابعة: أنه أخبَرَ عن إيمانِهِمْ وإيقانِهِمْ بيومِ القيامة، وخَوْفِهِمْ منه، وهذا هو الواجبُ للعَمَل، الرادعُ عن الزَّلَل»[(١)].

فقومٌ هذه حِلْيَتُهُمْ ونُعُوتُهم يَجْدُرُ بكلِّ مُوفَّقٍ أن يَحْرِصَ على التحلِّي بها، وأنْ يَدْعُوَ بهذه الدعواتِ المباركة، والسؤالاتِ العظيمة.

* * *

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص١٢٧).

٢٠٨

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٥)

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ العظيمةِ:** ما ذَكَرَهُ سبحانه في صفاتِ المتَّقين في قولـه: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

قال الحافظ ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معنى الآية:** «يصفُ تعالى عباده المتقين، الذين وَعَدَهُمُ الثوابَ الجزيل؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ **أي:** بك وبكتابِكَ وبرسولِكَ، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ **أي:** بإيمانِنَا بك وبما شَرَعْتَهُ لنا، فاغفِرْ لنا ذُنُوبَنا وتقصيرَنَا مِنْ أمرنا بفضلِكَ ورحمتِكَ، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾»[(١)].

وفي الآية دليلٌ على مشروعيَّةِ التوسُّلِ إلى اللهِ ﷻ بالإيمانِ والعملِ الصالح، وأنَّ ذلكَ وسيلةٌ عظيمةٌ إلى اللهِ ﷻ لِقَبُولِ الدعاءِ.

وقد نقل القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «تفسيره»، عن الحاكم، أنه قال:** «في الآيةِ دَلَالةٌ على أنه يجوزُ للداعي أن يَذْكُرَ طاعتَهُ وما تَقَرَّبَ به إلى الله، ثم يدعو».

قال القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويؤيِّدُهُ ما في «الصحيحين»[(٢)]، مِنْ حديثِ أصحابِ الغارِ، وتَوَسُّلِ كلٍّ منهم بصالحِ عمله، ثم تفريجِ الباري تعالى عنهم»[(٣)].

* **ومن دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورةِ في القرآن:** دعوةُ الحواريِّينَ أنصارِ الله وأنصارِ دِينِهِ؛ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧).
(٢) تقدم تخريجه ص(٣٢٢).
(٣) «تفسير القاسمي» (٤/ ٨٠٧ ـ ٨٠٨).

وهذا خبرٌ من اللهِ تعالى عن الحواريِّين، يَتضمَّنُ ذِكْرَ دعائِهم لربِّهم ﷻ بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

والحواريُّون: هم حواريُّو المسيحِ عيسى ابنِ مَرْيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم أنصارُهُ وصَفْوَتُهُ الذين أَخْلَصُوا في تصديقهم ونُصْرَتهم له.

وذِكْرُ اللهِ لدعوتهم في مَعْرِضِ الثناءِ عليهم، فيه تنويهٌ بها، وبيانٌ لعِظَمِ شأنها.

وقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾؛ **أي:** يا ربَّنا صَدَّقْنَا بكتابك الذي أنزلْتَهُ - وهو الإنجيلُ - وأقرَرْنَا به، وأنه حقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالمين، مشتملٌ على بيانِ الحقِّ، وهدايةِ الخَلْق، واتبعنا رسولَكَ الذي بَعَثْتَهُ - وهو عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وصِرْنَا أتباعَهُ على دِينِكَ الذي بَعَثْتَهُ به، وأعوانَهُ على الحقِّ الذي أرسلتَهُ به إلى عبادك. ذَكَرُوا ذلك بين يَدَيْ دعائهم وطَلَبهم، متوسِّلين به إلى ربِّهم في إجابة ما يطلبون، وتحقيق ما يَأْمُلون.

وقولهم: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ هذا هو المطلوبُ المَرْجُوُّ؛ **أي:** «فأَثْبِتْ أسماءنا مع أسماءِ الذين شَهِدُوا بالحق، وأَقَرُّوا لك بالتوحيد، وصَدَّقوا رُسُلَك، واتَّبَعُوا أَمْرَكَ ونَهْيَك، فاجْعَلْنَا في عِدَادِهِمْ ومعهم، فيما تُكْرِمُهُمْ من كرامتك، وأَحِلَّنا محلَّهم، ولا تَجْعَلْنا ممَّن كَفَرَ بك، وصَدَّ عن سبيلك، وخالَفَ أَمْرَكَ ونَهْيَك»(١)؛ واللهُ ﷻ ذَكَرَ ذلك عنهم ليتأسَّى بهم المؤمنون، ويقتديَ بهم الصالحون.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُعَرِّفُ خَلْقَهُ - جلَّ ثناؤه - بذلك سبيلَ الذين رَضِيَ أقوالَهم وأفعالَهم؛ لِيَحْتَذُوا طريقَهم، ويَتَّبِعُوا مِنْهَاجَهم، فيَصِلُوا إلى مثلِ الذي وَصَلُوا إليه مِنْ دَرَجاتِ كرامته»(٢).

---

(١)(٢) «تفسير الطبري» (٥/ ٤٤٥).

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمان**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران].

وفي هذه الآياتِ إشادةٌ بالمؤمنين الصادقين الصابرين مِنْ أتباعِ الأنبياءِ السابقين، وما كانوا عليه مِنَ القُوَّةِ والشجاعةِ والتحمُّلِ لِمَا يصيبُهُمْ مِنْ أنواعِ المِحَنِ والابتلاءاتِ في سبيلِ الله، مِنْ غيرِ وَهَنٍ في قلوبهم، ولا ضَعْفٍ في أبدانهم، ولا استكانةٍ لأعدائهم، بل صَبَرُوا وثَبَتُوا.

وما كان لهؤلاءِ المؤمنينَ فيما واجَهُوهُ مِنَ المواقفِ الصَّعْبةِ إلَّا اللجوءُ إلى ربِّهم، والتضرُّعُ إليه بالدعاءِ بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

فقولهم: ﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾، **معناه ـ كما يقول الإمام الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «اغفرْ لنا ذنوبَنا الصغارَ منها، وما أَسْرَفْنا فيه منها، فتَخَطَّيْنا إلى العِظَام، **وكأنَّ معنى الكلام**: اغفرْ لنا ذنوبَنَا: الصغائرَ منها والكبائرَ»[(١)].

وقولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، سبَقَ مثلُهُ في الكلامِ على دعوةِ طَالُوتَ وجُنُودِهِ في مواجهتهم لجالوتَ وجنوده، مِنْ «**سورة البقرة**»، وفي الكلامِ على الآيةِ الأخيرةِ مِنَ السورةِ نفسها.

والحاصلُ: أنَّ هؤلاءِ المؤمنين جَمَعُوا ـ في هذا الموقفِ ـ بين الصبرِ وتركِ الوَهنِ والضعفِ والاستكانةِ، والتوبةِ والاستغفارِ، والاستنصارِ بربِّهم،

---

(١) «تفسير الطبري» (٦/ ١٢٠).

الذي منه النصرُ يُسْتَمْنَحُ؛ فاستجابَ اللهُ لدعائهم، وجعَلَ لهم العاقبةَ الحميدةَ في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ مِنَ النصرِ والظَّفَرِ والتمكينِ في البلاد، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وهو النعيمُ المقيمُ في جَنَّةِ الخلد.

وكلُّ ذلك جزاءً لهم على إحسانهم في عبادة رَبِّهِمْ، وإحسانِهِمْ في معاملةِ خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

* * *

٢٠٩

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٦)

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ العظيمةِ**: ما ذَكَرَهُ اللهُ عَجَّلَ عن أُولِي الألبابِ مِنْ عبادِهِ؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران].

فهذه الآياتُ وَصْفٌ مِنَ اللهِ تعالى لِأُولِي الألبابِ مِنْ عباده، وهم ذوو العقولِ التَّامَّةِ الذكيَّةِ التي تُدْرِكُ الأشياءَ بحقائقها على جليَّاتها، وليسوا كالصُّمِّ البُكْمِ الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف]؛ ولهذا خَصَّ سبحانه أُولِي الألبابِ بالتفكُّرِ في الآياتِ الباهراتِ في خلقِ السمٰوات والأرض؛ أي: هذه في ارتفاعِهَا واتِّسَاعِها، وهذه في انخفاضِهَا وكثافَتِهَا واتِّضَاعِها، وما فيهما مِنَ العجائبِ المشاهَدَة، والدلائلِ الواضحةِ على عَظَمَةِ الخالقِ عَجَّلَ، وجلالِهِ وكمالِهِ، وكذلك ما في اختلافِ الليلِ والنهار؛ أي: تَعاقُبِهِمَا وتَقارُضِهِمَا الطولَ والقِصَرَ مِنْ آيةٍ عظيمةٍ على كمالِ المُبْدِعِ وعظيمِ اقتداره؛ لأنهم هم المنتفعون بهذه الآيات، الناظرون إليها بعقولهم، لا بأبصارهم فحَسْبُ؛ ولهذا فَهُمْ: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا

وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: لا يقطعون ذِكْرَهُ في جميعِ أحوالِهم، بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يفهمون ما فيهما مِنَ الحِكَمِ الدالَّةِ على عظمةِ الخالقِ وقُدْرَتِهِ، وعِلْمِهِ وحكمتِهِ، واختيارِهِ ورحمتِهِ، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾؛ أي: ما أَوْجَدتَ هذا الخَلْقَ عبثًا عاريًا عن الحكمة، خاليًا مِنَ المصلحة، بل خَلَقْتَهُ مُنْتَظِمًا لِحِكَمٍ جليلةٍ، ومصالحَ عظيمةٍ، للقيامِ بعبوديَّتِكَ، والخضوعِ لحُكْمِك، ولِتَجْزِيَ الذين أساؤُوا بما عملوا، وتَجْزِيَ الذين أحسنوا بالحسنى.

ثم نزَّهوا اللهَ تعالى، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهًا لك، وتعظيمًا لك من أنْ تَفْعَلَ شيئًا عَبَثًا، أو تَخْلُقَ شيئًا باطلًا، بل كلُّ ما فَعَلْتَهُ أو خلقتَهُ، فبالحقِّ، وللحقِّ، ومُشْتَمِلٌ على الحق.

ثم فَزِعُوا إلى ربِّهم بالدعاءِ قائلين: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يا مَنْ خلَقَ الخَلْقَ بالحَقِّ والعدلِ والحكمة، يا مَنْ هو منزَّهٌ عن العَبَثِ والعَيْبِ والنقائص، أَجِرْنا مِنْ عذابِ النارِ بحولِكَ وقُوَّتِكَ ورَحْمتك.

ثم أَتْبَعُوا ذلك بما يَدُلُّ على شِدَّةِ ذلك العذاب، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾؛ أي: أَهَنْتَهُ، وأَظْهَرْتَ فضيحتَهُ وخِزْيَهُ، وقولهم: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾: تذييلٌ لإظهارِ نهايةِ فَظَاعَةِ حالِ مَنْ دخَلَ النار، وأنه إنما دخَلَهَا لِظُلْمه، وأنه ليس له مِنْ ناصرٍ يَنْصُرُهُ، ويدفَعُ عنه عذابَ النار.

وقولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، هذا حكايةٌ من الله تعالى لدعاءٍ آخرَ لهم صُدِّرَ أيضًا بنداءِ الرَّبِّ لإظهارِ كمالِ الضَّراعةِ والرغبةِ إليه سبحانه، وقولهم: ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: إننا سمعنا داعيًا يدعو إلى الإيمان. **وأكثرُ المفسِّرين على أن المرادَ بالمنادي هنا**: الرسولُ ﷺ، **وقال بعضهم: المنادي هنا هو**: كتابُ اللهِ تعالى، **والقولان صحيحان**؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ دعا الناسَ بكتابِ الله تعالى.

وقولهم: ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾: تفسيرٌ للإيمانِ الذي يدعو إليه، وهو الإيمانُ بالله تعالى وبربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ وأسمائِهِ وصفاته.

وقولهم: ﴿فَـَٔامَنَّا﴾؛ أي: فامتثلنا أَمْرَهُ، وأَجَبْنا نداءَهُ، وسَارَعْنا إلى اتِّباعه.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: تَوَسُّلٌ منهم إلى اللهِ تبارَكَ وتعالى بإيمانهم به، أن يَغْفِرَ لهم ذُنُوبَهُمْ، ويُكَفِّرَ عنهم سَيِّئَاتِهِم، وأن يَقْبِضَهم إليه ـ إذا قَبَضَهُمْ ـ في عِدَادِ الأبرار، الذين بَرُّوا اللهَ تعالى بطاعتهم إياه، وامتثالِهِم أَمْرَهُ، حتى أَرْضَوْهُ فرَضِيَ عنهم.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، هذا دعاءٌ آخَرُ، وفيه تكرارٌ للنداء بـ «رَبَّنَا»؛ للتضرُّعِ والإلحاحِ، سائلينَ اللهَ أن يُنْجِزَ لهم ما وَعَدَهُمْ على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ؛ مِنَ النصرِ والظهورِ في الدنيا، ومِنَ الفوزِ بِرِضْوانِ اللهِ وجَنَّتِه في الآخرة، والنجاةِ مِنْ خزيِ يومِ القيامة، متوسِّلين إليه سبحانه بأنه لا يُخْلِفُ الميعادَ.

ثم أعقَبَ سبحانه ما حكاه مِنْ دَعَواتِ المؤمنين ذوي الألبابِ، ببيانِ استجابتِهِ لهم فيما دَعَوْهُ وسألوه؛ فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وعن الحَسَن رَحِمَهُ اللَّهُ، **قال:** «ما زالوا يقولون: رَبَّنا، رَبَّنا، حتى استجابَ لهم».

ولهذه الآياتِ التي وصَفَ اللهُ تعالى فيها دعاءَ أُولي الألبابِ، وتَضَرُّعَهم إلى ربِّهم: شأنٌ عظيمٌ، ينبغي لكلِّ مؤمنٍ تِلاوَتُها وتَدَبُّرُها ودعاءُ اللهِ تعالى بها.

وقد ثبَتَ في الحديث أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقرأُ هذه الآياتِ إذا قامَ من الليلِ وهو ينظُرُ إلى السماء؛ كما في «الصحيحين»، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «بِتُّ عِنْدَ خالتي مَيْمُونَةَ، فتَحَدَّثَ رسولُ اللهِ ﷺ مَعَ أهلِهِ ساعةً، ثم رقَدَ،

فلمَّا كان ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ، قعَدَ، فنَظَرَ إلى السَّمَاءِ، فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ثم قام، فتَوَضَّأَ واسْتَنَّ، فصَلَّى إحدى عَشْرةَ رَكْعَةً»، وفي روايةٍ: «ثم قرَأَ الآياتِ العَشْرَ الأواخِرَ مِنْ آلِ عِمْرانَ، حتى خَتَمَ»(١).

ثم إنَّ في ذكرِ الرَّبِّ ﷻ لحالِ أُولِي الألبابِ، وتعبُّدِهم، وكمالِ تَذَلُّلِهم، وذِكْرِهِ لدعواتِهِمُ العظيمة، وإجابتِهِ لهم، حثًّا للعبادِ على التأسِّي بِفِعَالِهِمْ، والتحلِّي بِخِصَالِهِمْ، والدعاءِ بِدَعَوَاتهم، التي هي مَحَلُّ ثناءِ الربِّ وإجابتِه، وباللهِ وَحْدَهُ التوفيق.

* * *

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٥٦٩ و٤٥٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٦٣).

٢١٠

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ
(٧)

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ الواردةِ في القرآن**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

يحكي اللهُ تعالى في هذه الآيةِ دُعَاءَ المؤمنينَ المُسْتَضْعَفِينَ، الذين كانوا بمكةَ تَحْتَ إذلالِ كُفَّارِ قريش، وذلك قبلَ فتحِ مَكَّةَ، فهؤلاءِ المستضعَفُونَ من المؤمنين سألوا ربَّهم ﷻ أن يُنْجِيَهُمْ مِنْ فتنةِ مَنْ قد استَضْعَفَهم مِنَ المشركين، وأنْ يَجْعَلَ لهم وليًّا مِنْ عنده سبحانه يستنقذُهم، ونصيرًا يَمْنَعُهم من ظلمِ الظالمين، ويَنْصُرُهم على مَنْ ظلمهم مِنَ الكافرين، فاستجابَ اللهُ دعاءهم.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «فلمَّا فتَحَ رسولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ، جعَلَ اللهُ ﷻ النبيَّ ﷺ وليَّهم، واستَعْمَلَ عليهم رسولُ اللهِ ﷺ عَتَّابَ بنَ أَسِيد، فكان نصيرًا لهم، يُنْصِفُ الضعيفَ مِنَ القوي»(١).

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورةِ في القرآن**: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وهذا وَصْفٌ لِمَنْ آمَنَ بخاتَم النبيين محمَّد ﷺ من الذين قالوا: إنَّا نَصَارَى، وأنهم إذا سمعوا آياتِ القرآنِ فاضَتْ أَعْيُنُهم بالدمع؛ لمعرفتهم بأنَّ ما يُتْلَى عليهم حقٌّ مِنْ عند الله؛ ولهذا يسألون الله تعالى ويدعونه بقولهم:

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٤٥٢).

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ **أي**: إنهم يقولون: يا ربَّنا، صَدَّقْنا لَمَّا سَمِعْنَا ما أنزلْتَهُ إلى نبيِّك محمَّد ﷺ مِنْ كتابك، وأَقْرَرْنا به أنه مِنْ عندك، وأنه الحَقُّ لا شكَّ فيه، ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ **ومعنى الكتابةِ ـ هنا ـ أي**: الجَعْلُ؛ **أي**: فاجعَلْنَا مع الشاهدين، وأَثْبِتْنا معهم في عِدَادِهِمْ.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما **في قوله**: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، **قال**: «**أي**: مع محمَّد ﷺ وأُمَّتِه، هم الشاهدون يَشْهَدُونَ لنبيِّهم أنه قد بَلَّغَ، والرُّسُلِ أنهم قد بَلَّغُوا»[1].

وقد أجاب اللهُ تعالى دَعْوَتَهم، وحَقَّقَ رجاءَهم؛ قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥].

* **ومِنَ الدعواتِ المذكورةِ في القرآن**: دعوةُ التائبين مِنْ بني إسرائيلَ مما وَقَعُوا فيه مِنَ الشِّرْكِ بالله؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]؛ وهذه الآيةُ إخبارٌ عن الذين تابوا مِنْ بني إسرائيل بعدما عَبَدُوا العِجْلَ مِنْ دُونِ اللهِ تعالى.

فقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ **أي**: نَدِمُوا على ما فعلوا، والعَرَبُ تقول لكلِّ نادمٍ: قد سُقِطَ في يَدِهِ أو أُسْقِطَ، وقوله: ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾؛ **أي**: رَأَوْا أنهم قد حادوا عن قَصْدِ السبيل، وذهبوا عن دِينِ الله، وانحرفوا عن صراطِهِ المستقيم، وكَفَرُوا باللهِ العظيم، ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ **أي**: قالوا هذا الدعاءَ، تائبينَ إلى الله تعالى، منيبينَ إليه، فكان ذلك اعترافًا منهم بذنوبهم، والتجاءً إلى ربِّهم بأن يَرْحَمَهُمْ ويغفرَ لهم، وإلَّا كانوا مِنَ الخاسرين، وهكذا حالُ كلِّ مُذْنِبٍ، فإنه لولا رحمةُ الله تعالى ومغفرتُهُ له، لكان مِنَ الخاسرين في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال الأبوان

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/١٥٩).

مِنْ قبلُ ـ فيما سبَقَ بيانُهُ مِنْ دعاءِ آدمَ عليه السلام ـ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورة في القرآن:** ما ذكَرَهُ اللهُ في سياقِ ذكرِ تَوْبةِ السَّحَرَةِ وإيمانِهم بموسى عليه السلام؛ وذلك في قولِهِ سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف].

فهذا بيانٌ مِنَ اللهِ تعالى لحال الذين آمَنُوا بموسى عليه السلام مِنْ قوم فرعونَ بعد أن كانوا سَحَرَةً، وبعدَ أن تَوَعَّدَهُمْ فرعونُ لإيمانهم بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

فما كان مِنْ هؤلاءِ المؤمنين إلَّا أنْ جاهروا فرعونَ بالثباتِ على الإيمان، وأنَّ تَوَعُّدَهُ لهم لن يَرُدَّهُمْ عما هداهم اللهُ إليه مِنَ الإسلام، وما بَصَّرَهُمْ به من الهُدَىٰ، وقالوا لفرعونَ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ **أي:** قد تَحَقَّقْنَا أنا إليه راجعون، وعذابُهُ أشدُّ مِنْ عذابك، ونَكَالُهُ على ما تدعونا إليه مِنَ الكُفْرِ وما أَكْرَهْتَنا عليه مِنَ السِّحْرِ أعظمُ مِنْ نَكَالِك، فَلَنَصْبِرَنَّ اليومَ على عَذَابِكَ لِنَخْلُصَ مِنْ عذاب الله تعالى.

وبيَّنوا أنَّ فرعون إنما ينتقمُ منهم لإيمانهم بنبيِّ اللهِ موسى عليه السلام، واتِّبَاعِهِمْ له، وإلَّا فليس لهم ذنبٌ، فإنْ كان هذا ذنبًا يُعابُ عليه ويُعاقَبُ به، فهو ذَنْبُنا، وهو أعظمُ محاسننا؛ لأنه خيرُ الأعمال، وأعظمُ المناقب، فلا نَعْدِلُ عنه طلبًا لمرضاتك، ولسنا مبالين بتهديدك، ولا مكترثين بوعيدك؛ ولهذا قالوا: ـ كما حكى الله عنهم في موضع آخر ـ: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]؛ **أي:** لا نبالي بما تَوَعَّدتَنا به مِنْ تقطيعِ الأيدي والأرجلِ مِنْ خِلافٍ، والتصليبِ في جذوعِ النخلِ.

ثم توجَّهوا إلى اللهِ بالدعاء، وأعظموا الرغبةَ إليه بأن يُثَبِّتَهُمْ على دينه، وأنْ يُصَبِّرَهُمْ على ما ينالهم مِنْ أَذًى في سبيله؛ فقالوا:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ **أي**: أَفِضْ علينا صَبْرًا عظيمًا ـ كما يدل عليه التنكير ـ لأنَّ هذه محنةٌ عظيمةٌ تؤدِّي إلى ذَهَابِ النفسِ، ومعالجةِ الأذى والعذاب، فيُحْتَاجُ فيها مِنَ الصبرِ إلى شيءٍ كثيرٍ؛ لِيَثْبُتَ الفؤاد، ويطمئنَّ المؤمنُ على إيمانه، ويزولَ عنه الانزعاجُ الكثير، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾؛ **أي**: ثابتينَ على الإسلامِ، منقادين لِأَمْرِك، مُتَّبِعِينَ لرسولك.

وسبحانَ مَنْ هَدَى قلوبَ هؤلاءِ مِنَ الكُفْرِ الغليظ، والسِّحْرِ القبيح، والضلالِ المبين، إلى هذا الإيمانِ العظيم، والثباتِ القويم، والصِّدْقِ مَعَ الله، وكمالِ الإنابةِ إليه؛ سبحانَهُ وبِحَمْدِهِ لا نُحْصِي ثناءً عليه هو كما أثْنَى على نفسه، ونسألُه سبحانه الثبات على دِينِهِ، والعَفْوَ والعافيةَ في الدنيا والآخرة؛ إنه سبحانه سميعٌ مجيب.

* * *

٢١١

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِين

(٨)

* ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ العظيمةِ المذكورةِ في القرآن الكريم: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس].

حيثُ أخبَرَ سبحانه في هذه الآياتِ عن نبيِّه موسى عليه السلام أنه أَوْصى قَوْمَهُ بني إسرائيل بالتوكُّلِ على الله تعالى، في مواجهةِ أعدائهم فرعونَ وقومِهِ، وأنَّ قَوْمَ موسى المؤمنين قد امتَثَلُوا أمره، فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: به وَثِقْنا، وإليه فَوَّضْنا أَمْرَنا، وعليه وَحْدَهُ اعتَمَدْنا، ثم دَعَوْا ربَّهُمْ، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي معنى هذا الدعاءِ قولان للمفسِّرين:

* **فقيل:** المعنى: لا تُظْهِرْهم علينا، ولا تُسَلِّطْهم علينا، فيَظُنُّوا أنهم إنما سُلِّطُوا لأنَّهم على الحقِّ ونحنُ على الباطل؛ فيُفْتَنوا بذلك ويزدادوا طغيانًا وكفرًا.

* **وقيل:** المعنى: لا تُعَذِّبْنا بعذابٍ مِنْ عندك، ولا تُعَذِّبْنا بأيدي فرعونَ وقومه، فيقولوا: لو كانوا على الحقِّ لما عُذِّبُوا، ويَظُنُّوا أنهم خيرٌ منا، فيُفْتَنوا بذلك.

وقالوا تكملةَ دعائهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وخَلِّصْنا - يا ربَّنا - برحمتِكَ مِنْ أيدي الكافرين؛ لِنَسْلَمَ مِنْ شَرِّهم، ونقيمَ على ديننا؛ على وجه نَتمكَّنُ به مِنْ إقامةِ شرائعِهِ، وإظهارِهِ مِنْ غيرِ مُعَارِضٍ ولا منازع.

وأشار بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ في تقديم التوكُّلِ على الدعاءِ تنبيهًا على أنَّ الداعيَ ينبغي أنْ يَتوكَّلَ على اللهِ أولًا، لتُجَابَ دعوتُه(١)؛ ومِنْ هذا القبيلِ ما رواه مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقول: (**اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُون**)(٢).

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ العظيمةِ الواردةِ في القرآن**: دعاءُ أصحابِ الكَهْف؛ قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

وهذا إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى عن الفتيةِ أصحابِ الكهفِ الذين وَصَفَهُمُ اللهُ بقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف].

فهؤلاءِ فتيةٌ مؤمنون اتفقوا على الانحيازِ عَنْ قومهم الذين أَشْرَكُوا باللهِ تعالى، والتبرِّي منهم، والخروجِ مِنْ بينِ أَظْهُرِهم، والفِرارِ بدينهم منهم، وهو المشروعُ حالَ الفتنِ وظهورِ الشرور.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يُخْبِرُ تعالى عن أولئكَ الفتيةِ الذين فَرُّوا

---

(١) **انظر**: «تفسير القاسمي» (٩/ ٣٣٨٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧١٧)، ورواه البخاري (٧٣٨٣) مختصرًا.

بدينهم مِنْ قومهم؛ لئلَّا يفتنوهم عنه، فهَرَبُوا منهم، فلجؤوا إلى غارٍ في جبلٍ؛ ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دَخَلُوا سائلين مِنَ الله تعالى رحمتَهُ ولُطْفَهُ بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: هَبْ لنا مِنْ عندك رحمةً تَرْحَمُنا بها، وتَسْتُرُنا عن قومنا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾؛ أي: اجعَلْ عاقبتَنا رَشَدًا؛ كما جاء في الحديث: (**وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ، فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا**)[1]، وفي «المسند»[2]، من حديث بُسْر بن أبي أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: (**اللَّهُمَّ، أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ**)»[3].

والحاصلُ: أنَّ هؤلاءِ الفتيةَ المؤمنين جَمَعُوا بين السعيِ في الخيرِ، والفرارِ مِنَ الفتنةِ إلى مكانٍ يُمْكِنُ الاستخفاءُ فيه، وبين تَضَرُّعهم وسؤالِهم لله تعالى تيسيرَ أمورهم، وعَدَمَ اتكالهم على أنفسهم وعلى الخَلْق؛ فلذلك استجابَ اللهُ تعالى دعاءَهم، وقَيَّضَ لهم ما لم يكنْ في حسابهم.

قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]؛ أي: ألقينا عليهم النَّوْمَ حين دَخَلُوا الكهفَ، فناموا سنينَ كثيرةً، ومنعنا نفوذَ الأصواتِ إلى مسامعهم؛ فإنَّ النائمَ إذا سَمِعَ الصوتَ ينتبه؛ وفي هذا النومِ المذكورِ حِفْظٌ لقلوبهم مِنَ الاضطرابِ والخوف، وحِفْظٌ لهم مِنْ قومهم، وليكونَ آيةً بيِّنةً للمُعْتَبِرين.

* **ومِنْ دَعَواتِ أهل الإيمان**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وهذا كلامٌ يقولُهُ الله تعالى يومَ القيامةِ لأهلِ النار تذكيرًا لهم بحالِ المؤمنينَ في الدنيا، الذين كان الكُفَّارُ أهلُ النارِ يستهزئون بهم، ويَضْحَكُونَ منهم.

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٤٩٨).
(٢) «مسند أحمد» (٤/ ١٨١)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٩٠٧).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

فبيَّن تعالى مِنْ حالِ عبادِهِ المؤمنين أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: «فجمعوا بينَ الإيمانِ المقتضي لأعمالِهِ الصالحة، والدعاءِ لربِّهم بالمغفرةِ والرحمة، والتوسُّلِ إليه بربوبيَّتِهِ ومِنَّتِهِ عليهم بالإيمان، وبالإخبارِ بِسَعَةِ رحمتِهِ وعمومِ إحسانه، وفي ضِمْنِهِ ما يَدُلُّ على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارِهم لربِّهم، وخَوْفِهِمْ ورجائهم؛ فهؤلاءِ ساداتُ الناسِ وفضلاؤهم»[١].

جَعَلَنا الله منهم بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ، وأَلْحَقَنا بالصالحين مِنْ عباده، وهدانا سبيلَهُ القويم، وصراطَهُ المستقيم؛ إنه سميعٌ مجيب.

* * *

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٥٥).

٢١٢

مِنْ دَعَواتِ الْمُؤْمِنِينَ (٩)

* **ومِنْ دَعَواتِ المؤمنينَ العظيمةِ الواردِ ذكرُها في القرآنِ الكريم:** ما جاء في ضمنِ سياقِ عَدِّ صفاتِ عِبادِ الرحمٰنِ في أواخرِ سورةِ الفُرْقان، الذين استحقُّوا هذه الإضافةَ التشريفيَّةَ إلى اللهِ ﷻ؛ لِمَا قاموا به مِنَ العبوديَّة التامَّةِ الخالصةِ لربِّهم سبحانه وتعالى، وقد صَدَّرَ صفاتِهم سبحانه بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ فأضافهم لنفسِهِ؛ تعليةً لشأنهم، وتشريفًا لِقَدْرهم، وذكَرَ سبحانه مِنْ جملةِ صفاتِهِمُ الحميدة، ونعوتِهِمُ الرشيدة، الدعاءَ، وحُسْنَ الالتجاءِ إلى الله ﷻ.

فقال تعالى في وَصْفهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥ ـ ٦٦]؛ وهذه دعوةٌ مباركةٌ حَكَاها اللهُ عنهم في جملةِ صفاتهم الكريمة.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾؛ **أي:** ادْفَعْهُ عَنَّا بالوقايةِ مِنْ أسبابِهِ في الدنيا، ومغفرةِ ما وقَعَ منا مما هو مُقْتَضٍ له يَوْمَ القيامة.

وهذا يَدُلُّ على أنهم ـ مع طاعتهم لربِّهم ﷻ ـ مُشْفِقُونَ وَجِلُونَ مِنْ عذابِهِ؛ كما قال الله تعالى في وَصْفِ المؤمنين الكُمَّل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ **أي:** يقدِّمون ما يقدِّمون مِنَ الطاعات وهم مُشْفِقُونَ مِنْ عذابِ الله، خائفونَ مِنْ عقابه؛ كما ثَبَتَ تفسيرُ الآيةِ بذلك عَنْ رسولِ الله ﷺ.

روى الإمام أحمد في «مسنده»، عن أم المؤمنين عائشةَ ﵂، أنها قالت: «يا رسولَ اللهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أهو الرَّجُلُ يَزْنِي،

ويَشْرَبُ الخمرَ؟ قال: (**لَا يا بِنْتَ أبي بَكْرٍ، أَوْ لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**)(١).

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ المؤمنَ جمَعَ إحسانًا وشَفَقةً، وإنَّ المنافقَ جمَعَ إساءةً وأمنًا»(٢).

وقولهم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ **أي**: لازمًا دائمًا غيرَ مُفَارِق.

وقولهم: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ **أي**: بئسَ المنزلُ مَنْظَرًا، وبئسَ المَقِيلُ مُقَامًا.

«وهذا منهم على وَجْهِ التضرُّعِ لربِّهم، وبيانِ شِدَّةِ حاجتهم إليه، وأنَّهم ليس في طاقتهم احتمالُ هذا العذاب، وليتذكَّروا مِنَّةَ اللهِ عليهم؛ فإنَّ صَرْفَ الشِّدَّةِ بِحَسَبِ شِدَّتها وفظاعتها يَعْظُمُ وَقْعُها، ويشتدُّ الفَرَحُ بِصَرْفها»(٣).

* **ومِنْ دَعَواتِ عبادِ الرحمٰن**: ما جاء في ضِمْنِ أوصافهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقولهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ **أي**: ارْزُقْنا أزواجًا وأولادًا تَقَرُّ بهم أعيننا.

وعن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال**: «يَعْنُونَ: مَنْ يَعْمَلُ لك بالطاعةِ، فَتَقَرُّ بهم أَعْيُنُنا في الدنيا والآخرة».

وعن محمَّد بن كَعْب القُرَظِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، **قال**: «ليس شيءٌ أَقَرَّ لعينِ المؤمنِ من أنْ يَرَى أهلَهُ ووَلَدَهُ أتقياءَ بَرَرَةً».

وعن ابن زَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ، **قال**: «يسألونَ اللهَ لأزواجهم وذُرِّيَّاتِهِمْ أن يَهْدِيَهم للإسلام»(٤).

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٧٤). (٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).

(٣) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٨٦).

(٤) **انظر هذه الآثار في**: «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٢٩ ـ ٥٣١)، و«تفسير أبي المظفَّر السمعاني» (٤/ ٣٦).

وقال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا كما أنه دُعَاءٌ لأزواجهم وذُرِّيَّاتِهم في صلاحهم؛ فإنَّه دعاءٌ لأنفسهم؛ لأنَّ نفعَهُ يعودُ عليهم؛ ولهذا جَعَلُوا ذلك هبةً لهم، فقالوا: ﴿هَبۡ لَنَا﴾، بل دعاؤُهُمْ يعودُ إلى نفعِ عمومِ المسلمين؛ لأنَّ بصلاحِ مَنْ ذُكِرَ يكونُ سببًا لصلاحِ كثيرٍ ممَّن يتعلَّق بهم وينتفعُ بهم»[(١)].

وقولهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، **قال ابن عَبَّاس** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أئمة هُدًى ليُهْتَدَى بنا، ولا تَجْعَلْنَا أئمةَ ضلالةٍ؛ لأنه قال لأهلِ السعادة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ولأهلِ الشقاوة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ [القصص: ٤١]»[(٢)].

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «قَادَةً في الخيرِ، ودُعَاةً وهداةً يُؤْتَمُّ بنا في الخير»[(٣)].

والخلاصةُ: أنَّ عبادَ الرحمٰنِ دَعَوُا اللهَ تعالى أنْ يُوصِلَهُمْ إلى درجةِ الإمامةِ في الدين، وأن يكونوا قُدْوةً للمتقينَ في أقوالهم وأفعالهم، يُقْتَدَى بأفعالهم، ويُطْمَأَنُّ لأقوالهم، ويسيرُ أهلُ الخيرِ خَلْفَهم، فَيَهْدُونَ ويهتدون.

قال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللهُ: «ومِنَ المعلومِ أنَّ الدعاءَ ببلوغِ شيءٍ دعاءٌ بما لا يَتِمُّ إلَّا به، وهذه الدرجةُ - درجةُ الإمامةِ في الدين - لا تتمُّ إلَّا بالصبرِ واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فهذا الدعاءُ يستلزمُ من الأعمالِ، والصبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيتِهِ، وأقدارِهِ المُؤْلِمة، ومِنَ العلمِ التامِّ الذي يُوصِلُ صاحبَهُ إلى درجةِ اليقين، خيرًا كثيرًا، وعطاءً جزيلًا، وأنْ يكونوا في أعلى ما يُمْكِنُ من درجاتِ الخَلْقِ بعدَ الرسل»[(٤)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «**فالحاصلُ**: أنهم سألوا ربَّهم أن يكونوا كاملين مكمِّلين لغيرِهم، هادين مهتدين؛ وهذه أعلى الحالات»[(٥)].

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٨٨).
(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٢).
(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٥).
(٤) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٨٨).
(٥) «المواهب الربانية، من الآيات القرآنية» (ص٣٣).

وقد ختَمَ اللهُ تعالى ما ذَكَرَهُ عن عباد الرحمٰنِ مِنَ الأوصافِ الكريمة، والدعاءِ العظيم بقولِهِ سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان].

فبيَّن تعالى جزاءَهُ لهم على هِمَمِهِمُ العالية، ومَطَالِبِهِمُ النبيلة، وحُسْنِ سؤالهم، وكمالِ تَذَلُّلِهم وافتقارِهم، بأنَّ لهم الجَنَّةَ يُبْتَدَرُونَ فيها بالتحيةِ والإكرام، ويَلْقَوْنَ التوقيرَ والاحترام، فلهم السلامُ وعليهم السلام، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد]، جَعَلَنَا الله منهم بِمَنِّهِ وكَرَمه.

* * *

٢١٣

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ

(١٠)

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورةِ في القرآن**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف].

ففي هذه الآيةِ الكريمةِ يذكُرُ اللهُ تعالى وصيَّتَهُ للإنسانِ بِبِرِّ والديه؛ لِمَا تحمَّلاه مِنَ المتاعب في حَمْلِهِ وولادته، وأنَّ مَنْ كان مؤمنًا صالحًا من الأولاد، فإنه يتذكَّر نِعْمةَ ربِّه عليه وعلى والدَيْهِ، فيدعو اللهَ تعالى ويسألُهُ، فيقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

فقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾؛ أي: أَلْهِمْني ووَفِّقْني.

وقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾؛ أي: نِعَمَ الدِّينِ ونِعَمَ الدنيا، وشُكْرُهَا بِصَرْفِها في طاعةِ الله، والاجتهادِ في الثناءِ على الله، وحَمْدِهِ.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾؛ أي: والنِّعَمَ التي أنعَمْتَ بها على والديَّ مِنْ قبلي، والنِّعَمُ على الوالدَيْنِ نِعَمٌ على أولادهم؛ لأنهم لا بدَّ أنْ يَنالَهم منها ومِنْ أسبابها وآثارها، خصوصًا نِعَمُ الدِّين؛ فإنَّ صلاحَ الوالدَيْنِ بالعلمِ والعملِ مِنْ أعظمِ الأسبابِ لصلاحِ أولادهم.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ أي: وأَلْهِمْنِي أنْ أَعْمَلَ صالحًا ترضاه

في المستقبل؛ وذلك بأنْ يكونَ جامعًا لِمَا يُصْلِحُهُ، سَالِمًا مما يُفْسِدُه؛ فهذا العملُ الذي يرضاه اللهُ ويقبله، ويُثِيبُ عليه.

وقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾: دعاءٌ لِذُرِّيته بالصلاح بعدما دعا لنفسه، وذكَرَ أنَّ صلاحَ الذريَّة يعودُ نفعُهُ على والديهم؛ لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي﴾.

وقوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تُبْتُ مِنْ ذنوبي التي سَلَفَتْ مني في سالفِ أيَّامي، ورَجَعْتُ إلى طاعتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مِنَ المستسلمينَ لِأَمْرِك ونهيك، المنقادِينَ لِحُكْمك.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين هذه الصفةُ صِفَتُهم، هم الذين نَتَقَبَّلُ عنهم أحسَنَ ما عَمِلُوا في الدنيا ـ وهو الطاعاتُ؛ لأنهم عَمِلُوا غيرَهَا أيضًا ـ ونصفحُ عن سَيِّئاتِ أعمالهم التي عَمِلُوهَا في الدنيا، فنفعلُ ذلك بهم فِعْلَنَا مِثْلَ ذلك في أصحابِ الجَنَّة، الذين هم أَهْلُها، فحصَلَ لهم الخيرُ والمحبوب، وزال عنهم الشَّرُّ والمكروه، وهذا هو الوعدُ الصادقُ الذي وعدناهم، واللهُ لا يُخْلِفُ الميعاد.

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورةِ في القرآن**: ما نَعَتَ اللهُ به مَنْ جاءَ بعدَ الصحابةِ مِنَ التابعينَ وأتباعهم بإحسانٍ إلى يوم القيامةِ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

قال أهلُ العلم: إن هذه الآيةَ نزلَتْ في التابعين ـ الذين أَتَوْا بعدَ أصحابِ رسولِ الله ﷺ ـ وكلِّ مَنْ دخلَ في الإسلامِ إلى يومِ القيامة.

فعن ابن أبي لَيْلَى رَحِمَهُ اللهُ، **قال**: «الناسُ على ثلاثةِ منازلَ: المهاجرون، والذين تَبَوَّؤُوا الدارَ والإيمان (الأنصار)، والذين مِنْ بعدهم، فاجتَهِدْ أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ هذه المنازل».

وعن مُصْعَب بن سَعْد رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «الناسُ على ثلاثة منازلَ، فمضَتْ منزلتان، وبَقِيَتْ منزلةٌ، فأَحْسَنُ ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلةِ التي بقيت»(١).

والمقصودُ: أنَّ الله تعالى وصَفَ المؤمنين الذين جاؤوا بعد المهاجرين والأنصار بأنهم يَدْعُونَ للسابقين مَعَ أَنْفُسِهِمْ، فيقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فجَمَعُوا في هذه الدعوةِ بين سَلَامةِ القلوب، وسلامةِ الأَلْسُن؛ فليسَ في القلوبِ غِلٌّ ولا حِقْدٌ ولا ضغينةٌ، وليس في الأَلْسُنِ شَتْمٌ ولا ثَلْبٌ ولا وقيعةٌ، بل في القلوبِ المَحَبَّةُ الصادقةُ والإخاء، وفي الأَلْسُنِ الذِّكْرُ الحَسَنُ والدعاء، وهذا مِنْ أبينِ دلائلِ الإيمانِ الصادق، والوفاءِ لأهلِ الفضلِ والسَّبْقِ والإحسان.

قال أبو المظفَّر السَّمْعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الآيةِ دليلٌ على أن الترحُّمَ للسلفِ، والدعاءَ لهم بالخير، وتَرْكَ ذِكْرِهم بالسوءِ مِنْ علامةِ المؤمنين. ورُوِيَ أنَّ رجلًا جاء إلى مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجعَلَ يَقَعُ في جماعةٍ مِنَ الصحابة؛ مثل: أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فقال له: أنت مِنَ الفقراءِ المهاجرين الذين أُخرِجُوا مِنْ ديارهم وأموالهم؟ قال: لا، قال: أنت مِنَ الذين تَبَوَّؤُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قبلهم؟ قال: لا، فقال: أَشْهَدُ أنك لستَ مِنَ الذينَ: ﴿جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾»(٢).

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمان**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

---

(١) ذكرهما القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢١).

(٢) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٥/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

جاء عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما **في تفسيره هذه الآية، قال:** «ليس أحدٌ مِنَ الموحِّدين إلَّا يُعْطَى نُورًا يومَ القيامة، فأمَّا المنافقُ، فيُطْفَأُ نُورُه، والمؤمنُ يُشْفِقُ ممَّا يَرَى مِنْ إطفاءِ نُورِ المنافق؛ فهو يقول: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾»(١).

فهذا دعاءُ المؤمنينَ يومَ القيامةِ، يسألونَ اللهَ تعالى أنْ يُتْمِمَ لهم نُورَهُمْ، ويُبَلِّغَهم به الجَنَّةَ، وقد قال الله تعالى ـ في آية أخرى ـ: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يُؤْتَوْنَ نُورَهُمْ على قَدْرِ أعمالهم؛ فمنهم مَنْ نُورُهُ مثلُ الجَبَل، وأدناهم نُورًا: مَنْ نُورُهُ على إبهامه، يُطْفَأُ مرةً ويَقِدُ أخرى»(٢).

وبدعاءِ المؤمنينَ بإتمامِ النورِ لهم يَوْمَ القيامةِ، تَمَّ المرادُ جَمْعُهُ مِنْ أدعيةِ المؤمنينَ المذكورةِ في القرآنِ الكريم.

❊ ❊ ❊

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٢٢٨).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٧٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، فتعقَّبه الذهبي بقوله: «على شرط البخاري».

٢١٤

دُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام

إنَّ مِنَ الدَّعَواتِ العظيمةِ المذكورةِ في القرآن الكريم: دعاءَ الملائكةِ من حَمَلَةِ العَرْشِ ومَنْ حَوْلَهُ للمؤمنينَ بالمغفرةِ والرحمة، ودخولِ الجَنَّة، والنجاةِ من النار.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر].

في هذه الآيات يُخْبِرُ اللهُ تعالى عن ملائكتِهِ الكرام الذين يَحْمِلُونَ عَرْشَهُ المجيد، والذينَ حَوْلَ العرش، أنهم يُمَجِّدونه تعالى، ويُنَزِّهُونه، ويُثْنُونَ عليه بالتسبيحِ والتحميد، وأنَّهم يؤمنون به، فيُقِرُّونَ له بالتوحيد، ويَذِلُّونَ بين يديه، ولا يستكبرون عن عبادته، وأنهم يَدْعُونَ للمؤمنين مِنْ أهلِ الأرضِ الذين أَقَرُّوا بمثل إقرارِهِمْ مِنْ توحيدِ الله، والبراءةِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، فيستغفرون لهم، ويسألون اللهَ أن يُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ هم والصالحينَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم، وأن يَقِيَهُمُ اللهُ سُوءَ عاقبةِ سَيِّئاتهم التي أَتَوْها، وأن يَتَغَمَّدَهُمْ برحمته؛ وذلك هو الفوزُ العظيم.

ودعاءُ الملائكةِ هذا للمؤمنين هو مِنْ جُمْلةِ فوائدِ الإيمان وفضائلِهِ وثمارِهِ الكثيرة؛ حيثُ قَيَّضَ اللهُ سبحانه ملائكتَهُ المقرَّبين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهرِ الغيب؛ فالمؤمنُ بإيمانِهِ تَسبَّبَ لهذا الفضلِ العظيم.

وفي الآياتِ دَلَالَةٌ واضحةٌ على أنَّ رابطةَ الإيمانِ أعظمُ الروابطِ وأَوْثَقُها،

بل هي الرابطةُ الحقيقيَّةُ التي لا تَنْفَصِمُ، والوِشَاحُ المُحْكَمُ الذي لا يَنْثَلِم.

قال العلامة محمَّد الأمين الشِّنْقيطي رحمه الله **مبيِّنًا دَلَالَةَ هذا السياقِ الكريم على ذلك:** «فقد أشار تعالى إلى أنَّ الرابطةَ التي ربَطَتْ بين حَمَلَةِ العرشِ ومَنْ حوله وبين بني آدَمَ في الأرضِ حتى دَعَوُا اللهَ لهم هذا الدعاءَ الصالحَ العظيم، إنَّما هي الإيمانُ بالله جَلَّ وعلا؛ لأنه قال عن الملائكة: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ فوصفهم بالإيمان، وقال عن بني آدمَ في استغفارِ الملائكةِ لهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ فوصفهم أيضًا بالإيمان؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ الرابطةَ بينهم هي الإيمانُ، وهو أعظمُ رابطة... **إلى أن قال: وبالجملةِ:** فلا خلافَ بين المسلمين أنَّ الرابطةَ التي تَرْبِطُ أفرادَ أهلِ الأرض بَعْضَهُمْ ببعضٍ، وتربطُ بين أهلِ الأرضِ والسماء هي رابطةُ **لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ**»[١].اهـ.

وهذا يَدُلُّ على عظيمِ فضلِ الإيمان، وكِبَرِ أَثَرِهِ على أهله، وعِظَمِ كرامةِ المؤمنِ عندَ ربِّه؛ **كما قال سُلَيْمُ بن عيسى** رحمه الله: «ما أكرَمَ المؤمنَ على اللهِ نائمًا على فراشِهِ والملائكةُ يستغفرون له!»[٢]، وليس الذي يدعو له الملائكةُ فقطْ، بل دعا له كذلك أنبياءُ اللهِ والصالحونَ مِنْ عباده.

روى أبو نُعَيْم في «الحِلْية»، **عن يحيى بن عُمَرَ بن راشد التَّيْمي، قال:** «كنتُ أطلُبُ العَرَضَ[٣]، فأنفَقْتُ ما كان معي، وأتاني سُفْيانُ بن عُيَيْنَةَ حين بَلَغَهُ خبري، فقال لي: لا تَأْسَ على ما فاتك، واعلَمْ أنك لو رُزِقْتَ لأتاك، ثم قال لي: أَبْشِرْ؛ فإنَّكَ على خيرٍ، أتدري مَنْ دعا لك؟ قلت: ومَنْ دعا لي؟ قال: دعا لك حَمَلَةُ العرشِ، قلتُ: دعا لي حَمَلَةُ العرش! قال: نَعَمْ، ودعا لك نُوحٌ عليه السلام، قلت: ودعا لي نُوحٌ عليه السلام! قال: نَعَمْ، ودعا لك إبراهيمُ عليه السلام، قلتُ: ودعا لي إبراهيمُ عليه السلام! قال: نَعَمْ، ودعا لك محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، قلتُ: أين دعَوْا لي؟ قال: أَمَا سمعتَ قوله تعالى:

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٩٣).
(٣) أي: التجارة والرزق.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . .﴾، الآيَةَ، قلتُ: وأين دعا لي نُوحٌ عليه السلام؟ قال: أَمَا سمعتَ قولَهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]، قلتُ: وأين دعا لي إبراهيمُ عليه السلام؟ قال: أَمَا سمعتَ قولَ الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾، قلتُ: فأين دعا لي محمَّدٌ ﷺ؟ قال: فهَزَّ رأسه، ثم قال: أَمَا سمعتَ قولَهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]، فكان أَطْوَعَ للهِ، وأرأَفَ بنا[(١)]، وأرحمَ أن يَأْمُرَهُ اللهُ بشيءٍ ثُمَّ لا يفعلُهُ»[(٢)].

وأمَّا دعوةُ المؤمنين، فقد مَرَّ معنا قريبًا الكلامُ على دَعْوَتِهِمْ عندَ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآية [الحشر: ١٠].

ثم إنَّ هذه الدعوةَ مِنَ الملائكةِ تَضمَّنتْ مِنْ كمالِ الأدبِ في الدعاءِ، وحُسْنِ السؤالِ، ومحبَّةِ الخيرِ لعبادِ اللهِ المؤمنينَ شيئًا عظيمًا.

وفي هذا يقول العلامة ابن سِعْدي رحمه الله: «وقد تَضمَّنَ هذا الدعاءُ مِن الملائكةِ كمالَ معرفتهم بربِّهم، والتوسُّلَ إلى اللهِ بأسمائِهِ الحسنى التي يُحِبُّ مِنْ عبادِهِ التوسُّلَ بها إليه، والدعاءَ بما يناسبُ ما دَعَوُا اللهَ فيه، فلمَّا كان دعاؤهم بحصولِ الرحمةِ، وإزالةِ أثرِ ما اقتضتْهُ النفوسُ البشريَّةُ التي عَلِمَ اللهُ نَقْصَها واقتضاءها لِمَا اقتضَتْهُ مِنَ المعاصي ونحوِ ذلك مِنَ المبادئ والأسبابِ التي قد أحاط اللهُ بها علمًا، تَوَسَّلُوا بالرحيمِ العليم.

وتَضمَّنَ كمالَ أَدَبِهِمْ مَعَ اللهِ تعالى بإقرارهم بربوبيَّته لهم الربوبيَّةَ العامَّةَ والخاصَّة، وأنه ليس لهم مِنَ الأمرِ شيءٌ، وإنما دعاؤهم لربِّهم صَدَرَ مِنْ فقيرٍ بالذاتِ مِنْ جميعِ الوجوه، لا يُدْلِي على ربِّه بحالٍ مِنَ الأحوال، إنْ هو إلَّا فَضْلُ اللهِ وكَرَمُهُ وإحسانه!!

---

(١) في الأصل: (بها).

(٢) «الحلية» (٧/ ٢٧٩).

وتَضمَّنَ موافقتَهم لربِّهم تمامَ الموافقةِ بمحبَّةِ ما يحبُّهُ مِنَ الأعمالِ التي هي العباداتُ التي قاموا بها، واجتَهَدُوا اجتهادَ المحبِّين، ومِنَ العُمَّالِ الذين هم المؤمنون، الذين يحبُّهم الله تعالى مِنْ بين خَلْقه، فسائرُ الخلقِ المكلَّفين يُبْغِضُهُمُ اللهُ إلَّا المؤمنين منهم، فمِنْ محبَّةِ الملائكةِ لهم دَعَوُا الله، واجتَهَدُوا في صلاحِ أحوالهم؛ لأنَّ الدعاءَ للشخصِ مِنْ أَدَلِّ الدلائلِ على مَحَبَّته؛ لأنه لا يدعو إلَّا لمن يحبُّه»[١].

وفي هذا أيضًا دَلَالةٌ على نُصْحِهم لعبادِ اللهِ المؤمنين؛ **قال مطرِّف ابن عبد الله بن الشِّخِّير** رَحِمَهُ اللهُ: «أَنْصَحُ عبادِ اللهِ للمؤمنينَ: الملائكةُ، وأَغَشُّ عبادِ اللهِ للمؤمنينَ: الشياطينُ»[٢].

وإنَّا لَنتقرَّبُ إلى اللهِ بِحُبِّ الملائكة، الذين لا يستكبرونَ عن عبادةِ اللهِ ولا يَسْتَحْسِرون، يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرون، كما نَتَقَرَّبُ إليه سبحانه بِبُغْضِ الشياطين، الذين يُفْسِدُونَ في الناسِ ولا يُصْلِحُون، وعن عبادةِ اللهِ هم مستكبرون، وعن الخيرِ ناكبون، وفي أنفسهم ضالُّون، ولغيرهم مُضِلُّون؛ حمانا الله منهم، وأعاذنا مِنْ شَرِّهم؛ إنه سميعٌ مجيب.

* * *

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٨٦٢).
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٢٢).

٢١٥

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ
(١)

لقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ في سُنَّته المطهَّرة، وأحاديثِهِ المباركة، أدعيةٌ كثيرةٌ فيها مِنَ المعاني الجامعة، والمطالبِ العالية، والمصالحِ العاجلةِ والآجلةِ ما يستدعي المَزِيدَ من الاهتمامِ بمعرفتها، والتَّأَمُّلَ في معانيها ودَلَالاتها، والتوجُّهَ إلى الله تعالى بالدعاءِ والسؤالِ بها.

وفيما يلي وَقَفاتٌ مَعَ نُخْبةٍ مباركةٍ، وطائفةٍ عَطِرَةٍ مِنْ دَعَواتِهِ الشريفة، وسؤالاتِهِ المُنِيفة، مع بيانٍ وإيضاحٍ لشيءٍ مِنْ معانيها ودَلَالاتها، وتنبيهٍ وإرشادٍ لشيء مِنْ فوائدها وثَمَراتها.

١ ـ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ، والتُّقَىٰ، والعَفَافَ، وَالغِنَىٰ)**؛ رواه مسلم(١).

وهو دعاءٌ عظيمٌ جامعٌ، اشتَمَلَ على أربعةِ مطالبَ عظيمةٍ؛ **وهي: الهدايةُ، والتَّقْوَىٰ، والعِفَّةُ، والغِنَىٰ.**

قال الطِّيبِيُّ رحمه الله: «أطلَقَ الهُدَىٰ والتُّقَىٰ؛ ليتناولَ كلَّ ما ينبغي أن يُهْتَدَىٰ إليه مِنْ أمرِ المعاشِ والمعادِ ومكارمِ الأخلاق، وكلَّ ما يجبُ أن يُتَّقَى منه من الشركِ والمعاصي ورذائلِ الأخلاق، وطَلَبُ العفافِ والغِنَىٰ تخصيصٌ بعدَ تعميم»(٢).

وقال النوويُّ رحمه الله: «**أمَّا العَفَافُ والعِفَّةُ**: فهو التنزُّهُ عمَّا لا يُبَاحُ، والكفُّ عنه، **والغِنَىٰ هنا**: غِنَى النفسِ، والاستغناءُ عن الناس، وعمَّا في أيديهم»(٣).

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢١).

(٢) **انظر**: «تحفة الأحوذي» (٩/ ٤٦١).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٤).

وفي شرحٍ لطيفٍ لهذا الحديث يقولُ الشيخ عبد الرحمٰن بن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هذا الدعاءُ مِنْ أجمعِ الأدعيةِ وأَنْفَعِها، وهو يَتَضَمَّنُ سؤالَ خَيْرِ الدين، وخيرِ الدنيا؛ فإنَّ الهدى هو العلمُ النافع، والتُّقَى العملُ الصالح، وتَرْكُ ما نَهَى اللهُ ورسولُهُ عنه، وبذلك يَصلُحُ الدِّينُ؛ فإنَّ الدينَ علومٌ نافعة، ومعارفُ صادقة، فهي الهدى، وقيامٌ بطاعة الله ورسوله، فهو التُّقى.

والعَفَافُ والغِنَىٰ يَتضمَّنُ العَفَافَ عن الخَلْق، وعَدَمَ تعليقِ القلبِ بهم، والغِنَىٰ بالله وبرزقِهِ، والقناعةَ بما فيه، وحصولَ ما يطمئنُّ به القلبُ من الكفاية؛ وبذلك تتمُّ سعادةُ الحياةِ الدنيا، والراحةُ القلبية، وهي الحياةُ الطيبة.

فمَنْ رُزِقَ الهُدَىٰ والتُّقَىٰ والعَفَافَ والغنى نالَ السعادتَيْن، وحَصَّلَ كلَّ مطلوب، ونجا مِنْ كلِّ مرهوب»[(١)].

٢ ـ وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: **(قُلِ: اللَّهُمَّ، اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بالهُدَى: هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ: سَدَادَ السَّهْمِ)**، وفي رواية: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ وَالسَّدَادَ)**؛ رواه مسلم[(٢)].

وهذا الدعاءُ المباركُ يَتضمَّنُ طَلَبَ الهُدَىٰ والسَّدَادِ مِنَ اللهِ تعالى، وهما أجلُّ مطالبِ العبد، وأشرفُ مواهبه، ولا يَحْصُلُ الفلاحُ ولا السعادةُ إلَّا بهما؛ لذا كان الترغيبُ في هذا عظيمَ الأهمية.

وقوله: **(اللَّهُمَّ، اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي)**، كقوله ـ في الرواية الأخرى ـ: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ والسَّدَادَ)**، فيهما طَلَبُ الهدى والسدادِ.

أمَّا الهُدَىٰ: فهو المعرفةُ بالحقِّ تفصيلًا وإجمالًا، والتوفيقُ لاتِّباعِهِ ظاهرًا وباطنًا.

وأمَّا السَّدَادُ، فقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمَّا السَّدَادُ هنا ـ بفتحِ السينِ ـ وسَدَادُ السهمِ: تقويمُهُ؛ **ومعنى (سَدِّدْنِي)**: وَفِّقْنِي، واجْعَلْني منتصبًا في جميعِ أموري،

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» (ص٢٤٩).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٥).

مستقيمًا، **وأصلُ السَّدَادِ**: الاستقامةُ والقصدُ في الأمور»[(١)].

وقوله ﷺ: **(وَاذْكُرْ بِالْهُدَىٰ: هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، والسَّدَادِ: سَدَادَ السَّهْمِ)**.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: تَذَكَّرْ ذلك في حالِ دُعَائِكَ بهذَيْنِ اللفظَيْنِ؛ لأنَّ هاديَ الطريقِ لا يَزِيغُ عنه، ومسدِّدَ السهمِ يَحْرِصُ على تقويمِه، ولا يستقيمُ رَمْيُهُ حتى يُقَوِّمَهُ، وكذا الداعي ينبغي أن يَحْرِصَ على تسديدِ عِلْمِهِ وتقويمِهِ ولزومِهِ السُّنَّةَ، **وقيل**: ليتذكَّرْ بهذا اللفظِ السَّدَادَ والهُدَىٰ لئلَّا ينساه»[(٢)].

وقال الخَطَّابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: **(وَاذْكُرْ بِالْهُدَىٰ: هِدَايَةَ الطَّرِيقَ)**، **معناه**: أنَّ سالكَ الطريقِ والفَلَاةِ إنَّما يَؤُمُّ سَمْتَ الطريق، ولا يكادُ يفارقُ الجادَّةَ، ولا يَعْدِلُ عنها يَمْنةً ويَسْرةً خوفًا مِنَ الضلال، وبذلك يُصِيبُ الهدايةَ، وينالُ السلامة؛ يقول: إذا سَأَلْتَ اللهَ الهدى، فاخْطُرْ بقلبِكَ هدايةَ الطريقِ، وسَلِ اللهَ الهُدَى والاستقامةَ؛ كما تَتحرَّاهُ في هدايةِ الطريقِ إذا سَلَكْتَها.

وقوله: **(وَاذْكُرْ بِالسَّدَادِ: تَسْدِيدَكَ السَّهْمَ)**، **معناه**: أنَّ الراميَ إذا رَمَى غَرَضًا سَدَّدَ بالسهمِ نحوَ الغَرَض، ولم يَعْدِلْ عنه يمينًا ولا شمالًا؛ لِيُصِيبَ الرَّمِيَّةَ، فلا يَطِيشُ سَهْمُه، ولا يُخْفِقُ سَعْيُه؛ يقول: فاخطرِ المعنى بقلبكَ حينَ تَسْأَلُ اللهَ السدادَ؛ ليكون ما تنويه مِنْ ذلك على شاكلةِ ما تستعملُهُ في الرمي»[(٣)].

وهذا مِنْ كمالِ نصحِ النبيِّ ﷺ، وحُسْنِ بيانه وتوجيهه، جعَلَ مع هذَيْنِ المطلَبَيْنِ العظيمَيْنِ ما يُذَكِّرُ بهما وبمدلولهما مِنَ الأمورِ الحِسِّيَّةِ المشاهَدَةِ؛ لِيتحقَّقَ ذِكْرُ اللفظِ وعَدَمُ نسيانه، وفَهْمُ المعنى المرادِ، واستحضارُهُ وعدَمُ إغفاله.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا مِنْ أبلغِ التعليمِ والنصح؛ حيثُ أَمَرَهُ أنْ يَذْكُرَ ـ إذا سأَلَ اللهَ الهدى إلى طريقِ رضاه وَجَنَّتِهِ ـ كونَهُ مسافرًا، وقد ضَلَّ عن

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٤٣). (٢) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٤٤).
(٣) «معالم السنن» (٤/ ١٩٩).

الطريقِ، ولا يَدْرِي أين يَتوجَّهُ، فطَلَعَ له رجلٌ خبيرٌ بالطريق، عالمٌ بها، فسألَهُ أنْ يَدُلَّهُ على الطريق؛ فهكذا شأنُ طريقِ الآخرة، تمثيلًا لها بالطريقِ المحسوسِ للمسافرِ، وحاجة المسافر إلى اللهِ سبحانه إلى أن يَهْدِيَهُ تلكَ الطريقَ، أَعْظَمُ من حاجةِ المسافرِ إلى بلدٍ إلى مَنْ يَدُلُّهُ على الطريقِ الموصِلِ إليها، وكذلك السَّدَادُ ـ وهو إصابةُ القصدِ قولًا وعملًا ـ فمَثَلُهُ مَثَلُ رامي السهم، إذا وقَعَ سَهْمُهُ في نفسِ الشيء الذي رماه، فقد سَدَّدَ سَهْمَهُ وأصاب، ولم يقعْ باطلًا، كذا المصيبُ للحقِّ في قولِهِ وعملِهِ بمنزلةِ المصيبِ في رميه»[(١)].

فهذه دعوةٌ عظيمةٌ، وألفاظُها يسيرة، إلا أنها اشتَمَلَتْ على خيرٍ عظيم، وفضلٍ عميم، وهي مِنْ جوامعِ كَلِمِ النبيِّ الكريم ﷺ، وتَضمَّنَتْ كذلك جمالَ نُصْحِهِ، وحُسْنَ بَيَانِهِ؛ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

* * *

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٩٤ ـ ٩٥).

٢١٦

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٢)

٣ ـ عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: (**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**)، ثم قال رسولُ الله ﷺ: (**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**)؛ رواه مسلم[١].

هذا الدعاءُ: (**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**) قد بيَّن النبيُّ ﷺ الدَّاعِيَ القويَّ إليه، والمُوجِبَ للاهتمامِ به والإكثارِ منه؛ وذلك بقوله ـ قبله ـ: (**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**).

وجاء مِثْلُ ذلك أيضًا في حديث أنس رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أن يقولَ: (**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**)، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، آمَنَّا بكَ وبما جِئْتَ به، فهل تخافُ علينا؟ قال: (**نَعَمْ؛ إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**)»؛ رواه الترمذي، وابن ماجه[٢].

وكذلك في حديث عائشة رضي الله عنها، قالتْ: «دَعَوَاتٌ كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ يدعو بها: (**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**)، قالت: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّكَ تُكْثِرُ تدعو بهذا الدعاءِ؟ فقال: (**إِنَّ قَلْبَ الآدَمِيِّ بَيْنَ**

---

(١) تقدم تخريجه ص(٨٧١).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١١٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢١٤٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٤٤٤).

إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ ﷻ؛ فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ، وإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ)»؛ رواه أحمد(١).

قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: «فيه بيانُ أنَّ العبدَ ليس إليه شيءٌ مِنْ أمرِ سعادتِهِ أو شقاوتِهِ، بل إنِ اهتَدَى فبهدايةِ اللهِ إيَّاه، وإنْ ثبَتَ على الإيمانِ فبتثبيتِهِ، وإن ضلَّ فبصَرْفِهِ عن الهدى؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال الله ﷻ إخبارًا عن حَمْدِ أهلِ الجَنَّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»(٢).

فتبيَّن بهذا أنَّ اللهَ تعالى هو الذي يَتَوَلَّى قلوبَ عباده، فيَتَصَرَّفُ فيها بما شاء، لا يَمْتَنِعُ عليه شيءٌ منها، ولا تَفُوتُهُ إرادةٌ، ولا يَكِلُها إلى أحدٍ مِنْ خلقه.

وعلى العبدِ أنْ يَلْجَأَ إلى اللهِ تعالى ويُكْثِرَ مِنْ هذا الدعاء، كما كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ منه، وفي هذا إعلامٌ للأُمَّةِ بأنَّ نَفْسَهُ الزكيَّةَ إذا كانتْ مفتقرةً إلى أنْ تَلْجَأَ إلى اللهِ سبحانه لتثبيتِ قَلْبه، فكيفَ الأمرُ بِمَنْ هو دونه؟! وكلُّ العبادِ دونه، فما أحوَجَ المسلمَ إلى تثبيتِ الله له على دينِهِ القويم، الذي هو سببُ النجاةِ والفلاحِ والوقايةِ مِنَ الذنوبِ وغوائلها، والله يقول: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والعبدُ ـ مع هذا ـ محتاجٌ إلى بَذْلِ المَسَاعِي النافعة، وسلوكِ المسالكِ الصالحة؛ لينالَ رضا اللهِ وهدايتَهُ وتوفيقَهُ؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

٤ ـ وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ: «أنه كان يدعو بهذا الدعاء: **(اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي،**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٩٤).

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١/ ١٦٧).

اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وما أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ)؛ رواه البخاري ومسلم(١).

❁ **وهذا الدعاءُ مِنْ أجمعِ الأدعيةِ في الاستغفار**؛ لأنَّه دعاءٌ بألفاظِ التعميم والشمول، مَعَ البَسْطِ والتفصيلِ بذكرِ كلِّ معنًى بصريحِ لفظِهِ، دُونَ الاكتفاءِ بدَلَالةِ اللفظِ الآخَرِ عليه؛ ليأتيَ الاستغفارُ على ما عَلِمَهُ العبدُ مِنْ ذنوبه وما لم يَعْلَمْه، ومعلومٌ أنه لو قيل: اغفرْ لي كلَّ ما صَنَعْتُ، كان أوجزَ، ولكنَّ ألفاظَ الحديثِ في مقامِ الدعاءِ والتضرُّع، وإظهارِ العبوديَّةِ والافتقار، واستحضارُ الأنواعِ التي يتوبُ العبدُ منها تفصيلًا أحسنُ وأبلغُ مِنَ الإيجازِ والاختصار(٢).

وهذا الدعاءُ والاستغفارُ مِنَ النبيِّ ﷺ هو على سبيلِ الافتقارِ والعبوديَّةِ لربِّه ﷻ، والتعليم لأمته، وأنَّ أحدًا من العبادِ لا يكونُ في غِنًى عن ربِّه وعن عَفْوِهِ ورحمتِهِ ومغفرته، بل حاجةُ العبادِ إلى مغفرتِهِ ورحمتِهِ وعفوه، كحاجتهم إلى حفظِهِ وكَلَاءَتِهِ ورزقه، فإنْ لم يَحْفَظْهم هَلَكُوا، وإنْ لم يَرْزُقْهم هَلَكُوا، وإن لم يغفرْ لهم ويَرْحَمْهم هَلَكُوا وخَسِرُوا؛ ولهذا قال أبوهم آدَمُ وأُمُّهم حَوَّاءُ عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ وهذا شأنُ وَلَدِهما مِنْ بعدهما(٣).

٥ ـ وعن أبي هريرة ﷺ: «أنَّ رجلًا قال: يا رَسُولَ اللهِ، سَمِعْتُ دُعَاءَكَ الليلةَ، فكان الذي وَصَلَ إليَّ منه أنك تقولُ: **(اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي)**، قال: **(فَهَلْ تَرَاهُنَّ تَرَكْنَ شَيْئًا؟!)**»؛ رواه الترمذي(٤)، وفي سنده ضعفٌ؛ إلَّا أنَّ الدعاءَ المذكورَ وَرَدَ ما يشهدُ له عند

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٧٦).

(٢) **انظر**: «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٣)، و«جلاء الأفهام» (ص٢٠٣)؛ كلاهما لابن القيم.

(٣) **انظر**: «شفاء العليل» (١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩).

(٤) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٠)، قال الألباني في «ضعيف الترمذي» (ص٤٠٧): «ضعيف، لكن الدعاء حسن».

أحمد(١)، مِنْ حديثِ رجلٍ مِنَ الصحابة، وعندَ النَّسَائيِّ وابنِ السُّنِّيِّ(٢)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه؛ وهي دعوةٌ عظيمةٌ ما تَرَكَتْ شيئًا مِنَ الخيرِ إلَّا تناوَلَتْهُ.

فقوله: **(اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي)**؛ **أي**: ما وقَعَ مِنِّي مِنْ زَلَلٍ وتقصيرٍ وفعلٍ لِمَا لا يليق، وغُفْرانُ الذنوب أساسٌ لكلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]؛ ولهذا ناسَبَ تقديمَ طلبِ المغفرةِ على سؤالِ اللهِ سَعَةَ الدارِ، والبركةَ في الرزق.

وقوله: **(وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي)**؛ **أي**: وَسِّعْ لي في مسكني في الدنيا؛ لأنَّ سَعَتَهُ مِنْ سعادةِ الدنيا، أو المرادُ القبرُ؛ فإنه الدارُ الحقيقية، أو المرادُ الجَنَّةُ، فهي دارُ الخلودِ والنعيمِ المقيمِ الذي لا يَحُولُ ولا يزول، ولا يمنعُ أنْ يكونَ اللفظُ متناولًا لذلك كله.

وقوله: **(وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي)**؛ **أي**: اجعَلْهُ مُبارَكًا محفوفًا بالخير، والبَرَكَةُ في الرزقِ؛ **تعني**: ثباتَهُ وزيادتَه.

* * *

---

(١) «المسند» (٤/ ٦٣).

(٢) «عمل اليوم والليلة» للنَّسَائي رقم (٨٠)، و«عمل اليوم والليلة» لابن السُّنِّيِّ رقم (٢٨).

٢١٧

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٣)

٦ ـ عن عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: كان النبيُّ ﷺ يدعو: **(رَبِّ، أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الهُدَىٰ لِي، وَانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ، اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ، تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي)**؛ رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه[1].

وهذا الدعاءُ العظيمُ اشتَمَلَ على اثنَيْنِ وعشرينَ سؤالًا ومَطْلَبًا؛ هي من أهمِّ مطالبِ العبدِ، وأسبابِ صلاحِهِ وسعادتِهِ في الدنيا وفي الآخرة:

فأولُ ذلك: قولُهُ: **(رَبِّ، أَعِنِّي)**، وهو طَلَبُ العونِ مِنَ الله؛ **أي**: وَفِّقْني لِذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادتك، وفي مقابلةِ الأعداءِ أَمِدَّني بمعونتك وتوفيقك.

والثاني: قوله: **(وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ)**؛ **أي**: لا تُغَلِّبْ عليَّ مَنْ يَمْنَعُني مِنْ طاعتك؛ مِنَ النفسِ الأمَّارة بالسوء، ومِنْ شياطينِ الإنسِ والجِنّ.

والثالث: قوله: **(وَانْصُرْنِي)**، وهو طَلَبُ النصر؛ **أي**: اغلبني على الكفار أعدائي وأعداءِ دينك، **وقيل**: انْصُرْني على نفسي الأمَّارَةِ بالسوء؛ فإنها أعدى أعدائي.

والرابع: قوله: **(وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ)**؛ **بمعنى**: لا تُسَلِّطْ عليَّ أحدًا مِنْ خلقك.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٧)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥١٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٥١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١/ ٤١٤).

والخامس: قوله: **(وَامْكُرْ لِي)**؛ **أي**: أَلْحِقْ مَكْرَكَ بأعدائي، وارزقني الحِيلَةَ السليمة، والفكرَ القويمَ للسلامةِ مِنْ شَرِّهم ودَفْعِ كيدهم؛ بحيثُ لا يَشْعُرُ العدوُّ بما هَدَيْتَني إليه مِنْ سُبُلِ دَفْعِ كيدهم وعدوانهم.

والسادس: قوله: **(وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ)**؛ **أي**: ولا تَهْدِ عَدُوِّي إلى طريقِ دفعِهِ إيَّايَ عن نفسه.

والسابع: قوله: **(وَاهْدِنِي)**؛ **أي**: دُلَّنِي على أبوابِ الخيرات، ومُنَّ عليَّ بالعلمِ النافع، وبَصِّرْني بعيوبِ نفسي.

والثامن: قوله: **(وَيَسِّرِ الهُدَىٰ لِي)**؛ **أي**: وسَهِّلْ لي اتِّباعَ الهدايةِ، وسلوكَ طريقها، وهَيِّئْ لي أسبابَ الخير، حتى لا أَسْتَثْقِلَ الطاعةَ، ولا أَشْتَغِلَ عن العبادة.

والتاسع: قوله: **(وانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ)**؛ **أي**: وانْصُرْني على مَنْ ظلمني وتَعَدَّى عليَّ؛ وهذا تخصيصٌ بعدَ قوله أولًا: **(وَانْصُرْني وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ)**.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقوله: **(وانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ)**: دعاءُ عادلٍ لا دعاءُ معتدٍ؛ يقولُ: انصُرْني على عَدُوِّي مطلقًا»(١).

والعاشر: قوله: **(اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا)**؛ **أي**: أَلهِمْنِي شُكْرَكَ على نَعْمائِكَ وآلائِكَ عليَّ.

والحاديَ عشَرَ: قوله: **(لَكَ ذَاكِرًا)**؛ **أي**: في الأوقاتِ كلِّها؛ قائمًا، وقاعدًا، وعلى جَنْب.

والثانيَ عَشَرَ: قوله: **(لَكَ رَاهِبًا)**؛ **أي**: خائفًا منك في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء.

والثالثَ عشَرَ: قوله: **(لَكَ مِطْوَاعًا)**؛ **أي**: كثيرَ الطَّوْعِ، وهو الانقيادُ والامتثالُ والطاعة.

---

(١) «الرد على البكري» (١/ ٢٠٧).

والرابعَ عَشَرَ: قوله: **(لَكَ مُخْبِتًا)**: مِنَ الإخباتِ، وهو الخشوعُ والتواضعُ والخضوعُ؛ **والمعنى**: اجعلني لك خاشعًا متواضعًا خاضعًا.

ويقالُ: أَخْبَتَ إلى اللهِ: اطمَأَنَّ إليه، وخشَعَ له وخضَعَ، وعلامتُهُ أنْ يَذِلَّ القلبُ بين يَدَيْ ربِّه إجلالًا وذُلًّا له وانكسارًا.

والخامسَ عشَرَ: قوله: **(إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا)**؛ **الأَوَّاهُ**: هو كثيرُ الدعاءِ والتضرُّعِ والبكاء، **والمنيبُ**: هو التائبُ الراجعُ إلى اللهِ في أموره.

واكتفى في قوله: **(أَوَّاهًا مُنِيبًا)**، بصلةٍ واحدةٍ؛ لكونِ الإنابةِ لازمةً للتأوُّهِ ورديفًا له؛ فكأنهما شيءٌ واحد؛ ومِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ في هذا وفيما قَبْلَهُ للاهتمامِ والاختصاص، وتحقيقِ الإخلاص.

والسادسَ عشَرَ: قوله: **(رَبِّ، تَقَبَّلْ تَوْبَتِي)**؛ **أي**: بجعلها صحيحةً بشرائطِهَا واستجماعِ آدابها.

والسابعَ عشَرَ: قوله: **(وَاغْسِلْ حَوْبَتِي)**؛ **أي**: وامْحُ ذنبي وإثمي.

والثامنَ عشَرَ: قوله: **(وَأَجِبْ دَعْوَتِي)**؛ **أي**: دعائي.

والتاسعَ عشَرَ: قوله: **(وَثَبِّتْ حُجَّتِي)**؛ **أي**: على أعدائِكَ في الدنيا والعُقْبَى، وثَبِّتْ قولي وتصديقي في الدنيا وعندَ سؤالِ المَلَكَيْن.

والعِشْرون: قوله: **(وَاهْدِ قَلْبِي)**؛ **أي**: إلى معرفةِ ربِّي، ومعرفةِ الحَقِّ والهدى الذي أَمَرَ به، وبعَثَ به رسلَهُ.

والحادي والعِشْرون: قوله: **(وَسَدِّدْ لِسَانِي)**؛ **أي**: صَوِّبْ وقَوِّمْ لساني حتى لا يَنْطِقَ إلَّا بالصدقِ والقولِ السديد.

والثاني والعِشْرون: قوله: **(وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي)**؛ **أي**: وأَخْرِجْ سَخِيمَةَ صَدْري، وهي غِشُّهُ وغِلُّهُ، وحِقْدُهُ وحَسَدُهُ، ونحوُها؛ مما ينشأُ مِنَ الصدرِ ويسكُنُ في القلبِ من مساوئ الأخلاق.

وبهذا الشرحِ المُوجَزِ لِمَا اشتَمَلَ عليه هذا الدعاءُ مِنَ المسائلِ العظيمة، والمطالبِ الجليلة: يَتبيَّنُ عِظَمُ شأنِ هذا الدعاء، وأنه مما ينبغي الاهتمامُ به، وملازمةُ التضرُّعِ به إلى الله تعالى.

وقد ذكَرَ الحافظُ البَزَّارُ في ترجمةِ شيخِ الإسلام ابن تيميَّةَ أنَّ هذا الدعاءَ كان غالبَ دعائِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ[١].

❋ ❋ ❋

(١) «الأعلام العلية، في مناقب ابن تيمية» (ص٣٧).

٢١٨

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٤)

٧ ـ عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ علَّمها هذا الدعاءَ: (**اللَّهُمَّ، إنِّي أَسْأَلُك مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ ومَا لَمْ أَعْلَمْ، وأَعُوذُ بِك مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ ومَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُك مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَك عَبْدُكَ وَنَبِيُّك، وأَعُوذُ بِـك مِمَّـا عَـاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّك، اللَّهُمَّ، إنِّي أَسْأَلُك الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِك مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُك أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا**)؛ رواه ابن ماجه، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»[(١)].

وفي رواية البخاري في «الأدب المفرد»، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «(**يَا عَائِشَةُ، عَلَيْك بِجُمَلِ الدُّعَاءِ وَجَوَامِعِهِ**)، قالتْ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، وما جُمَلُ الدعاءِ وجوامعُهُ؟ قال: (**قُولِي: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُك مِنَ الخَيْرِ كُلِّه...**)»، إلى آخر الدعاء.

فدلَّت هذه الروايةُ على أنَّ هذا الدعاءَ مِنْ جوامعِ الأدعيةِ التي تجمعُ المعانيَ الكثيرةَ، والمقاصدَ الصحيحةَ، والأغراضَ الصالحَةَ، بألفاظٍ يسيرةٍ.

وهذا ظاهرٌ في الحديث؛ فإنَّ قولَهُ: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُك مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ ومَا لَمْ أَعْلَمْ**)، شَمِلَ جميعَ الخيراتِ في الدنيا والآخرة، الظاهرةِ منها والباطنة.

---

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٤٦)، و«الأدب المفرد» للبخاري رقم (٦٣٩)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٤٢).

وقوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وآجِلِه، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ ومَا لَمْ أَعْلَمْ)**، شَمِلَ جميعَ الشرورِ في الدنيا والآخرة، الظاهرةِ منها والباطنة.

وقوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ)**: تأكيدٌ لِمَا قبله، وتفضيلٌ لاختيارِ رسولِ اللهِ ﷺ على اختيارِ الداعي؛ لكمالِ نُصْحِهِ، ولِعِظَمِ حِرْصِهِ، ولكونِهِ أَوْلَى بالمؤمنينَ من أنفسهم، وأنصحَ لأنفسهم منهم، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

وقوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ)**: دعاءٌ بالفوزِ بالجَنَّةِ، والتمكُّنِ مِنَ الأسبابِ الموصِلةِ إليها، وهو تخصيصٌ مِنَ الخيرِ بطلبِ الجَنَّةِ؛ لأنها أعظمُ الخيرِ وأكملُهُ وأبقاه.

وقوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ)**: دعاءٌ بالوقايةِ مِنَ النارِ ومِنَ الأسبابِ المُوجِبَةِ لدخولها، وهو كذلك تخصيصٌ مِنَ الشرِّ بالاستعاذةِ مِنَ النار خاصَّةً؛ لأنها أشدُّ الشرِّ وأدهاه وأبقاه.

وقوله: **(وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا)**، في رواية البخاري - في «الأدب المفرد» -: **(ومَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ، فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا)**، وهي مفسِّرةٌ للرواية الأخرى؛ **أي**: أن تكونَ عواقبُ ما يقضيه اللهُ على عبدِهِ المؤمنِ حميدةً، ومآلاتُها رشيدةً؛ إنْ قضى له بنعمةٍ، نالَ بها ثوابَ الشاكرين، وإنْ قضى له بمصيبةٍ، نالَ بها ثوابَ الصابرين المحتسبين.

ومِنْ فوائدِ هذا الحديث: أهميةُ تعليمِ الأهلِ والوَلَدِ الدعاءَ؛ **قال الصَّنْعانيُّ** رَحِمَهُ اللهُ: «وفيه: أنه ينبغي للعبدِ تعليمُ أهلِهِ أحسنَ الأدعية؛ لأنَّ كلَّ خيرٍ ينالونه فهو له، وكلّ شرٍّ يصيبُهم فهو مَضَرَّةٌ عليه»(١).

٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول: **(اللَّهُمَّ، أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ،**

(١) «سبل السلام» (٤/ ٤٣٨).

وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)(١).

وهو كذلك مِنْ جوامعِ دَعَواتِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام، وقد اشتَمَلَ على سؤالِ اللهِ صلاحَ الدِّين والدنيا والآخرة؛ وبدَأَ بالدِّين؛ لأنه بصلاحِهِ يَصْلُحُ ما سواه.

قوله: **(اللَّهُمَّ، أَصْلِحْ لِي دِينِيَ)**: دعاءٌ بإصلاحِ الدين؛ **أي**: بأن تُوَفِّقَني للقيامِ بواجباتِهِ وآدابِهِ ومقتضياتِهِ على الوجهِ الأكمل والأتمِّ؛ وذلك بأنْ يوفِّقَ اللهُ العبدَ للتمسُّكِ بالكتابِ والسُّنَّةِ وَفْقَ هَدْيِ السلفِ الصالحِ مِنَ الصحابةِ والتابعين، والأئمَّةِ الصالحين؛ في أمورِ الاعتقادِ، والعباداتِ، والدعوةِ إلى الله تعالى، والسلوكِ الاجتماعيِّ العام.

وقوله: **(الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي)**؛ **أي**: ما أَعْتَصِمُ به في جميعِ أموري؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفيه: أنَّ التمسُّكَ بالدِّينِ على المنهجِ الصحيحِ عِصْمةٌ للعبدِ مِنْ مُضلَّاتِ الفِتَنِ، ومِنَ الوقوعِ في الانحرافاتِ الاعتقاديَّةِ والعملية، وأنَّ إضاعةَ الدِّينِ به انفراطُ الأمرِ وضَياعُهُ، كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: **(وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ)**: دعاءٌ بإصلاحِ الدنيا؛ **أي**: بإعطاءِ الكَفَافِ فيما يحتاجُ إليه، وبأنْ يكون حلالًا ومُعِينًا على طاعةِ الله تعالى.

وقوله: **(الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي)**؛ **أي**: فيها مكانُ عيشي وزَمَانُ حياتي، وفي هذا أنَّ للناسِ في هذه الحياةِ مَعَاشًا محدودًا ورِزْقًا مُقَدَّرًا لَنْ يموتَ حتى يَسْتتِمَّهُ.

وقوله: **(وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي)**: دعاءٌ بإصلاحِ الآخرة، وإصلاحُها باللطفِ مِنَ اللهِ سبحانه والتوفيقِ منه للإخلاصِ في الطاعة، وحُسْنِ الخاتمة، والفوزِ بالنعيمِ المقيمِ في الجَنَّة.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٠).

وقوله: (**الَّتِي فِيهَا مَعَادِي**)؛ **أي**: فيها مكانُ رجوعي، وزَمَنُ إعادتي إلى الله ﷻ؛ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: (**وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ**)؛ **أي**: اجْعَلْ طُولَ عمري فرصةً وسببًا لي في إتيانِ الخيرِ مِنَ القولِ والعمل.

وفيه: أنَّ طولَ عُمْرِ العبدِ المسلم مدعاةٌ للزيادةِ مِنْ أعمالِ البرِّ والخير.

وقوله: (**وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**)؛ **أي**: واجْعَلْ موتي وخروجي مِنْ هذه الحياة الدنيا راحةً لي مِنَ الفتنِ والمِحَنِ، والابتلاءِ بالمعصيةِ والغَفْلة.

وفيه: أنَّ المؤمنَ يَسْتَرِيحُ غايةَ الراحةِ، ويَسْلَمُ كاملَ السلامةِ بلقاءِ ربِّه ﷻ، ويَظْفَرُ بثوابِهِ العظيم، ونعيمِه المقيم، نسألُ اللهَ الكريمَ مِنْ فَضْله.

❊ ❊ ❊

٢١٩

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٥)

٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(اللَّهُمَّ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا)**؛ رواه الترمذي، وابن ماجه[(١)].

فهذا الحديثُ اشتَمَلَ على دعوةٍ جامعةٍ تَتعلَّقُ بالعلم، وما ينبغي أن يكونَ عليه شأنُ المسلم مَعَ العلم، **وهو يَتكوَّنُ مِنْ جملٍ ثلاثٍ في تحقيقِ هذا المطلبِ الجليل، والمَقْصِدِ العظيم**:

الأولى: قولُه: **(اللَّهُمَّ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي)**، وفيها سؤالُ اللهِ الانتفاعَ بما يتعلَّمه مِنَ العلومِ المفيدة؛ لأنَّ مقصودَ العلم العملُ، وكلُّ علم شرعيٍّ، فطلَبُ الشارعِ له إنما يكونُ حيثُ هو وسيلةٌ إلى التعبُّدِ به لله؛ لأن الشرعَ إنما جاء بالتعبُّد، وهو المقصودُ مِنْ بَعْثَةِ الأنبياءِ عليهم السلام، بل جاءتِ النصوصُ مشتملةً على التهديدِ الشديد، والتغليظِ والوعيد لِمَنْ لم يعملْ بعلمه، وأنَّ المرءَ يُسألُ يومَ القيامةِ عن عِلْمِهِ ماذا عَمِلَ به، وأنَّ مَنْ لم يعملْ بعلمه يكونُ عِلْمُهُ وَبالًا عليه وحَسْرةً وندامةً.

فلِعِظَمِ هذا المقامِ وأهميَّته، وكونِهِ هو المقصودَ الأساسَ لطلبِ العلم، قُدِّمَ هنا في هذه الدعوةِ على سؤالِ العلم، ومتى لم يَحْصُلِ انتفاعٌ بالعلم، فإنه يكونُ وَبالًا وحُجَّةً على صاحبه؛ كما قال ﷺ: **(وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)**[(٢)]؛ فهو حُجَّةٌ لصاحبه إنْ عَمِلَ به، وحجةٌ عليه إنْ فَرَّط في العمل.

---

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤٧٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٩).

ولربَّما سَعِدَ الناسُ بعلمِ الإنسان سعادةً لم يَنَلْها هو مِنْ عِلْمِهِ؛ لتفريطِهِ بالعمل؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان مِنْ أحسنِ الدعاءِ قولُهُ: اللهمَّ لا تَجْعَلْني عِبْرَةً لغيري، ولا تَجْعَلْ أَحَدًا أَسْعَدَ بما عَلَّمْتَنِي مني»(١).

وهي دعوةٌ مأثورةٌ عن مُطَرِّفِ بن عبد الله بن الشِّخِّيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ، رواها عنه الإمام أحمد في كتابه «الزهد»(٢).

الثانية: قوله: **(وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي)**، وفيها سؤالُ اللهِ أن يَمُنَّ عليه بالعلم النافع، وهو علمُ الشريعةِ الذي يُفِيدُ المُكَلَّفَ ما يجبُ عليه مِنْ أَمْرِ دينه، في عبادتِهِ ومعاملاته، والعلمُ باللهِ وبأسمائِهِ وصفاته، وما يجبُ له مِنَ القيامِ بأمرِهِ وتحقيقِ طاعته. ومِنْ علامةِ إرادةِ اللهِ الخيرَ بعبده أنْ يُوَفِّقَ عبدَهُ لطلبِ هذا العلمِ وتحصيلِهِ؛ كما ثبَتَ في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **(مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ)**(٣).

ولا تُنالُ هذه الخيريةُ بمجرَّدِ تحصيلِ العلم، بل لا بدَّ مِنَ العمل.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومفهومُ الحديثِ أنَّ مَنْ لم يفقِّهه في دينه لم يُرِدْ به خيرًا، كما أنَّ مَنْ أرادَ به خيرًا فَقَّهَهُ في دينه، ومَنْ فَقَّهَهُ في دينه، فقد أراد به خيرًا، إذا أُرِيدَ بالفقهِ العلمُ المستلزِمُ للعمل، وأمَّا إنْ أُرِيدَ به مجرَّدُ العلم، فلا يَدُلُّ على أنَّ مَنْ فَقِهَ في الدين فقد أُرِيدَ به خيرًا، فإنَّ الفِقْهَ حينئذٍ يكونُ شرطًا لإرادةِ الخير، وعلى الأوَّلِ يكونُ مُوجِبًا»(٤).

وقد ثبَتَ عن النبي ﷺ التعوذُ بالله مِنَ العلمِ الذي لا ينفع(٥).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/٣٠٧).
(٢) «الزهد» للإمام أحمد رقم (١٣٥٨).
(٣) رواه البخاري رقم (٧١)، ومسلم رقم (١٠٣٧).
(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/٢٤٦).
(٥) رواه مسلم رقم (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثالثة: قولُه: **(وَزِدْنِي عِلْمًا)**، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؛ حيثُ أمَرَ سبحانه نبيَّه ﷺ أن يسألَهُ زيادةَ العلمِ؛ فإنَّ العلمَ خيرٌ، وكثرةُ الخيرِ مطلوبةٌ، وهي مِنَ اللهِ ﷻ، والطريقُ إليها: الاجتهادُ، والشوقُ للعلمِ، وسؤالُ اللهِ، والاستعانةُ به، والافتقارُ إليه في كلِّ وقت.

والعبدُ لا يزالُ بخيرٍ ما كان على هذه الحالِ، مجتهدًا في تعلُّم ما ينفعه، منتفعًا بما يتعلَّمه، وفي ازديادٍ مِنْ ذلك إلى أن يَلْقَى اللهَ ﷻ، فَأَنعِمْ بها مِنْ حال! وأكرِمْ به مِن مآل!

۞ **وهٰهنا لا بدَّ مِنَ التنبيهِ إلى أن مَنْ يدعو اللهَ بأن يَمْنَحَهُ العلمَ النافع، وأن ينفعَهُ بما علَّمه، وأنْ يَزيدَهُ علمًا، لا بدَّ له ـ مَعَ هذا ـ** مِنْ بذلِ الأسبابِ المشروعةِ لتحصيلِ العلمِ، وحُسْنِ الانتفاع به؛ مِنْ خلالِ التدرُّج في مراتبه، والترقِّي في منازلِهِ، والسلوكِ في طريقه، لا أنْ يَقْتَصِرَ على الدعاءِ دُونَ بذلٍ للأسباب؛ فإنَّ «الأدعيةَ القرآنيةَ والنبويَّةَ الأمرُ بها أو الثناءُ على الداعين بها يَسْتتبعُ لوازمَها ومتمِّماتِها، فسؤالُ اللهِ الهدايةَ يستدعي فِعْلَ جميعِ الأسبابِ التي تُدْرَكُ بها الهدايةُ العلميَّةُ والعَمَليَّة»(١)، وكذلك سؤالُ اللهِ العلمَ يستدعي فعلَ جميعِ الأسبابِ التي يُنالُ بها العلمُ، ويَتحقَّقُ مِنْ خلالها الانتفاعُ به.

وقد لخَّص ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **هذه الوسائلَ في ستِّ نقاط؛ فقال:** «للعلمِ ستُّ مراتبَ: **(أولها)**: حُسْنُ السؤال، **(الثانية)**: حُسْنُ الإنصاتِ والاستماع، **(الثالثة)**: حُسْنُ الفهم، **(الرابعة)**: الحفظُ، **(الخامسة)**: التعليمُ، **(السادسة)** ـ وهي ثمرتُهُ ـ: وهي العملُ به ومراعاةُ حدوده»(٢)، ثم بيَّن رَحِمَهُ اللهُ أنَّ حِرْمَانَ العلمِ يكونُ بأضدادِ هذه الأمور: بتركِ السؤال، وسُوءِ الإنصاتِ وعدمِ إلقاءِ السمع، وسوءِ الفهم، وعَدَمِ الحفظ، وعَدَمِ نشرِ العِلْمِ وتعليمه، وعَدَمِ العملِ به.

---

(١) «مجموع الفوائد» لابن سعدي (ص٩٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١١).

وكم هو جميلٌ بالمسلمِ أن يُدْرِكَ حاجتَهُ إلى العلم، وضرورتَهُ إليه، فيسألَ ربَّهُ أن يَسْلُكَ به طريقَ العلمِ النافع، وأن يُوَفِّقَهُ للانتفاعِ والارتفاعِ في درجاتِ العلم والعمل. وحاجةُ العبدِ إلى العلمِ أعظمُ مِنْ حاجتِهِ إلى الطعام والشراب؛ لأَن حاجةَ المرءِ إلى الطعامِ والشرابِ في اليومِ مَرَّاتٌ معدودةٌ، وأمَّا حاجتُه إلى العلمِ، ففي جميعِ الأوقات.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الناسُ أحوجُ إلى العلم منهمْ إلى الطعام والشراب؛ لأنَّ الطعامَ والشرابَ يُحْتَاجُ إليه في اليومِ مَرَّةً أو مرتَيْن، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كلِّ وقت»[1].

هذا، وإنا لنسألُ اللهَ أن يَنْفَعَنا بما عَلَّمَنَا، وأنْ يُعَلِّمَنا ما يَنْفَعُنا، وأنْ يَزِيدَنَا علمًا؛ إنه سميعٌ مجيبٌ قريب.

* * *

(١) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠١).

٢٢٠

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ
(١)

إنَّ الاستعاذةَ بابٌ مهم في الأدعية النبوية، والأحاديثُ الثابتةُ عن النبي ﷺ في هذا البابِ دالَّةٌ كلُّها على عظيمِ عنايتِهِ، وشِدَّةِ اهتمامِهِ بهذا النوعِ مِنَ الدعاء، فأحاديثُ الاستعاذةِ كثيرةٌ، وهي كذلك متنوعةٌ مِنْ حيثُ الأمورُ التي استعاذَ منها ﷺ، أو أمَرَ بالاستعاذةِ منها.

ولا بد في هذا الباب مِنْ معرفةِ ثلاثةِ أمور:

الأول: معرفةُ معنى الاستعاذةِ:

وهي طَلَبُ العَوْذ؛ **قال العلامة ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَمْ أنَّ لفظَ: «**عَاذَ**» وما تَصرَّفَ منها تَدُلُّ على التحرُّزِ والتحصُّنِ والنجاة، **وحقيقةُ معناها**: الهروبُ من شيءٍ تخافُهُ إلى مَنْ يَعْصِمُكَ منه؛ ولهذا يُسمَّى المُسْتَعَاذُ به مَعَاذًا، كما يُسَمَّى مَلْجَأً ووَزَرًا»(١).

الثاني: معرفةُ المُسْتَعَاذِ به:

والمستَعاذُ به الذي يُطْلَبُ منه العَوْذُ، ويُعْتَصَمُ به، ويُلْتَجأُ ويُهْرَبُ إليه: هو اللهُ وحده، الذي بيدِهِ مَلَكوتُ السمٰواتِ والأرض، والذي هو على كلِّ شيء قدير، وهو ربُّ العالمين، فلا يُستعاذُ إلَّا به، ولا يُستعاذُ بأحدٍ مِنْ خلقه، بل هو الذي يُعِيذُ المستعيذين، ويَعْصِمُهُمْ ويمنعهم مِنْ شرِّ ما استعاذوا مِن شَرِّه.

فالاستعاذةُ باللهِ تعالى عبادةٌ عظيمة، يجبُ إفرادُهُ سبحانه بها، وعدَمُ

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠).

إشراكِ شيءٍ آخَرَ معه فيها؛ وهذا مِنْ تحقيقِ التوحيدِ وإخلاصِ الدِّينِ لله تعالى وحده، الذي هو أساسُ سَعَادةِ العبدِ، وفلاحِهِ في الدنيا والآخرة.

وأمَّا الاستعاذةُ بغيرِ اللهِ تعالى مِنَ الخَلْق، فإنها طُغْيانٌ وشرٌّ عظيم؛ كما قال الله تعالى حكايةً عن مؤمني الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قال ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية ـ: «كان رجالٌ مِنَ الإنس يَبِيتُ أَحَدُهُمْ بالوادي في الجاهليَّةِ، فيقولُ: أَعُوذُ بِعَزِيزِ هذا الوادي، فزادَهُمْ ذلك إثمًا»[١].

لأنَّ ذلك مِنَ الشِّرْك؛ ولذا نَزَلَتْ سورتا المعوِّذتين لتعليمِ الاستعاذةِ باللهِ تعالى وحده، والتبرُّؤِ مِنَ الاستعاذةِ بغيره، وكذلك أذكارُ الاستعاذةِ المأثورةُ، فإنها إرشادٌ لذلك.

وعلى كلٍّ، فإنَّ مِنَ الضروريِّ معرفةَ العبدِ أنْ ليسَ للخلقِ مَعَاذٌ ولا مَلْجَأٌ ولا مَنْجًى سوى اللهِ تعالى، وأنه لا شيءَ يُستعاذُ منه إلَّا واللهُ ربُّه وخالقُه، وتحتَ قَهْرِهِ وسلطانه.

وهذا كلُّه تحقيقٌ للتوحيد والقَدَر، وأنه لا ربَّ غيره، ولا خالقَ سواه، ولا يملكُ المخلوقُ لنفسه ولا لغيرِهِ ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل الأمرُ كلُّه لله، ليس لأحدٍ سواه منه شيءٌ.

الثالث: معرفةُ أنواعِ المستعاذِ منه:

فقد ورَدَ في السُّنَّةِ الاستعاذةُ مِنْ أنواعٍ عديدةٍ مما ينبغي للعبدِ الالتجاءُ إلى الله تعالى ليعصمَهُ منها، **وهي في الجُمْلةِ نوعان:** موجودٌ يُطْلَبُ رَفْعُه، ومعدومٌ يُطْلَبُ بقاؤُهُ على العدم، وأنْ لَا يُوجَدَ؛ كما أنَّ الخيرَ المطلقَ **نوعان:** موجودٌ يُطْلَبُ دوامُهُ وثباتُهُ وأنْ لَا يُسْلَبَ، ومعدومٌ يُطْلَبُ وجودُهُ وحصولُه.

فهذه أربعةٌ هي أمَّهاتُ مطالبِ السائلين مِنْ ربِّ العالمين، وعليها مَدَارُ طَلَبَاتهم.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٣٢٢).

وإذا تبيَّن هذا، فينبغي للعبدِ المسلم معرفةُ أنواعِ ما جاءتِ السُّنَّةُ النبويَّةُ بالاستعاذةِ منها، لاسيَّما ما كان مِنْ ذلك بأوجزِ لفظٍ وأجمعِهِ وأدَلِّهِ على المرادِ، وأعَمِّهِ استعاذةً.

وسنقفُ بإذن الله ﷻ على جملةٍ طيبةٍ مِنَ الأحاديثِ الواردةِ في هذا الباب، مع بيان لشيءٍ مِنْ معانيها ودَلَالاتها:

١ - فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلْشِّرْكُ أَخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وكَثِيرُهُ؟**)، قَالَ: (**قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ**)؛ رواه البخاري في «الأدب المفرد»[(١)].

وله شاهدٌ من حديث أبي موسى الأشعري ﵁، قال: «خَطَبَنَا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ، فقال: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**)، فقال له مَنْ شاءَ اللهُ أنْ يقولَ: وكيف نَتَّقِيهِ وهو أَخْفَى مِنْ دبيبِ النَّمْلِ يا رسولَ اللهِ؟ قال: (**قُولُوا: اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، ونَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُ**)»؛ رواه أحمدُ في «المسند»[(٢)].

وقد اشتمَلَ هذا الحديث على أعظمِ شَرٍّ يُستعاذُ بالله منه؛ فإنَّ الشركَ باللهِ أظلمُ الظلم، وأعظَمُ الإثم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، والآياتُ في بيانِ خطرِ الشركِ وعِظَمِ جُرْمِهِ كثيرةٌ.

وفي الحديثِ السابقِ بيانُ أنَّ الشركَ قد يكونُ خفيًّا كخفاءِ دَبِيبِ النمل، حتى إنه لخفائِهِ قد يقعُ فيه العبدُ ويَتسلَّلُ إلى نفسِهِ وهو لا يعلم؛ وهذا مما

---

(١) «الأدب المفرد» رقم (٧١٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٥٤).

(٢) «مسند أحمد» (٤٠٣/٤)، وحسَّنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٣٦).

يوجبُ شِدَّةَ الحذرِ منه، وضَرُورَةَ معرفتِهِ لِيُتَّقَى ويُجْتَنَب، مَعَ الاعتصامِ بالله تعالى والالتجاءِ إليه لِيَعْصِمَ العبدَ مِنَ الشركِ بأنواعِهِ، ويَقِيَهُ مِنْ شرِّه وعواقِبِهِ الوخيمة؛ وهذا ما أرشَدَ إليه رسولُ الله ﷺ في هذا الحديثِ؛ حيثُ عَلَّمَ أُمَّتَهُ الاستعاذَةَ بالله مِنَ الشركِ كلِّه ما عَلِمَهُ العبدُ وما لم يَعْلَمْهُ؛ قال: **(قُلِ: اللَّهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وأَنَا أَعْلَمُ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ)**، فما أعظمَهَا مِنْ دعوةٍ! وما أشدَّ حاجةَ العبد إلى العنايةِ بها! أعاذَنَا اللهُ أجمعين مِنَ الشِّرْكِ ما عَلِمْنا منه وما لم نَعْلَمْ، وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.

* * *

٢٢١

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ (٢)

٢ ـ عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقول: (**اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، والجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُون**)؛ رواه مسلم(١).

وفي هذا الدعاءِ التعوُّذُ باللهِ مِنَ الضلال، وهو الانحرافُ عن صراطِ اللهِ المستقيم، وسبيلِهِ القويم، ودينِهِ الحنيف.

وقوله: (**اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ**)؛ **أي**: استَسْلَمْتُ وانقدتُ لأمرِكَ ونهيك، وقدَّم الجارَّ والمجرور: «لَكَ»؛ لإفادةِ القصرِ والاختصاص؛ **أي**: أسلمتُ لك وَحْدَكَ لا لغيرِك.

وقوله: (**وَبِكَ آمَنْتُ**)؛ **أي**: بذاتِكَ العليَّة، وما يليقُ بها مِنْ صفاتِ الكمالِ آمنتُ؛ **أي**: صَدَّقْتُ وأقررتُ، ويدخُلُ في الإيمانِ به سبحانه الإيمانُ بكلِّ ما أمَرَ عباده بالإيمان به؛ كالملائكةِ، والكُتُبِ، والرسلِ، واليومِ الآخر.

وقوله: (**وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ**)؛ **أي**: فَوَّضْتُ أمري إليك دون غيرك.

وقوله: (**وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**): مِنَ الإنابة؛ **أي**: رجعتُ إلى عبادَتِكَ وما يُقرِّبُ إليك، وأعرضتُ عمَّا سوى ذلك.

وقوله: (**وَبِكَ خَاصَمْتُ**)؛ **أي**: بكَ أحتجُّ وأدافع، وبما أَعْطَيْتَني مِنَ البراهينِ والحججِ خاصَمْتُ أعداءَكَ أعداءَ الدين، فقَصَمْتُ ظهورَهم بالبراهينِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٨٧).

القويَّة، وفَلَجْتُ حُجَّتهم بالحجج السَّنِيَّة، وكلُّ ذلك من الاعتصام بالله؛ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقوله: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ**)، هو استعاذةٌ بصفةٍ مِنْ صفاتِ الله، وهي العزةُ، **والعزُّ في الأصل**: القوةُ والشِّدَّةُ، والغَلَبَةُ والمَنَعة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ [المنافقون: ٨]؛ **أي**: له القُوَّةُ والغَلَبَة.

وقوله: (**لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ**)، شهادةٌ وإقرارٌ بتوحيدِ الله، **ومعناها**: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ.

وقوله: (**أَنْ تُضِلَّنِي**)؛ **أي**: مِنْ أن تُضِلَّني، وهو متعلِّق بـ (**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ**)؛ وفي هذا أنَّ الهدايةَ والضلالَ بيد الله؛ قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقوله: (**أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ**): ثناءٌ على الله تعالى بصفةٍ مِن صفاتِ كماله، وهي الحياةُ التامَّةُ المنزَّهةُ عن النقصِ والفناء.

وقوله: (**وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**): تأكيدٌ لانفرادِ اللهِ تعالى بكمالِ الحياة، وأنَّ الاعتمادَ لا يكونُ إلَّا على الحيِّ الذي لا يموتُ، وأمَّا الأحياءُ الذين يموتون، فلا يُعْتَمَدُ عليهم؛ فكيف بالأمواتِ والمقبورين؟! قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

٣ ـ وعن سعد بن أبي وَقَّاص ﵁، قال: «تَعَوَّذُوا بكلماتٍ كان النبيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِهِنَّ: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلى أَرْذَلِ العُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ القَبْرِ**)»[1].

(١) رواه البخاري رقم (٦٣٧٤).

وقد اشتَمَلَ هذا الحديثُ على التعوُّذِ بالله مِنْ خمسة أمور:

أحدها: قوله: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ**)، وهو تَعَوُّذٌ مِنَ الجُبْنِ، وهو ضِدُّ الشجاعةِ؛ **أي**: المهابةِ للأشياءِ والتأخُّرِ عن فعلها، وهو ناتجٌ عن ضعفِ القلبِ، وخشيةِ النفس، وهو مِنَ الخِلالِ المذمومةِ التي لا تَصْلُحُ أنْ تكونَ في المؤمن.

الثاني: قوله: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ**)، وهو تعوُّذٌ مِنَ البُخْل، وهو مَنْعُ الواجب، أو مَنْعُ السائلِ عمَّا يَفْضُلُ عنده، أو أنْ لَا يُعْطِيَ شيئًا، وهو مِنَ الصفاتِ المذمومة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

والثالث: قوله: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ**)، وهو تعوُّذٌ مِنَ الرَّدِّ إلى أرذلِ العمر؛ **أي**: الرجوعِ إلى أرذلِ العمر، وهو البلوغُ إلى حَدٍّ في كِبَرِ السنِّ، يعودُ معه كالطِّفْلِ في ضَعْفِ عَقْلِه، وقِلَّةِ فهمه، ووَهَنِ قواه.

فالردُّ إلى أرذلِ العمرِ حالةٌ منافيةٌ لِمَا خُلِقَ الإنسانُ له مِنَ العلمِ والمعرفةِ، وأداءِ العباداتِ الظاهرةِ والباطنةِ على وَجْهِها الأكمل؛ ولهذا كانت الاستعاذةُ منه مطلوبةً؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

والرابع: قوله: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا**)، وهو تعوُّذٌ مِنْ فتنةِ الدنيا، **وفتنتُها**: شَهَوَاتُها التي مِنْ شأنها أن تُلْهِيَ عن الله تعالى، وعن عبادتِهِ، وتَطْمِسَ القلبَ عن التطلُّعِ إلى شهودِ آلائِهِ ومِنَنِه؛ قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

والخامس: قوله: **(وَعَذَابِ القَبْرِ)**؛ أي: وأعوذُ بِكَ مِنْ عذابِ القبر، وهو ما يكونُ في البَرْزَخِ مِنَ العذابِ على الرُّوحِ والبَدَنِ لِمَنِ استَحَقَّ ذلك؛ كما قال تعالى عن فِرْعَوْنَ وآلِهِ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر]، وفي هذا التعوُّذِ دليلٌ على إثباتِ عَذَابِ القبر، وأنه حَقٌّ؛ خلافًا لمن أنكَرَهُ مِنْ أهلِ الضلال.

❊ ❊ ❊

٢٢٢

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ

(٣)

٤ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان نبيُّ اللهِ ﷺ يقولُ: **(اللَّهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، والكَسَلِ، والجُبْنِ، والهَرَمِ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وأَعُوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ المَحْيَا والمَمَاتِ)**؛ رواه البخاري ومسلم[1].

وهذا الدعاءُ المبارَكُ اشتَمَلَ على الاستعاذة من سبعة أمور:

أحدها: قوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ)**، وهو تعوُّذٌ مِنَ العجز، وهو ضِدُّ القُدْرة، وأصلُهُ: التأخُّرُ عن الشيء، مأخوذٌ مِنَ العَجُزِ، وهو مؤخَّرُ الشيءِ، ولِلزُومِهِ الضعفَ عن الإتيانِ بالشيءِ استُعْمِلَ في مقابلِ القُدْرة؛ **فقيل**: هو ذَهَابُ القُدْرة، وكلاهما يَحْسُنُ التعوذُ منه؛ والاستعاذةُ مِنَ العجزِ لئلَّا يَعْجِزَ العبدُ عن القيامِ بمهمَّاتِ العباداتِ الناشئ عن ارتكابِ الذنوب؛ لأنها تُوجِبُ لمرتكبها تَوَالِيَ العوائقِ، وتسابُقَ الموانعِ إليه.

والثاني: قوله: **(وَالكَسَلِ)**، وهو معطوفٌ على العَجْزِ؛ **أي**: وأعوذُ بك من الكسلِ، وهو فَتْرَةُ النفسِ والتثاقُلُ عن صالحِ الأعمالِ مَعَ القُدْرةِ عليه؛ إيثارًا لراحةِ البَدَنِ على التعب، ويكونُ ذلك لعدمِ انبعاثِ النفسِ للخير، وضعفِ الرغبةِ فيه.

قال العلامة ابن القيِّم رحمه الله: «والعَجْزُ والكَسَلُ قرينان؛ فإنَّ تَخَلُّفَ مصلحةِ العبدِ وكمالِهِ ولَذَّتِهِ وسرورِهِ عنه: إمَّا أنْ يكونُ مصدرُهُ عدَمَ القدرةِ ـ فهو العجز ـ أو يكونَ قادرًا، لكنْ تَخَلَّفَ لعدمِ إرادتِهِ ـ فهو الكَسَلُ ـ وصاحبُه يُلَامُ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٦).

عليه ما لا يُلامُ على العجز، وقد يكونُ العجزُ ثمرةَ الكسلِ، فيُلامُ عليه أيضًا، فكثيرًا ما يَكْسَلُ المرءُ عَنِ الشيءِ الذي هو قادرٌ عليه، وتَضْعُفُ عنه إرادته، فيُفْضِي به إلى العجزِ عنه»[١].

وإنَّما استعاذَ النبيُّ ﷺ مِنَ العجزِ والكسل؛ لأنَّهما يمنعان العبدَ مِنْ أداءِ الحقوقِ الواجبةِ عليه، ومِنْ تحصيلِ مصالحِهِ النافعةِ له.

والثالث: قوله: **(وَالجُبْنِ)**؛ **أي**: وأعوذُ بك مِنَ الجُبْن، وقد تَقدَّمَ الكلامُ عنه، وذِكْرُ التعوذِ باللهِ منه ومِنَ البُخْل.

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «والجُبْنُ والبخلُ قرينان؛ فإنَّ الإحسانَ يُفْرِحُ القلب، ويَشْرَحُ الصدر، ويَجْلِبُ النِّعَم، ويدفعُ النِّقَم، وتَرْكُهُ يوجبُ الضَّيْمَ والضِّيق، ويمنعُ وُصولَ النِّعَمِ إليه؛ **فالجُبْنُ**: تركُ الإحسانِ بالبدن، **والبُخْلُ**: تركُ الإحسانِ بالمال»[٢].

وقال أيضًا: «فإنَّ الإحسانَ المتوقَّعَ مِنَ العبدِ إمَّا بمالِهِ، وإمَّا ببدنِهِ؛ فالبخيلُ مانعٌ لنفعِ ماله، والجبانُ مانعٌ لنفعِ بدنه»[٣].

والرابع: قوله: **(وَالْهَرَمِ)**؛ **أي**: وأعوذُ بك مِنَ الهَرَمِ، وهو البلوغُ في العمرِ إلى سِنٍّ تَضْعُفُ فيه الحَوَاسُّ والقُوَىٰ، ويضطربُ فيه الفهمُ والعقل، وهو أرذلُ العُمُرِ الذي جاءَ التعوُّذُ منه في قوله: **(وأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلى أَرْذَلِ العُمُرِ)**، وقد سبَقَ ذكرُهُ وبيانُ معناه.

قال العلامة الشَّوْكاني رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا مجردُ طولِ العُمُرِ مع سلامةِ الحَوَاسِّ وصِحَّةِ الإدراك، فذلك مما ينبغي الدعاءُ به؛ لأنَّ بقاءَ المؤمنِ ممتَّعًا بحواسِّه، قائمًا بما يجبُ عليه، متجَنِّبًا لِمَا لا يَحِلُّ له فيه حصولُ الثواب، وزيادةُ الخير»[٤]. وفي الحديث: **(خَيْرُ النَّاسِ: مَن طَالَ عُمُرُهُ، وحَسُنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّ**

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٦).
(٢) «طريق الهجرتين» (ص٤٦٠).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).
(٤) «تحفة الذاكرين» (ص٣٤٨).

النَّاسِ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ)؛ رواه أحمد(١).

وأعظَمُ ما يُعينُ على سَلَامةِ الحَوَاسِّ وصِحَّةِ الإدراكِ حالَ الكِبَرِ: المحافظةُ على الطاعة، والمواظبةُ على العبادة، وفي الحديث: **(احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ)**(٢)، وكذلك ذكرُ الله، وتلاوةُ كتابه؛ **قال عبد الملك بن عُمَيْرٍ** رَحِمَهُ اللهُ: «أبقى الناسِ عقولًا قَرَأَةُ القرآنِ»، **وقال الشَّعْبي** رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ قَرأَ القرآنَ لم يَخْرَفْ»(٣).

والخامس: قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ)** وقد تَقدَّمَ الكلامُ على مثله في حديثٍ سابق، وعذابُ القبرِ حقٌّ، وقد قال ﷺ: **(أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ؛ فَإِنَّ عَذَابَ القَبْرِ حَقٌّ)**(٤).

والسادس والسابع: قولُه: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا والمَمَاتِ)**، وهو تَعوُّذٌ مِنْ فتنةِ الحياةِ والموت.

قال ابن دقيقِ العِيدِ رَحِمَهُ اللهُ: **(وفِتْنَةُ المَحْيَا)**: ما يَتعرَّضُ له الإنسانُ مُدَّةَ حياتِهِ مِنَ الافتتانِ بالدنيا والشهواتِ والجَهَالات، وأشدُّها وأعظمُها ـ والعياذُ بالله تعالى ـ أمرُ الخاتمةِ عندَ الموت.

وفِتنةُ المَمَاتِ: يجوزُ أن يُرادَ بها الفتنةُ عندَ الموت، أُضِيفَتْ إلى الموتِ لقُرْبِهَا منه، ويكونُ فتنةُ المحيا ـ على هذا ـ ما يقعُ قبلَ ذلك في مُدَّةِ حياةِ الإنسانِ وتَصرُّفِهِ في الدنيا؛ فإنَّ ما قارَبَ شيئًا يُعْطَى حكمَهُ، فحالةُ الموتِ شَبَهٌ بالموت، ولا تُعَدُّ مِنَ الدنيا، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بفتنةِ المماتِ فتنة القبر... ولا يكونُ على هذا الوجهِ متكرِّرًا مع قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ**

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٤٠)، ورواه الترمذي (٢٣٣٠)؛ من حديث أبي بَكْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٦٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٦١).

(٣) رواهما ابن أبي الدنيا في كتاب «العمر والشيب» (ص٧٥).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٨١)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٧).

القَبْرِ)؛ لأنَّ العذابَ مُرتَّبٌ على الفتنة، والسببُ غيرُ المسبَّب، ولا يقال: إنَّ المقصودَ زوالُ عذابِ القبر؛ لأنَّ الفتنةَ نَفْسَها أمرٌ عظيم، وهو شديدٌ مستعاذٌ باللهِ مِنْ شَرِّهِ»[(١)].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا فتنةُ المَحْيَا والمَمَاتِ، فقال ابن بَطَّالٍ: هذه كلمةٌ جامعةٌ لمعانٍ كثيرةٍ، وينبغي للمرءِ أن يَرْغَبَ إلى ربِّه في جميعِ ذلك»[(٢)].

والشيطانُ أحرصُ ما يكونُ على إغواءِ بني آدمَ وقتَ الموت؛ لأنَّه وقتُ الحاجة، وقد قال ﷺ: **(الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا)**[(٣)]، وعدوُّ الله أحرصُ ما يكونُ على أنْ لَا يُخْتَمَ لعبدِ اللهِ المؤمنِ بالخاتمةِ الحسنةِ الطيبة؛ **قال عبد الله ابن الإمام أحمد، رحمهما الله**: «لَمَّا حَضَرَتْ أبي الوفاةُ، جَعَلَ يقول: لا بَعْدُ، لا بَعْدُ، فقلتُ: يا أبتِ، أيُّ شيءٍ هذا؟ فقال: إبليسُ قائمٌ حِذَائِي، عَاضٌّ على أنامله، يقولُ لي: يا أحمدُ، فُتَّنِي، وأنا أقولُ له: لا بَعْدُ، حتى أَمُوتَ»[(٤)]؛ أعاذنا اللهُ منه!

* * *

(١) «إحكام الأحكام، شرح عمدة الأحكام» (٢/ ٧٥ ـ ٧٦).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ١٧٦).
(٣) رواه البخاري رقم (٦٤٩٣)؛ من حديث سَهْل بن سعد الساعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) **انظر**: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٤٩٥).

٢٢٣

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ

(٤)

٥ ـ عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: «لا أقولُ لكم إلَّا كما كان رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ، كان يقولُ: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَالهَرَمِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا**)»؛ رواه مسلم[(١)].

أول هذا الحديث، وهو قوله: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَالهَرَمِ، وعَذَابِ القَبْرِ**)؛ اشتَمَلَ على التعوُّذِ مِنْ ستةِ أمورٍ تَقدَّمَ الكلامُ عنها في الأحاديثِ المذكورةِ قبلَهُ.

وقوله: (**اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا...**)، إلى آخرِ الحديثِ، تَضمَّنَ الدعاءَ بتقوى النفسِ وتزكيتها، **والاستعاذةَ مِنْ أمورٍ أربعة: مِنْ عِلْمٍ لا ينفعُ، ومِنْ قلبٍ لا يخشعُ، ومِنْ نفسٍ لا تشبعُ، ومِنْ دعوةٍ لا يُسْتَجَابُ لها**؛ وهي أمورٌ عظيمةٌ، ومطالبُ جليلةٌ؛ يَحْسُنُ الوقوفُ عندها، وتأمُّلُ معانيها ومقاصدها.

قال العَلَّامة الشَّوْكاني رحمه الله: «وقد اشتَمَلَ هذا الحديثُ على الدعاءِ منه ﷺ بأن يُعْطِيَ اللهُ سبحانه نفسَهُ تقواها وأنْ يزكِّيها؛ **أي**: يَجْعَلَهَا زاكيةً كاملةً في الإيمان.

ثم استعاذ مِنْ علمٍ لا ينفع؛ لأنه يكونُ وبالًا على صاحبه، وحُجَّةً عليه،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٢).

واستعاذَ أيضًا مِنَ القَلْبِ الذي لا يخشعُ؛ لأنه يكونُ حينئذٍ قاسيًا، لا تُؤثِّرُ فيه موعظةٌ ولا نصيحةٌ، ولا يَرْغَبُ في ترغيبٍ، ولا يَرْهَبُ مِنْ ترهيب.

واستعاذَ مِنَ النفسِ التي لا تَشْبَع؛ لأنَّها تكونُ متكالبةً على الحُطَام، مُتَجَرِّئةً على المالِ الحرام، غيرَ قانعةٍ بما يكفيها مِنَ الرِّزْق، فلا تزالُ في تَعَبِ الدنيا، وعقوبةِ الآخرة.

واستعاذَ مِنَ الدعوةِ التي لا يُسْتَجَابُ لها؛ لأنَّ الربَّ سبحانه هو المُعْطِي المانع، الباسطُ القابض، الضارُّ النافع، فإذا تَوجَّهَ العبدُ إليه في دعائه، ولم يَسْتَجِبْ دَعْوَتَه، فقد خاب الداعي وخَسِرَ؛ لأنه طُرِدَ مِنَ الباب الذي لا يُسْتَجْلَبُ الخيرُ إلّا منه، ولا يُسْتَدْفَعُ الضُّرُّ إلَّا به»[(١)].

وقوله: **(اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا)**؛ فيه إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس].

وفيه بيانٌ أنَّ الله تعالى هو الذي يَخْلُقُ أفعالَ العبدِ الظاهرةَ والباطنةَ، وهو الذي يَتصرَّفُ في النفسِ بما أرادَ مِنْ إعطائها التقوى، ومِنَ التزكيةِ لها مِنَ العيوبِ والآثام؛ فالعبدُ في كلِّ لحظةٍ مِنْ لَحَظاتِ حياتِهِ مفتقرٌ إلى ربِّه، إلى هدايةٍ يَجْعَلُها اللهُ سبحانه في قلبه، وحَرَكَاتٍ يُحَرِّكُهُ بها في طاعته، وقد كان عامةُ أدعيةِ النبيِّ ﷺ مُتضمِّنةً لطلبِ توفيق ربه، وتزكيتِهِ له، واستعمالِهِ في مَحَابِّه، فَمَنْ هُدَاهُ وصلاحُهُ وأسبابُ نجاتِهِ بيد غيره؟! وهو المالكُ له ولها، المتصرِّفُ فيه بما يشاء، ليس له مِنْ أمرِهِ شيء، مَنْ أحقُّ بالخَوْفِ منه؟!

وقوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا)**:

قال بعضُ العلماء: «اعلَمْ أنَّ في كلٍّ مِنَ القرائنِ الأربعِ ما يُشْعِرُ بأنَّ وجودَهُ مبنيٌّ على غايته، وأنَّ الغرضَ منه تلك الغايةُ؛ وذلك أن تحصيلَ العلومِ

---

(١) «تحفة الذاكرين» (ص٣٥٠ ـ ٣٥١).

إنما هو للانتفاعِ بها، فإذا لم ينتفعْ بها، لم يَخْلُصْ منها كفافًا، بل كان عليه وَبَالًا؛ ولذا استعاذَ مِنْ ذلك.

وأنَّ القلبَ إنَّما خُلِقَ لِيَتَخَشَّعَ للربِّ، وينشرحَ بذلك الصدر، ويُقْذَفَ فيه النورُ، فإذا لم يكنْ كذلك كان قاسيًا، فيجبُ أن يُستعاذَ منه؛ قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وأنَّ النفسَ يُعْتَدُّ بها إذا تَجَافَتْ عن دارِ الغرور، وأنابَتْ إلى دارِ الخلود؛ فإذا كانتْ منهومةً لا تَشْبَع، وحريصةً على الدنيا لا تَقْنَعُ، كانتْ أعدى عَدُوٍّ المرء؛ فأَوْلَىٰ شيءٍ يُستعاذُ منه هي.

وعدمُ استجابةِ الدعاءِ دليلٌ على أنَّ الداعيَ لم يَنْتَفِعْ بعلمِهِ وعَمَله، ولم يَخْشَعْ قَلْبُه، ولم تَشْبَعْ نَفْسُه، والله أعلم»[(١)].

٦ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان النبيُّ ﷺ يقول: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)**؛ رواه البخاري[(٢)].

وقد اشتَمَلَ هذا الحديثُ على التعوُّذِ باللهِ مِنْ ثمانيةِ أمور:

الأول والثاني: (الهَمُّ والحَزَنُ)، وهما أَلَمٌ يصيبُ القلب، والهَمُّ متعلِّقٌ بالمستقبل، والحَزَنُ متعلِّقٌ بالماضي.

قال العلامة ابن القيِّم رحمه الله: «الهَمُّ والحَزَنُ قرينان؛ والفَرْقُ بينهما: أنَّ المكروهَ الواردَ على القلبِ: إمَّا أن يكونَ على ما مَضَى، أو لِمَا يستقبلُ: فالأوَّلُ هو الحَزَنُ، والثاني: الهَمُّ»[(٣)].

والثالث والرابع: (العَجْزُ وَالكَسَلُ) وقد تَقَدَّمَ بيانُ معناهما.

---

(١) **انظر**: «الفتوحات الربانية» لابن علَّان (٧/ ٢٠٧).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٩)، وروى مسلم رقم (٢٧٠٦) بعضه.
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٦).

والخامس والسادس: (الجُبْنُ وَالبُخْلُ)، وقد تَقدَّمَ بيانُ معناهما أيضًا.

والسابع والثامن: (ضَلَعُ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةُ الرِّجَالِ)؛ أَمَّا ضَلَعُ الدَّيْنِ: أي: ثِقْلُهُ وشِدَّته، حتى يَمِيلَ صاحبُهُ عَنِ الاستواءِ لِثِقَلِهِ؛ وذلك حِينَ لا يَجِدُ مَنْ عليه الدَّيْنُ وفاءً، ولا سيَّما مَعَ المطالبة.

وأمَّا غَلَبَةُ الرِّجَال: فَتسلُّطُهُمْ وبَطْشُهم، وظُلْمُهم وعُدْوَانُهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القهرُ الذي ينالُ العبدَ **نوعان: أحدهما**: قهرٌ بحقٍّ، وهو ضَلَعُ الدَّيْنِ، **الثاني**: قهرٌ بباطل، وهو غَلَبَةُ الرجالِ، فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على مَنْ أُوتِيَ جوامعَ الكَلِم، واقتُبِسَتْ كنوزُ العلمِ والحكمةِ مِنْ ألفاظه»[(١)].

* * *

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٧).

٢٢٤

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ

(٥)

٧ ـ عن عائشةَ ﵂، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ، وَالهَرَمِ، وَالمَأْثَمِ، وَالمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ، اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَباعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ)**؛ رواه البخاري ومسلم[(١)].

وهذا الدعاءُ مشتملٌ على الاستعاذةِ مِنْ أَحَدَ عَشَرَ أمرًا، والدعاءِ بثلاثةِ أمورٍ أخرى.

فأمَّا الأمورُ المستعاذُ منها، فهي:

الأول: قوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ)**، وقد سبَقَ الكلامُ عنه.

الثـاني: قوله: **(وَالهَرَم)**، وقد سبَقَ الكلامُ عنه أيضًا.

الثالث: قوله: **(وَالمَأْثَم)**، وهو ما يُوجِبُ الإِثْمَ؛ **أي**: يكونُ سببًا للوقوعِ فيه.

الرابع: قوله: **(وَالمَغْرَم)**، هو ما يقتضي الغُرْمَ، وهو الدَّيْنُ؛ **أي**: ما يلزمُ الإنسانَ أداؤُهُ بسببِ جنايةٍ أو معاملةٍ ونحوه.

وفي الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ قيل له: ما أَكْثَرَ ما تستعيذُ مِنَ المَغْرَمِ؟

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٩) [بعد الحديث (٢٧٠٥)].

فقال: (**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، ووَعَدَ فَأَخْلَفَ**)، رواه البخاري ومسلم[١].

والمأثمُ والمغرمُ يَتضمَّنانِ الإشارةَ إلى حقِّ اللهِ وحقِّ العبد، **فالمأثمُ**: إشارةٌ إلى حَقِّ الله، **والمغرمُ**: إشارةٌ إلى حَقِّ العبد.

الخامس: قوله: (**وَمِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ**)، هي سؤالُ الملَكَيْنِ في القبر.

السادس: قوله: (**وَعَذَابِ القَبْرِ**)، وسبَقَ الكلامُ عنه.

السابع: قوله: (**وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ**)، وهي سؤالُ الخَزَنَةِ على سبيلِ التوبيخ والتقريع؛ وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

الثامن: قوله: (**وَعَذَابِ النَّارِ**)، سبَقَ الكلامُ عنه.

التاسع: قوله: (**وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَىٰ**) **ومعناه**: ما يَحْصُلُ بسببِهِ مِنَ البَطَرِ والأَشَرِ، والشُّحِّ بما يجبُ إخراجُهُ مِنْ واجباتِ المالِ ومندوباته.

العاشر: قوله: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ**)، يُرادُ به الفقرُ المُدْقِعُ، الذي لا يَصْحَبُهُ خيرٌ ولا وَرَعٌ؛ حتى يَتورَّطَ صاحبُهُ بسببِهِ فيما لا يليقُ بأهلِ الدينِ والمُرُوءَةِ، ولا يُبالي بسببِ فاقتِهِ على أيِّ حرامٍ وَثَب، ولا في أيِّ حالةٍ تورَّط، **وقيل**: فتنةُ الفقرِ: ما يَحْصُلُ بسببِهِ مِنَ السَّخَطِ والقُنُوطِ لِمَنْ لا صَبْرَ له يمنعُهُ من ذلك، ولا إيمانَ قويٌّ يدفعُهُ عن ذلك، **وقيل**: المرادُ بالفقرِ: فقرُ النفسِ الذي لا يَرُدُّه مُلْكُ الدنيا بحذافيرها.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وأما استعاذتُهُ ﷺ مِن فتنةِ الغِنَىٰ، وفتنةِ الفقر، فلأنهما حالتان تُخْشَى الفتنةُ فيهما بالتسخُّط، وقِلَّةِ الصبر، والوقوعِ في حرامٍ أو شُبْهةٍ للحاجة، ويُخافُ في الغِنَىٰ مِنَ الأَشَرِ والبَطَرِ والبُخْلِ بحقوقِ المال، أو إنفاقِهِ في إسرافٍ وفي باطلٍ، أو في مَفَاخِرَ»[٢].

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٣٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٩)؛ من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٢٨).

الحاديَ عَشَرَ: قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ)**، وهو تعوُّذٌ باللهِ مِنْ فتنةِ المَسِيحِ الدَّجَّال، وهي أعظمُ الفِتَنِ الكائنةِ في الدنيا؛ كما في حديث هِشَام بنِ عامرٍ الأنصاريِّ ﵁، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: **(مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ)**؛ رواه مسلمٌ، وفي رواية الإمام أحمد: **(فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ)**(١).

قال الشوكاني ﵀: «والمرادُ بفتنةِ المَسِيح الدجال: هي ما يظهرُ على يَدِهِ مِنَ الأمور التي يُضِلُّ بها مَنْ ضَعُفَ إيمانُهُ، كما اشتَمَلَتْ على ذلك الأحاديثُ المشتملةُ على ذكرِهِ وذكرِ خروجه، وما يظهرُ للناسِ مِنْ تلك الأمور»(٢).

وأما الأمورُ الثلاثة التي دعا بها النبيُّ ﷺ في هذا الحديث، فهي:

أوَّلًا: قوله: **(اللَّهُمَّ، اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ)**:

قال ابن القيِّم ﵀: «وفي هذا الحديثِ مِنَ الفقه: أنَّ الداءَ يُدَاوَى بِضِدِّهِ؛ فإنَّ في الخطايا مِنَ الحرارةِ والحريقِ ما يُضادُّهُ الثلجُ والبَرَدُ والماءُ البارد، ولا يقالُ: إنَّ الماءَ الحارَّ أبلغُ في إزالةِ الوَسَخِ؛ لأنَّ في الماءِ الباردِ مِنْ تصليبِ الجسمِ وتقويتِهِ ما ليس في الحارِّ، والخطايا تُوجِبُ أثرَيْنِ: التدنيسُ، والإرخاءُ، فالمطلوبُ مداواتُها بما يُنظِّفُ القلبَ ويصلِّبه، فذكرُ الماءِ الباردِ والثَّلْجِ والبَرَدِ إشارةٌ إلى هذَيْن الأمرَيْن»(٣).

ثانيًا: قوله: **(وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ)**؛ أي: نَظِّفْ قلبي مِنَ الذنوبِ كما نَظَّفْتَ الثوبَ الأبيضَ مِنَ الدَّنَسِ؛ شَبَّهَ نظافةَ قلبِهِ مِنَ الذنوبِ بنظافةِ الثوبِ الأبيضِ مِنَ الدَّنَس؛ لأنَّ زوالَ الدَّنَس في الثوبِ الأبيضِ أظهرُ، بخلافِ سائرِ الألوان؛ فإنه ربَّما يبقى فيه أثرُ الدَّنَسِ بعد الغَسْل، ولم يظهرْ ذلك لمانعٍ فيه، بخلافِ الأبيض؛ فإنَّه يظهرُ كلُّ أثرٍ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٤٦)، و«مسند أحمد» (٤/ ٢٠).

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص١٤٤). (٣) «زاد المعاد» (٤/ ٢٩٣).

فيه، والقصدُ من هذا التشبيه أن يُنظِّفَ قلبَهُ مِنَ الذنوبِ كنظافةِ الثوبِ الأبيضِ المنظَّفِ مِنَ الدَّنَسِ، فلم يَبْقَ فيه أثرٌ ما.

ثالثًا: قوله: **(وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)**، **والمرادُ بالمباعدةِ هنا:** مَحْوُ ما حصَلَ مِنَ الخطايا، وتَرْكُ المؤاخذةِ بها، والوقايةُ مما لم يَقَعْ منها، وشَبَّهَ ذلك بِبُعْدِ المشرقِ والمغربِ مبالغةً في البعد؛ لأنه لا يُوجَد في المشاهداتِ أبعدُ مِمَّا بين المَشْرِق والمغرب، ولأنَّ الْتِقَاءَ المشرقِ والمغربِ مستحيلٌ، فكأنه أراد أنْ لَا يَبْقَى لها منه اقترابٌ بالكلية.

قال الكِرْمانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَحْتمِلُ أنْ يكونَ في الدعواتِ الثلاثِ إشارةٌ إلى الأزمنةِ الثلاثة؛ فالمباعَدَةُ للمستقبل، والتنقيةُ للحال، والغَسْلُ للماضي»(١).

* * *

(١) «فتح الباري» (٢/ ٢٣٠).

٢٢٥

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ (٦)

٨ ـ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **(تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ)**؛ رواه البخاري ومسلم(١).

وفي بعضِ رواياتِ الحديث: «كَانَ النبيُّ ﷺ **(يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ)**»(٢).

وهذا الحديثُ فيه التعوُّذُ باللهِ مِنْ أمورٍ أربعة:

الأول: (جَهْدُ البَلَاءِ)، وهو كلُّ ما يُصِيبُ المَرْءَ مِنْ شِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ، وما لا طاقةَ له بِحَمْله، ولا يَقْدِرُ على دَفْعه.

الثاني: (دَرَكُ الشَّقَاءِ)؛ الدَّرَكُ: هو اللُّحُوقُ والوصولُ إلى الشيء، **والشَّقَاءُ**: نقيضُ السعادة، وهو الهلاك، أو ما يؤدِّي إلى الهلاك، ويكونُ ذلك في أمورِ الدنيا، وفي أمورِ الآخرة.

الثالث: (سُوءُ القَضَاءِ)؛ أي: سُوءُ المَقْضِيِّ، وهو ما يسوءُ الإنسانَ أو يُوقِعُهُ في المكروه، وهو عامٌّ في النفسِ والمالِ، والأهلِ والولدِ، والخاتِمَةِ.

الرابع: (شَمَاتَةُ الأَعْدَاءِ): ما يَنْكَأُ القلبَ، ويَبْلُغُ مِنَ النفسِ أشدَّ مبلغٍ، بفرحِ العدوِّ بِبَلِيَّةٍ تنزلُ بِمَنْ يعاديه.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٦١٦)، وهو عند مسلم رقم (٢٧٠٧)، مِنْ فعلِهِ ﷺ.
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٤٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٧).

٩ ـ وعن عبد الله بن عُمَرَ ﵄، قال: «كان مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ: **(اللَّهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وجَمِيعِ سَخَطِكَ)**»؛ رواه مسلم(١).

قال الشوكاني ﵀: «استعاذَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ زوال نِعْمَتِه؛ لأنَّ ذلك لا يكونُ إلَّا عندَ عدمِ شُكْرِها والمضيِّ على ما تستحقُّهُ وتقتضيه؛ كالبخلِ بما تقتضيه النِّعَمُ على صاحبها مِنْ تأديةِ ما يجبُ عليه مِنَ الشُّكْرِ، والمواساةِ، وإخراجِ ما يجبُ إخراجُهُ.

واستعاذَ أيضًا رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَحوُّلِ عافيتِهِ سبحانَهُ؛ لأنَّه إذا كان قد اختصَّهُ اللهُ سبحانه بعافيته، فقد ظَفِرَ بخيرِ الدارَيْن، فإنْ تَحوَّلَتْ عنه، فقد أُصِيبَ بِشَرِّ الدارين؛ فإنَّ العافيةَ يكونُ بها صلاحُ أمورِ الدنيا والآخرة.

واستعاذَ ﷺ مِنْ فُجاءَةِ نِقْمَةِ الله سبحانه؛ لأنه إذا انتقَمَ مِنَ العبدِ، فقد أَحَلَّ به مِنَ البلاءِ ما لا يَقْدِرُ على دفعه، ولا يُسْتَدْفَعُ بسائرِ المخلوقين، وإنِ اجتَمَعُوا جميعًا، **والفُجَاءَةُ مِنْ فاجَأَهُ مُفَاجَأَةً**: إذا جاءَهُ بَغْتةً مِنْ غيرِ أن يَعْلَمَ بذلك.

واستعاذَ ﷺ مِنْ جميعِ سَخَطِهِ؛ لأنَّه سبحانه إذا سَخِطَ على العبدِ، فقد هلَكَ وخابَ وخَسِرَ، ولو كان السَّخَطُ في أدنى شيءٍ وبِأَيْسَرِ سببٍ؛ ولهذا قال الصادقُ المصدوق: **(وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)**، وجاء بهذه العبارةِ شاملةً لكلِّ سخط»(٢).

١٠ ـ وعن زِيَادِ بنِ عِلَاقَةَ، عن عمّه ﵁، قال: «كان النبيُّ ﷺ يقول: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ والأَعْمَالِ والأَهْوَاءِ)**»؛ رواه الترمذي(٣).

اشتَمَلَ هذا الحديثُ على الاستعاذةِ مِنْ ثلاثة منكرات:

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٩).

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص٣٥١ ـ ٣٥٢) باختصار يسير.

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤٧٣).

أحدها: (مُنْكَرَاتُ الأَخْلَاقِ)، وهذا مِنْ بابِ إضافةِ الصفةِ إلى الموصوف؛ **أي**: الأخلاقُ المنكرةُ، واستعاذ منها ﷺ؛ لأنَّ الأخلاقَ المنكرةَ تكونُ سببًا لجلبِ كلِّ شرٍّ، ودفعِ كلِّ خير.

والثاني: (مُنْكَرَاتُ الأَعْمَالِ)؛ أي: الأعمالُ المُنْكَرَةُ، وهي الذنوبُ والمعاصي.

وقال بعضُ العلماءِ: المرادُ بالأخلاقِ: الأعمالُ الباطنةُ، **والمرادُ بالأعمالِ**: الأفعالُ الظاهرة[1]، فيكونُ قوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ والأَعْمَالِ)** استعاذةً مِنَ الذنوبِ ظاهرِها وباطنِها.

والثالث: (مُنْكَرَاتُ الأَهْوَاءِ): جمعُ هَوًى، واستعاذ ﷺ مِنَ الأهواءِ؛ لأنها هي التي تُوقِعُ في الشر، وتنشأُ عنها أنواعُ المخالفاتِ والانحرافات.

١١ ـ وعن عائشةَ رضي الله عنها، «أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ في دعائه: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا عَمِلْتُ وشَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ)**»[2].

وهذه الاستعاذةُ مِنَ الاستعاذاتِ الجامعةِ التي تَعُمُّ كلَّ شرٍّ مِمَّا عَمِلَهُ العبد، وممَّا لم يَعْمَلْه.

قال الشوكاني رحمه الله: «وقد استعاذَ ﷺ مِنْ شرِّ أعمالِهِ التي قد عَمِلَهَا، ومِنْ شَرِّ أعمالِهِ التي سَيَعْمَلُها، كما استعاذ ﷺ ـ في الرواية الأخرى ـ مِنْ شَرِّ الأمورِ التي يَعْلَمُها، ومِنْ شرورِ الأمور التي لا يَعْلَمُها؛ وهذا تعليمٌ منه ﷺ لأمتِهِ ليقتدوا به، وإلّا فجميعُ أعمالِهِ ـ سابقِها ولاحقِها ـ كلُّها خيرٌ لا شرَّ فيها، وجميعُ ما يَعْلَمُهُ ـ سابقُه ولاحقُه ـ هو مُيسَّرٌ ومعصومٌ مِنْ شَرِّه»[3].

وفي هذه الاستعاذةِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يصيبُ العبدَ مِنَ الشرِّ إنما هو بسببِ ما عَمِلَتْهُ يداه، أو بسببِ ما عَمِلَتْهُ أيدي الناسِ وإنْ لم يكنْ هو العاملَ

(١) انظر: «تحفة الأحوذي» (١٠/ ٥٠).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧١٦).
(٣) «تحفة الذاكرين» (ص٣٥١).

المباشرَ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفيها أيضًا: دَلَالةٌ على ضَعْفِ الإنسان، وشِدَّةِ افتقارِهِ إلى الله ﷻ في صلاحِ شؤونِهِ، واستقامةِ أمورِهِ، والوقايةِ مِنْ شرورِ نفسه، وسيئاتِ أعماله، وأنه لا غِنَىٰ له عن ربِّهِ وسَيِّدِهِ ومولاه طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ فإنه سبحانه وليُّ التوفيقِ والسداد، والهادي لِمَنْ يشاءُ مِنَ العباد، لا رَبَّ سواه.

وبهذا التعوُّذِ الجامعِ تَمَّ ـ بحمدِ اللهِ ـ ما أَرَدتُّ جَمْعَهُ في هذا الباب، ولله الحمدُ أَوَّلًا وآخِرًا، وله الشُّكْرُ ظاهرًا وباطنًا

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]

وكان الفراغُ منه صَبِيحَةَ يَوْمِ الأحدِ الخامسَ
عَشَرَ، مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الآخرةِ، عامَ أَلْفٍ
وأربعمائَةٍ وخمسٍ وعشرينَ للهجرة
والحمدُ لله ربِّ العالمين
وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نبيِّنا
مُحَمَّدٌ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ
أجمعين

فِهْرِسُ الموضوعاتِ

موضوع صفحة

موضوع | صفحة

❖ القسم الثاني ❖

الدُّعَاءُ: منزلتُهُ وآدابُهُ ٢٥٧ ـ ٤٧٨

موضوع صفحة

موضوع صفحة

❖ القسم الثالث ❖

عَمَلُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ٤٧٩ ـ ٧٥٢

موضوع | صفحة

موضوع | صفحة

❖ القسم الرابع ❖

جَوَامِعُ الْأَدْعِيَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ٧٥٣ ـ ٩٤٥

موضوع | صفحة

موضوع | صفحة